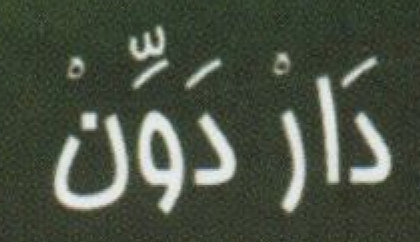
بلال فضل

في أوروبا والدول المتخلفة

تأملات في أحوال خلق الله وتجارب بلاد الله

الدول المتخلفة

أوروبا



في أوروبا
والدول المتخلفة

الطبعة الأولى يناير 2014
الطبعة الثانية فبراير 2014
الطبعة الثالثة فبراير 2014
الطبعة الرابعة مارس 2014
الطبعة الخامسة مارس 2014
الطبعة السادسة ابريل 2014

رقم الإيداع: 23296/ 2013
الترقيم الدولي: 978-977-6426-40-5
تصحيح لغوي: عبد الرحمن الإمام
غلاف : محمد صالح شحاتة

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

في أوروبا
والدول المتخلفة

بلال فضل



دار دوّن للنشر والتوزيع

إلى الشهيد طارق عبد اللطيف الأقطش

شهيد ثورة يناير وملاكي الحارس

غير دمك ودماء كل الشهداء.. ما حدش صادق

أجدع من أي مقدمة

يا مصري ليه ترخي دراعك.. والكون ساعك

و نيل جميل حلو بتاعك.. يشفي اللهاليب

خلق إلهك مقدونيا على سردينيا

و الكل زايطين في الدنيا.. ليه انت كئيب

ما تحط نفسك في العالي.. و تنباع غالي

وتتفّ لي ع اللي ف بالي

من غير ما تعيب

و تقول له كرماء لضيوفنا

لكن صوفنا.. ما يتنتفش إلا بكيفنا

و بيدِّ حبيب

(عم الكل بيرم التونسي)

كيف تنصر دينك دون شوشرة؟

قل لي بالله عليك، هل سمعت مؤخرًا عن محاولات لحرق مسرح في شارع برودواي الشهير في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية؟، هل قرأت عن سيل من البلاغات ينهمر على القضاء الأمريكي يطالب بوقف مسرحية تسيء إلى المسيحية؟، هل رأيت على الإنترنت فيديو كليب لمتظاهر يحتج على عرض مسرحية تزدري الكاثوليكية وهو يمسك بمطواة يهدد بها ممثلي المسرحية بأنه سيقوم بطعنهم في مؤخراتهم، قبل أن ينظر إلى الكاميرات شزرا ويقول بصوت أجش: "آي جيف ماي سيلف تو جيسس كرايزد يا سنز أوف بيتشز".

أنا شخصيا لم أسمع عن شيء من ذلك أو غيره حدث في مواجهة مسرحية (شهادة مريم العذراء) التي عُرضت بنيويورك مؤخرًا والتي يقدم كاتبها الأيرلندي كولم توبلين رؤية مختلفة لحادث صلب السيد المسيح، بطريقة وصفها المعارضون للمسرحية بأنها "كفرية وصادمة وجارحة لمشاعر المؤمنين الكاثوليك"، ومع ذلك فإنني طيلة إقامة في نيويورك دامت شهرًا كاملاً. كان بالمصادفة عمر المسرحية . لم أسمع عن ردود أفعال عنيفة أو جنونية تعرضت لها المسرحية التي وصمت بأنها "مسيئة للمسيحية".

كنت قد حددت سلفا المسرحيات التي سأذهب لمشاهدتها خلال إقامتي، ولم تكن تلك المسرحية من بينها؛ برغم أن أحد الأصدقاء نصحني

بمشاهدتها بعد أن حدثني عن وجود مطالبات بإيقافها صدرت عن بعض الشخصيات الكنسية؛ لكنني بعد أن قرأت عددًا من عروضها النقدية لم أجد نفسي مهتمًا بمتابعتها، إلى أن قال لي قبل سفري من نيويورك صديق مهتم بالمسرح "أن المسرحية ستغلق بعد ثلاثة أيام". فأخذت أسئلتي تتلاحق عليه: "لماذا صدر هذا القرار المفاجئ خاصة أنني كنت قد شاهدت في وسائل الإعلام حملة إعلانية مكثفة توحي بأن المسرحية ستستمر على الأقل حتى نهاية موسم الصيف؟ هل تلَقَّى فريق العمل تهديدات بالقتل تجبرهم على إغلاق المسرحية؟ كيف لم أقرأ عن ذلك في الصحف، وما هو سبب إغلاق مسرحية بدأت منذ أسبوعين فقط؟". فقال لي: "شاهد المسرحية بنفسك وستعرف".

أخذت أبحث عن معلومات أكثر عن سر قرار إنهاء المسرحية مبكرا؛ فلم أجد سوى خبر صغير لم ينشر في صحيفة أمريكية كبيرة بل ونشر في صحيفة بريطانية عن مظاهرة أقيمت أمام مسرح (وولتر كير) الذي تُعرض عليه في ليلة افتتاحها. شارك فيها طبقا لصحيفة (صنداي تايمز) خمسون متظاهرًا فقط، رفعوا لافتات تقول: "أوقفوا الكفر بحق إلهنا الآن... تقربوا إلى الله بالاحتجاج على هذا الكفر"؛ المظاهرة نظمتها مؤسستان كاثوليكيتان في ولاية بنسلفانيا سبق أن قادتا الاحتجاجات على فيلم (شفرة دافينشي)، بالإضافة إلى تنظيم فعاليات ترفض قرارات دعم الإجهاض وتوزيع حبوب منع الحمل على طالبات المدارس الثانوية. وعلى حد متابعتي، كانت تلك المظاهرة الوحيدة ضد المسرحية، وقد انفضت بعد ساعات من إقامتها، ولم يعلق فريق المسرحية عليها؛ بل أصدروا بيانًا يؤكد احترامهم لِحَقّ المعترضين في التعبير عن آرائهم،

ويطلبون منهم حضور المسرحية التي وصفوها بأنها ستدافع عن نفسها ضد أي اتهامات.

لم أجد فيما قرأته تفسيرًا لسر إغلاق المسرحية المبكر؛ برغم كل ما يقال عن تجاوزها لكل الخطوط الحمراء، وهو ما جعل بعض النقاد يتوقعون لها نجاحًا تجاريًا بسبب الجدل الذي ستثيره؛ لكن النجاح التجاري لم يتحقق برغم الاحتفاء النقدي بالمسرحية، وبرغم حملة الدعاية الضخمة: وهو ما أدى إلى خسائر مادية للمنتجين جعلتهم يتخذون قرار إغلاق المسرحية بعد 27 عرضًا تجريبيًا و16 ليلة عرض رسمية فقط، وهو رقم يعتبر مخجلا لأي مسرحية حتى لو كانت تعرض خارج برودواي؛ فما بالك بمسرحية تُعرض على واحد من أكبر مسارح برودواي.وما زاد الطين بلة أنه عندما تم في مطلع مايو إعلان ترشيحات "توني أووردز" - أشهر جوائز المسرح في العالم- وتم ترشيح المسرحية لجوائز أفضل مسرحية وأفضل نص وأفضل ممثلة، لم يحدث أي انتعاش في الإيرادات يدفع المنتجين للتراجع عن موعد الإغلاق المبكر للمسرحية، وهو ما جعلني أشك أكثر في أسباب الإغلاق وأحرص على الذهاب لحجز تذكرة قبل إغلاق المسرحية.

عندما اقتربت من المسرح وجدت تجمهرًا حاشدًا أمامه؛ فتوقعت أن يكون تجمهرًا لمظاهرة تُبارك إغلاق المسرحية أو تحتج على إغلاقها دون حساب ولا عقاب، ضحكت وأنا أسأل نفسي ساخرًا: متى سيبدأ تساقط "كسر الرُّخام" بالقرب مني؛ لكني مع اقترابي من الحشد لم أسمع حتى أصوات هتافات، ولم أر لافتات مرفوعة؛ ليتضح أن المتجمهرين ليسوا

سوى رواد المسرح الذين أقبلوا على المسرح عندما سمعوا بخبر قُرب إغلاقها.

بعد أن لَحِقْت بالعافية آخر تذكرة في عرض الغد، سألت موظف شباك التذاكر عن صحة أنباء قرب الإغلاق؛ فرد عليّ بحزن: "مع الأسف هذا صحيح".. قرّبت رأسي من الشباك وسألته: "هل تلقيتم تهديدات بتفجير المسرح؟ أرجوك صارحني ولا تقلق من سؤالي فقد اشتريت التذكرة فعلاً ولا أنوي إعادتها، أنا فقط أسأل لأني كاتب من مصر وأريد أن أفهم سر إغلاق المسرحية"، سحب الرجل تهيدة عميقة وقال لي بنفاد صبر: "هل تعتقد لو كان هناك تهديدات أننا سنُعرّض أحدًا من الجمهور للخطر؟! وحتى لو كنا أغبياء وقررنا ذلك هل تعتقد أن أحدًا سيسمح لنا بأن نفعل ذلك"؟، قلت له: "إذن لماذا الإغلاق المبكر"؟ رد عليّ بأسى: "ليس سوى الحظ السيئ"، ثم قال بجدية "أرجو ألا تتأخر على موعد بدء المسرحية؛ لأننا لا نسمح بالدخول المتأخر للجمهور أيًا كانت المبررات".

لم يبدُ لي أن هناك تشديدات أمنية بالقرب من المسرح يومها، ولا في اليوم التالي الذي حضرتُ فيه المسرحية، ولم أتعرض للتفتيش في مدخل المسرح، برغم أني كنت أحمل كيسًا بلاستيكيًا أسود به كتب قديمة لم أقاوم إغراء شرائها وأنا ذاهب إلى المسرح، مع أن تفتيش الحقائب أمر متعارف عليه في مسارح برودواي؛ خصوصًا وأن أسبوعين فقط كانا قد مضيًا وقتها على تفجيرات ماراثون بوسطن الإرهابية المؤسفة.

كنت قد وصلت إلى المسرح قبل نصف ساعة من موعد بدئها.. كان الكرسي الذي وجدته في الطابق العلوي من المسرح (الميزانين)، اندهشت عندما رأيت من موقعي في الأعلى عددًا كبيرًا من جمهور الصالة يصعد

على خشبة المسرح؛ فظننت أنه جزء من جمهور غاضب قرر أن يصعد إلى الخشبة لتحطيم الديكور؛ لكني لم أجد المشهد ملفتًا لأحد غيري، دقّقت النظر فوجدت أن الجمهور يتناوب الصعود على الخشبة ليطوف بتمثال لمريم العذراء تم نصبه في وسط المسرح، سألت جاري العجوز الوقور عما يحدث فقال لي إنهم منذ قليل أعلنوا للجمهور أنه يمكن لمن أراد أن يصعد لتفقّد ديكور المسرحية، على أن لا يطيل البقاء على خشبة المسرح ويترك الفرصة لغيره، ثم أضاف مازحًا: "بالطبع هذه خدمة مقدمة فقط للأغنياء القادرين على دفع ثمن التذاكر الغالية، ولن نستطيع نحن فقراء (الميزانين) أن نستفيد من هذه الخدمة".

شجعتني مودته على أن أسأله عن ديانته، فقد كنت راغبًا في معرفة طبيعة الجمهور الراغب في حضور العرض بعد كل ما كتب عنه، بدت على وجهه تقطيبة وأجاب عن سؤالي بسؤال: "من أي بلد أنت ياعزيزي"؟، قلت: "من مصر"، وقبل أن أشرح له سر سؤالي بادرني بقوله: "ليس مستحبًا هنا أن تسأل الناس عن ديانتهم فهذا أمر شخصي جدًّا"، شرحت له سر سؤالي؛ فقال لي وقد بدا أنه تفهم الأمر: "حسنا، دعني أقل لك إنني كنت كاثوليكيًّا"، قلت متسائلاً: "كنت؟"، قال ضاحكًا: "لست متأكدًا بعد ما إذا كنت قد فقدت إيماني كاملاً أم لا"، شجعني لطفه على مزيد من الفهم فسألته: "كنت قد قرأت في صحيفة (وول ستريت جورنال) نقدًا للمسرحية يصفها كاتبه بأنها إنجيل الكافرين بالكاثوليكية، ويقول إنه إذا كنت من الذين يعتقدون أن المسيحية أم الشرور في العالم ستعجبك هذه المسرحية.. مارأيك في كلام كهذا؟"، قال وهو يهز رأسه: "لا أستغرب أن أقرأ ذلك في صحيفة يملكها أحمق مثل روبرت ميردوخ، لم

أعد متدينًا كما كنت من قبل؛ لكني لا أعتقد أن المسيحية هي أم الشرور في العالم، ولا أعتقد أن الإسلام أو اليهودية أو أي دين هو أساس الشرور في العالم، صدقني الغباء هو أساس الشرور في العالم كله.. بماذا ستستفيد البشرية منك لو كنت ملحدًا وغبيًا في نفس الوقت؟!". أخذت أهز رأسي معجبًا بكلامه وأنا أهنئ نفسي على حظي السعيد -غالبًا- فيمن أجاورهم في العروض الفنية ومقاعد الطائرات.

قلت له: "عندما قرأت عن إغلاق المسرحية مبكرًا ظننت أن هناك حملات من الكنيسة الكاثوليكية ضدها؛ لكني فوجئت أن السبب هو تدني الإقبال عليها، ثم عندما جئت بالأمس وجدت المسرح ممتلئًا، وها هو اليوم أيضًا ممتلئ عن آخره". قال: "هذا بفعل الغباء الذي كنت أُحدّثك عنه، هل ترى الجالسين إلى جواري، سمعتهم يقولون إنهم جاؤوا إلى المسرحية بعد أن قرأوا عن حملات تُطالب بمقاطعتها". ثم ضحك وأضاف: "هل تعلم أن ما شجعني على المجيء من ولاية كونيتكيت لمشاهدة المسرحية أن أحد أصدقائنا أرسل إلى زوجتي المتدينة جدًا بريدًا إلكترونيًا للمشاركة في حملات لمقاطعة المسرحية وإرسال رسائل إلى منتجيها للاحتجاج عليها". قلت مداعبًا: "هل أفترض أنك جئت إلى هنا بدون علم زوجتك؟". قال وقد أضاءت ضحكة وجهه: "طبعا نعم، فقد أكون شجاعًا لكي أجازف بإغضاب الرب مني؛ لكني لست أحمق لأجازف بإغضاب زوجتي".

توقف حديثنا عندما بدأت أنوار المسرح في الإظلام التدريجي، وخلت الخشبة مِن كل مَن عليها، بدأ عمال الديكور بإزاحة الصندوق الزجاجي الذي كان يحوي تمثال السيدة العذراء ليظهر أنه كان يخفي تحته بركة

ماء صغيرة تصب فيها حنفية ينزل منها إلى داخل البركة "سرسوب" ماء، كان ديكور المسرحية يمزج بين قطع أثاث قديمة وأخرى معاصرة، بدا أن وراء هذا المزج فلسفة من المخرجة ديبورا وارنر، تأكدت عندما دخلت بطلة العرض فيونا شو وهي ترتدي جلبابًا نسائيًا قصيرا تحته بنطلون جينز رمادي اللون.

بدأت البطلة في ترتيب مقاعد حول طاولة عرفنا من كلامها أنها طاولة العشاء الأخير الذي تناوله السيد المسيح مع حوارييه. ضحك الجمهور بشدة عندما قالت تعليقات تسخر من الحواريين الذين لم تحب صحبتهم كأم لابنها، ثم بدأت تقوم بتنظيف أحد الكراسي وهي تقول إنها تنظفه من أجل ابنها الذي سيعود في أسرع وقت؛ لأنها لا تصدق أبدًا أنه مات، برغم أنها رأته بعينيها وهو يُصلب؛ لكنها لم تتحمل المشهد فتركت الجمع المحتشد حوله وعادت إلى بيتها.

لاحظتُ أن مؤلف المسرحية حرص على أن يصوغ حوارها بلغة معاصرة سهلة، بدليل أن مشاهدًا إنجليزيتُه عادية جدًّا مثلي لم يجد صعوبة في متابعة الحوار الذي كان به الكثير من الجمل والعبارات الصادمة المناقضة للرواية الكاثوليكية لصلب المسيح؛ بل وحتى للرواية الإسلامية لتعرّض المسيح للصلب؛ لكن أكثر ما وجدته صادمًا جدًّا، هو ما حدث عندما اقتربت البطلة من بركة المياه وقامت بخلع البنطلون الجينز، فظننت أنها ستقوم بتدلية قدميها في البركة؛ لكني فوجئت بها تخلع ملابسها كاملة وتنزل "زلط ملط" إلى بركة الماء، رجعت إلى الخلف مذهولاً ثم نظرت حولي فلم أجد أن أحدا لفت انتباهه ما حدث؛ حتى جاري العجوز نظر إليّ مستغربًا حركتي المفاجئة، ثم عاد لمتابعة الشاشة

الضخمة التي تحتل جدار المسرح والتي ظهر علها ظلالٌ متحركة للبطلة وهي تعوم داخل الماء.. بعد قليل خرجت البطلة من بركة الماء، وأخذت تواصل حديثها وهي تُجفف جسدها العاري، ثم أخذت ترتدي ملابسها وهي تواصل الحكي، كنت طيلة ذلك أتوقع أن أسمع صرخة من أحد الحاضرين يحتج على ما حدث؛ لكن المسرح ظل صامتًا وكأن على رؤوس رواده الطير وهم يستمعون إلى البطلة وهي تواصل حكي مونولوجها الطويل الذي تحكي فيه رؤية السيدة العذراء لما حدث لابنها الذي اشتاقت إليه، وهو مونولوج استمر لمدة ساعة ونصف دون توقف، وانتهى بعبارة قصيرة قالتها الممثلة بألم شديد وهي تسترجع ما جرى للمسيح: "هل كان الأمر يستحق كل ذلك؟".

انطفأت الأنوار، وضج المسرح بالتصفيق، ثم خرجت البطلة ثانية لكي تتلقى تحية الجمهور الذي ظل يصفق لها لأكثر من عشرة دقائق على أدائها الذي -مهما اختلفت مع مضمون المسرحية- لا يمكن أن تنكر أنه كان فذًّا ومدهشًا ومتباينًا بين السخرية المريرة التي تثير ضحك الجمهور وبين الحزن المؤلم الذي جعل كثيرًا من المحيطين بي تعلو أصوات بكائهم أحيانا تعاطفًا مع حزن السيدة العذراء وهي تصف مشاعرها وهي تشاهد تعرض ابنها للأذى.

ونحن في طريقنا للخروج من المسرح كان الجمهور قد تحول إلى حلقات نقاشية صغيرة تتحدث عن المسرحية، حرصت على سؤال جاري العجوز عن رأيه؛ فقال: "وجدتها مثيرة للاهتمام؛ لكن لا أعتقد أنها كانت تستحق كل هذه الضجة، مشكلتي مع الكاثوليكية كانت أعمق مما ذكرته المسرحية"، ثم قال مبتسمًا: "لقد لاحظت كيف تراجعت إلى الخلف

مصدومًا عندما شاهدت البطلة تخلع ملابسها وتنزل لتستحم"، قلت: "يبدو أنني الوحيد الذي صدمه الأمر"، سألني: " ألا يسمحون في بلادكم بمشاهد عارية؟"، قلت له: "طبعا لا؛ لكن الأمر ليس متعلقًا بالعري نفسه، المسألة أن هذه هي السيدة مريم العذراء، لا أعتقد أن صدمتي مما حدث أمر غريب"، قال لي: "لست وحدك في ذلك، الكاثوليك مصدومون جدًّا ومستاءون من الأمر، في رأيي أن صناع المسرحية أضافوا المشهد كنوع من التحدي لم أجد له مبررًا، ربما ظنوا أن ذلك سيحدث ضجيجًا يجعل الناس يُقبلون على المسرحية"، ثم قال لي بعد أن خفض صوته قليلاً وقد كست وجهه نبرات عابثة وقال: "كان يجب أن يختاروا ممثلة أكثر جمالاً في حالة كهذه".

فور أن عدت إلى البيت بدأت أجمع معلومات أكثر عن طبيعة الاحتجاجات التي مورست ضد المسرحية؛ فوجدت أن الحملات المنظمة لمهاجمتها اقتصرت على المواقع الإلكترونية للمؤسستين الكاثوليكيتين اللتين التي حرصتا في حملتهما على تأكيد أن مهاجمة فريق المسرحية للكاثوليكية وإهانة معتقداتها لا يمكن فصله عن الهوية الجنسية لأبرز أضلاع مثلث العمل؛ فبطلة المسرحية فيونا شو سحاقية . وتفتخر . ، والمؤلف كولم توبلين أعلن عن شذوذه الجنسي، وكتب من قبل مهاجمًا موقف الكنيسة الكاثوليكية من الشذوذ، توبلين الذي يقيم في نيويورك ويدرس الأدب الإنجليزي في جامعة كولومبيا لم يعلق على حملات الهجوم التي طالته، معلنًا أنه يعتبر نفسه كاثوليكيًّا مرتدًا، وقال إنه استلهم عمله من أعمال فنية لتيتان وتينتوريتو عن صلب المسيح شاهدها خلال زيارته

لإيطاليا؛ فبدأ كتابة الفكرة في رواية قصيرة من تسعين صفحة، ثم قام بتحويلها إلى مسرحية مونودراما.

المدهش أن المسرحية عرضت من قبل في دبلن بأيرلندا عام 2011 ولكن ببطلة مختلفة ومخرج مختلف، دون أن تُحدث أي ردود فعل غاضبة ضدها في مكان يعتبره البعض معقلاً للكاثوليكيين المتعصبين؛ بل إن كبار قادة الكنيسة قرروا أن يتجاهلوا المسرحية، فلم تقم حتى مظاهرة رمزية ضدها، وربما لذلك استمر عرضها لمدة ثلاثة أسابيع فقط وتوقفت.

ما فهمته بعد سؤال أصدقاء بعضهم متخصص وبعضهم متابع، أنه لم تقم حملات إعلامية قوية ضد المسرحية أو معها، وحتى المظاهرة التي قامت ضدها لم تهتم الصحافة الأمريكية بتغطيتها أصلاً، وكانت الصحف الإنجليزية أكثر اهتمامًا بنشر أخبارها، ليُترك التعليق على المسرحية لنقاد المسرح فقط ليقولوا رأيهم فيها سلبًا وإيجابًا، بالإضافة إلى التغطيات الفنية العادية التي شملت حوارات صحفية مع مؤلفها ومخرجتها وممثلتها التي تشتهر في أمريكا بأدوارها في أفلام هاري بوتر ومسلسل "ترو بلود"، وبالتالي لا يمكن إطلاقًا القول بأن حملات الهجوم التي ثارت ضد المسرحية هي التي جعلتها تفشل هذا الفشل الذريع؛ ما حدث ببساطة أن الناس لم تهتم بما قدمته المسرحية فلم تحقق نسبة مشاهدة عالية؛ مما سبب نزيفًا ماليًّا للمُنتجين جعلهم يقررون وقفها فورًا؛ لتصبح المسرحية دليلاً إضافيًّا على أن مغازلة المشاعر الدينية سواء بالتملق أو بالهجوم لا يمكن أن يكون سببًا للنجاح التجاري في مسارح برودواي، وهو ما قرأت عنه موضوعًا في صحيفة (وول ستريت جورنال) الشهيرة اهتم بتغطية الموضوع من زاوية اقتصادية، تحدثت فيه كاتبته سارة بوليام عن فشل

أكثر من تجربة قامت بمغازلة مشاعر المتفرجين الدينية، وهو ما جعلها تختار لموضوعها عنوانًا "جاب من الآخر" يقول: "الله لا يضمن لك النجاح التجاري في برودواي".

أنهيت قراءة كل هذا وأنا أسأل نفسي: ما الذي كان سيحدث لو قرر مركز ثقافي في مدينة مغمورة في نيوزيلندا الواقعة في أقصى الأرض مثلا، أن يقدم مسرحية يتعرض فيها بشكل بعيد عن التوقير والتقديس لأي شخصية نسائية في تاريخ الإسلام أيًا كانت درجة أهميتها دون حتى أن يجرؤ على تقديمها نصف عارية فوق خشبة المسرح؟، كيف كانت سفارات نيوزيلندا في العالم ستتحول إلى ساحات حرب تحتل مواقع الصدارة في نشرات الأخبار وعناوين الصحف؟، طيب ما الذي حدث إذن للكاثوليك؟، هل تحوّل الكاثوليك فجأة إلى عقلاء يدركون أن الصمت على من يسيء إلى دينك أفضل من منحه الشهرة التي يبحث عنها؟ أم أن وجود قوانين صارمة لحرية التعبير هو الذي منع المتعصبين منهم أن يتجاوزوا في إعلان رفضهم لما يسيء إلى دينهم؟ أم أنهم أدركوا أن تلك الرواية التي تحولت إلى مسرحية وربما تتحول إلى فيلم لن تُنهي إيمان ملايين الكاثوليك بعقيدتهم أو حماسهم لنشرها؟ وإلى متى سيظل عالمنا المتخلف مبتلى بالأغبياء من المتدينين والأغبياء من الملحدين الذين يتصورون أن هناك من يمكن أن يلغي فكرة ما من الوجود ليقوم بتمشية الكون على مزاجه سواء باتجاه التدين أو وباتجاه الإلحاد؟

والسؤال الأهم والأعمق من كل ذلك: لماذا لم نر على شبكة الإنترنت أبدًا فيديو يظهر فيه متظاهر غيور على كاثوليكيته وهو يقف أمام المسرحية فاتحًا مطواة يهدد بها ممثليها بأنه سيقوم بطعنهم في مؤخراتهم وهو ينظر

إلى الكاميرات شزرا قبل أن يقول بمنتهى الحماس: "آي جيف ماي سيلف تو جيسس كرايزد يا سنز أوف بيتشز"؟.

مايو 2013[1]

---

[1] (سيلاحظ القارئ الكريم أنني حرصت أن أرفق كل فصل من فصول هذا الكتاب بتاريخ نشره في الصحف التي كنت أكتب فيها بانتظام، وقد فعلت ذلك ليس فقط لكي أضع القارئ في السياق الزمني لما كتبته؛ بل لكي يكون ذلك تذكيرا لنفسي في لحظات نقد الذات، أنني حاولت أن أنقل ما عشته وشهدته وقرأت عنه من تجارب لبني وطني لعلهم يستفيدون منها ذات يوم، وها أنا قد بلغت مرة في الصحف ومرة في هذا الكتاب، اللهم فاشهد).

على دكة في مانهاتن

جلست على الدكة الخشبية فرحًا بما اقتنصته للتو من كتب وأفلام، محاولاً نسيان رغبتي الملحّة في معرفة تطورات سعر الدولار لأتمكن من تقدير ثمن هذه "التعويرة" الجميلة بالجنيه المصري، أخذت أستنشق بسعادة غامرة هواء نيويورك الإبريلي الساحر، وأنا أنظر متأملاً في ناطحات السحاب المحيطة بي من كل اتجاه وهي تخبئ الشمس خلفها، مستخلصة منها أجمل ما فيها: ضوءها.

دخل الرجل في مجال رؤيتي فجأة، استغربت استئذانه لي بالجلوس بتذلل لا محل له في هذه المدينة على الإطلاق، ملابسه كانت رثة ومظهره كان مزريًا للغاية ونظراته تعرفها جيدًا في أعين الذين يسألون إلحافًا؛ لكن حتى فقراء نيويورك المدقعين يعرفون أن الجلوس على الدكك الخشبية الموجودة في كثير من شوارعها حق مكفول للجميع. بعد ثوان أدركت لماذا اختار الجلوس إلى جواري أنا بالذات، كانت حقائبي الممتلئة حتى آخرها بالكتب هي السبب، مرت لحظات قصيرة من الصمت سألني بعدها: "سيدي هل لديك وقت لتسمع قصة؟"، قلت له محرجًا: "نعم"، وأنا أفكر في صيغة مناسبة لإبلاغه فور أن ينتهي من قصته بأنني للأسف لا أحمل أي فكة، في قصته قال إنه كان يعمل جزارًا لمدة 18 عامًا في حي هارلم أحد أفقر أحياء نيويورك، وفجأة طرده صاحب العمل بعد أن أصيب بمرض لم أرد أن أسأله عنه لأنه لم يكن يبدو مريضًا أصلاً، أو ربما لأنه كان قد صافحني لتوه، ولم أكن أريد لوساوسي أن تبدأ في السؤال عما

إذا كان مرضه معديًا أم لا. ثم بعد أن انتهى من ترديد قصته التي كانت متماسكة وكان أداءه فيها مقنعا للغاية وكانت خاتمتها مؤثرة عندما حكى فيها عن زوجته ناكرة الجميل التي هجرته وتركت له ابنهما ليرعاه، قبل أن يقول لي: "سيدي كانت هذه هي قصتي باختصار، أنا الآن أتحمل مسئولية ابني فهل يمكن أن تساعدنا اليوم في إيجاد طعام إلى أن أنجح في العثور على عمل".

كنت قد قررت في منتصف قصته أن أجزل له العطاء تقديرًا لأدائه؛ لكنه فاجأني عندما أجهش بالبكاء وهو يمسك بالعشرين دولارًا التي أعطيتها له، بعد أن هدأ قليلاً قال لي بصوت متهدج: " اعذرني فهذا أكبر مبلغ حصلت عليه منذ شهرين.. كنت أتمنى لو كنت أجيد العزف لكي أعزف شيئًا للناس ولا أضطر لحكاية قصتي في كل مرة.. أنت رجل طيب ياسيدي.. أتمنى أن تستمتع بقراءة كل هذه الكتب.. القراءة تجعل الناس يشعرون بآلام الآخرين.. أنا لم أقرأ شيئًا منذ ثلاثين عامًا على الأقل.. حتى ما قرأته وقتها لم أعد أذكره".

كنت خجلاً من نفسي بشدة فقد أدركت أنه كان صادقًا في كل ما قاله لي، أحببت أن أفعل أي شيء لكي أواسيه وأخفف إحساسي بالذنب، أخرجت كتاب أطفال كنت قد اشتريته لابنتي وقلت له: "أعط هذا لابنك سيستمتع به"، هز رأسه بامتنان وقال لي: "لا ياصديقي.. هذا سيؤذيه". قلت له مندهشًا: "لا تقل لي إنه لا يجيد القراءة"، قال لي: "لا بالعكس هو يذهب إلى المدرسة وسيعجبه الكتاب جدًا؛ لكنه عندما سينتهي منه سيتمنى لو حصل على غيره وأنا لن أكون قادرًا على ذلك.. وهذا سيؤذيه". أنا الذي كدت أبكي هذه المرة بسبب ما قاله، شعرت أن من واجبي أن

أفعل شيئًا آخر لأُبدي تضامني معه، أخرجت من جيبي عشرين دولارًا أخرى ومددتها إليه، فاجأتني ملامح وجهه وهو يهز رأسه قائلاً: "لا لن آخذ شيئًا آخر.. حصلت اليوم على أكثر مما كنت أتمناه.. شكرًا لك ياسيدي.. تبدو لي رجلاً طيبًا لكن احذر.. نيويورك مدينة كبيرة بها أسماك قرش ضخمة يمكن أن يأكلوا شخصًا طيبًا مثلك في ثوانٍ".

لم يكن لديّ ما أقدمه أكثر سوى كلمات طيبة أتصدق بها عليه، لم يكن لديّ وقت للتفكير في شيء من هراء التنمية الذاتية، كان لا بد أن أرتجل شيئًا مشجعًا وواقعيًا في نفس الوقت: "لا تحزن سينصلح الحال قريبًا وستجد عملاً لائقًا، وسيكون ابنك فخورًا بك.. هذه أمريكا أرض الفرص.. وأنت حتمًا ستجد فرصة.. هل تعلم أن هناك ملايين في بلادي أفضل حالاً منك وأكثر غنى يحسدونك لأنهم يتمنون الحصول على جنسيتك الأمريكية".

ظهرت على وجهه بالعافية ابتسامة مريرة.. وقف فجأة وكأنه يعلن أنه لا يريد سماع المزيد مما أقول، ثم قال لي: "إذن أخبرهم عني لعلهم يشعرون ببعض الرضا". ثم صافحني بحرارة وانصرف تاركًا بصمته المميزة على المشهد الذي كان قبل دخوله فيه يبدو كامل الأوصاف.

مارس 2013

انتخبوا محمد مرسي رئيسا لتركيا!

حتى لو امتلكت جرأة ارتكاب حماقة شتيمته؛ فلن أستطيع فعل ذلك لأنني لا أعرف شتيمة واحدة باللغة التركية، سواء كانت شتيمة قبيحة أو حتى شتيمة بورجوازية من تلك التي تسمح بها أجهزة الرقابة؛ فعلى مدى الأعوام التسعة الماضية التي زرت فيها تركيا كانت أموري دائمًا والحمد لله تسير على ما يرام بشكل لم يجعلني ألجأ أبدًا لتعلم شتائم تركية لكي أقوم باستخدامها.

كنت قد وصلت للتو إلى مطار إسطنبول عقبب أيام من عزل محمد مرسي، سلّمت جواز سفري إلى ضابط الجوازات المكفهر الغتيت الذي كان يشبه سابقيه من ضباط الجوازات في مطار إسطنبول الذين تعودت رؤيتهم على الدوام مكفهرين ومقدمين للزوار صورة غتيتة لا تتفق مع بلادهم الودودة، أخذ الضابط جواز السفر من يدي وفتحه ثم التفت إلى زميله الذي يجلس في الكابينة المجاورة له قائلاً له: "ميسير.. ميسير" وهو يشير إليّ قبل أن يناول زميله جواز السفر مشيرا لي أن أذهب إليه لكي يختم جواز سفري. (ينطق الأتراك اسم مصر هكذا "ميسير"؛ ولا يستخدمون أبدًا كلمة "إيجيبت"؛ ليس لأن لديهم موقفًا من دلالته الفرعونية أو القبطية أو تفضيلا لإسم مصر باللغة العربية؛ بل لأن "ميسير" هو اسم مصر باللغة التركية التي تمتلئ بمئات الكلمات العربية).

عندما تحركت صوب زميله، لفت انتباهي أنه نظر إليّ هاشًّا باشًّا بصورة لم أعهدها من قبل من ضابط يجلس في مثل موقعه؛ لكنه لم يمسك بجواز سفري لينظر فيه؛ بل أمسك بموبايله وبدا أنه يبحث فيه عن شيء ما، وهو يقول لي: "أهلاً وسهلاً بميسيو.. يا مرحبًا بميسيو". بادلته الترحاب والتحية قبل أن أفاجأ به يقول لي بجدية شديدة وهو يواصل البحث في موبايله: "والله محمد مرسي زعلت عليه يا أخي.. أنت ما زعلت عليه؟".

خبرتي الطويلة مع ضباط المطارات عمومًا وضباط الجوازات خصوصًا علمتني أن أحتفظ بآرائي لنفسي في أي شيء يقولونه أو لا يقولونه، قبل ستة أشهر قضيت ساعتين من الانتظار الممل في مطار (جي إف كي) بنيويورك لمجرد أنني قلت لضابط الجوازات وأنا أضع أصابعي على جهاز فحص البصمات أن أصابعي عرقانة طالبا منه أن يعيرني منديلا لأمسحها قبل أن أضعها على الجهاز.. فنظر إليّ شزرًا وقبل أن أضع أصابعي على الجهاز بعرقها ومرقها، كان قد أشار لي بجلافة أن أذهب إلى غرفة الانتظار المجاورة حيث تولى زميل له على مدى ساعتين مهمة النخورة في كيفية حصولي على الفيزا وسبب مجيئي إلى نيويورك؛ مع أنها كانت المرة الثالثة التي أدخل فيها نيويورك، ولولا خطاب كنت أحتفظ به من جامعة كولومبيا التي دعتني للزيارة، لربما تعرضت لتفتيش ذاتي من النوع الذي تمتد فيه أصابع الضباط إلى حيث لو امتدت أصابع أخرى غريبة لتوجب قطعها.

ربما كانت هذه الذكرى ما جعلني أهز رأسي دون إجابة على السؤال، وهو ما جعل الضابط الهاش الباش "الزعلان على مرسي" يكرر سؤاله لي: "ما زعلت على مرسي يا أخي؟". اخترت أسلم الطرق للرد وقلت مرددًا بعض

الكلمات التركية التي أحفظها؛ لأنها أصلاً كلمات عربية صميمة "قسمت.. نصيب.. رضا.. الحمد لله"، ثم أضفت مشيرًا إلى الجواز قائلاً بالإنجليزية: "ستجد الفيزا في آخر الجواز على فكرة"، تجاهل جملتي الأخيرة مع أنني حرصت على أن تكون مصحوبة بابتسامة مخنوقة؛فقد بدا أنه حصل أخيرًا على ما كان يبحث عنه؛ حيث أدار شاشة الموبايل نحوي وقال بالعربية التي بدا أنه يفتخر بإجادتها، أو بظنه أنه يجيدها: "انظر يا أخي.. والله أضع صوره على الفيس بوك.. انظر"، فوجئت على الموبايل بصورة لمحمد مرسي وهو يصلي بالناس أراني إياها وهو يقول: "رئيس يصلي مثل أردوغان كيف يمشي من الحكم أخي بالله عليكم".. ثم أخذ يعبث في الموبايل من جديد ليديره ثانية نحوي ليريني صورة لمرسي وهو يجلس في المسجد يقرأ القرآن.. ثم قال لي: "رئيس حافظ قرآن كيف يمشي أخي.. والله زعلت عليه".

كانت الخيارات أمامي صعبة للغاية، نظرت خلفي لعلي أجد طابورًا مزدحمًا يُقنع الرجل بأن ينجز ويقصّر في الرغي خاصة وقد أخذ يبحث عن صور أخرى ليريني إياها؛ لكني لم أجد أحدًا خلفي لأتحجج به، وكانت هذه المرة الأولى التي أكره فيها ميزة العبور السريع "الفاست تراك".

طيب ماذا أقول لهذا الرجل الذي ركب على أكتافي فأعجبته وقرر ألا ينزل من عليها بسهولة، هل أخاطر بخوض نقاش جاد أشرح له فيه أنه لم يُسئ أحد إلى الإسلام والقرآن مثلما فعل مرسي وعشيرته؛ لأنهم لم يأخذوا منه سوى المظاهر التي تعجب المسلمين المتحمسين في الخارج؛ بينما حولوا حياة المصريين في الداخل إلى جحيم لأن مرسي لم يلتزم بتعاليم دينه التي تحرم الكذب وإخلاف الوعود والظلم وتجبر الحاكم على

أن يتحمل المسئولية السياسية عن تعثر بغلة في العراق، وأن أردوغان الذي اكتسب شعبيته في تركيا لدرجة جعلت الضابط يحتفظ بصوره هو أيضًا لم ينجح لأنه يصلي ويصوم فقط؛ بل لأنه قام منذ أول يوم له في الحكم بالبعد عن القرارات الهوجاء الإنفعالية واتخاذ قرارات ذكية ساهمت في تغيير حياة بسطاء الأتراك الاقتصادية والاجتماعية تغييرًا إيجابيا جعل مهمة الإطاحة به مسألة شديدة الصعوبة على كارهيه، حتى لو كانوا من أصحاب النفوذ في أجهزة الجيش والشرطة.

بدا لي من سلوك الضابط في تصفح موبايله أنني حتى لو قلت له ذلك فإنه لن يلتفت إلى شيء مما أقوله؛ فقد ظل مستمرًا في البحث عن صور جديدة لمرسي في أوضاع دينية مختلفة؛ ناهيك عن أنني فكرت في جدوى النقاش الفكري مع شخص جعلته قدراته العقلية يحتفظ بصور لرئيس دولة لا يعرف عنها شيئًا؛ بدلا من أن يحتفظ بمقاطع بلو توث ساخنة تساعده على تحمل الحياة إذا لم يستطع الباءة، عندها فقط وجدت نفسي أسأل نفسي: لماذا لم أفكر أبدًا في تعلم شتائم تركية دارجة أو حتى راقية، ليسَ لكي أشتم هذا الضابط في العلن؛ فوقتي أثمن من أن أضيع منه عشر سنين في سجون تركيا بتهمة الاعتداء على موظف ممل أثناء تأدية عمله، حتى لو كنت قرأت أن سجون تركيا تحسنت كثيرًا عما بدت عليه في فيلم (ميدنايت إكسبريس) الشهير؛ فسجون القاهرة ستظل أفضل لأنك لا تحتاج فيها إلى دوبلاج لتتمكن من فهم السجن؛ بل لكي أغمغم بتلك الشتائم في سري لكي أشعر أنني قمت برد مناسب على هذا الضابط الذي عطلني كل هذا الوقت.

في المقابل لم يكن خيار تجاهل الرد على الضابط سهلاً بالنسبة لي: فأنا لن أحترم نفسي لو لم أقل كلمة الحق في وجه ضابط جمارك جائر على حقي في أن أعبر إلى بلاده بسلام؛فأنا رجل قدرته على انتصاب القامة الذي أشار إليه مارسيل خليفة في أغنيته الشهيرة "منتصب القامة أمشي" مرتبطة طرديًا بخوضه الدائم لمواجهات في الحق تزيد من احترامه لنفسه؛ لذلك كان لا بد أن أرد لضمان انتصاب قامتي؛ لذلك ودون طول تفكير وجدتني أسأله: "قل لي يا أخي الكريم هل تعرف أناسًا كثيرين في تركيا يحبون مرسي مثلما تحبه؟"، رد بحماس شديد: "طبعا كل مسلم يحبه هنا.. رجل يصلي يحفظ قرآن ماشاء الله ما شاء الله"، قلت له بجدية شديدة: "جميل لماذا لا تطلبون من أردوغان أن يتوسط لإطلاق سراحه ويأتي إلى تركيا ويحصل على الجنسية التركية".. بدا أن الفكرة أعجبته على الفور فقال: "إي والله . جملة تركية دارجة لإبداء الإعجاب مع أنها عربية فصيحة. تمام تمام هذا واجب مسلم ينصر أخوه المسلم". أضفت قائلاً: "ويمكن أن تجعلوه بعدها يترشح لرئاسة الوزراء هنا بعد أن يتركها أردوغان في الانتخابات القادمة لكي تستمتعوا بإنجازاته السياسية العظيمة".

نظر الضابط إليّ متشككًا فلم يجد على وجهي ما يشي بأنني أسخر: فصمت منتظرًا مني أن أكمل رأيي، وأنا أكملت قائلاً: "عندما تفتح جواز السفر سترى أنني كاتب؛ ولذلك فقد جئت إلى تركيا خصيصًا هذه الزيارة لكي ألتقي بالصحف ووسائل الإعلام لكي أُقنعهم بتبني هذه الفكرة التي يمكن أن تفيد تركيا من خبرة مرسي العظيمة التي حرمنا منها الكفار والتي يستحقها الشعب التركي بجدارة "، عاد وجهه ليتهلل بعد أن شعر أنه لا

يتحاور فقط مع شخص من محبي مرسي؛ بل يشهد حدثًا تاريخيًا يمكن أن يتحقق.

أمسك الضابط بجواز سفري بكل فخر ولم يأخذ وقتًا في تصفحه كالعادة؛ بل وضع الختم على الفيزا فورًا بحماس كأنه يوقع على وثيقة إعادة الخلافة العثمانية، ومع أنه لا يفترض به أن يصافحني إلا أنه أدخل يده من تحت الحاجز الزجاجي لكي يسلم عليّ وقال لي: "بارك الله فيكم.. وفقكم الله أخي"، وأنا قلت له: "والله زعلت عليه"، ودخلت إلى أرض تركيا وأنا أشعر بانتصاب حادّ في القامة؛ فقد ثبت علميًا أن ممارستك المنتظمة للعبث تزيد من تدفق الدم في شرايينك أكثر بكثير من المواجهات الجادة.

بعدها بربع ساعة استغرب صديقي التركي حسن بيه عندما وجدني أقول له فور لقائي به وقبل السلامات والتحيات: "ألا صحيح يا حسن بيه هو يعني إيه بالتركي بلا مرسي بلا زفت؟.. ممكن تكتبها لي في ورقة".

يوليو 2013

متى نفتتح متحفًا لحسني مبارك؟

لا أحد في بلادنا يفكر خارج الصندوق؛ ولذلك، كل شيء في بلادنا يُنسى بعد حين كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي، وهو ما ترجمه أبونا نجيب محفوظ نثرًا بعد ذلك حين قال قولته الخالدة "لكن آفة حارتنا النسيان".

كنت بعد رحيل حسني مبارك مباشرة قد دعوت الناس إلى ألا ينشغلوا بنزع اسم مبارك من محطة المترو التي تحمل اسمه؛ بل أن يحافظوا عليها كما هي؛ على أن يضعوا تحتها حصرًا لأبرز جرائم عهده وماجرى فيه من فساد وكوارث وإمراض وإفقار للناس، لكي ينعش ذلك ذاكرة الناس فلا يجدوا يومًا ما مَن يجعلهم يحنون إلى أيامه إذا رأوا أيامًا أسود وأسوأ لا قدر الله، كما حدث عندما وجد عهد الملكية من يصوره للأجيال الجديدة أنه كان أجمل عهود مصر على الإطلاق دون ذكر عيوبه ولا مخازيه.

أزعم أن الفرصة لا زالت قائمة، وأننا بحاجة ماسة إلى تنظيم متحف لمبارك، نعم أعني ما أقوله، متحف يضم جرائمه ومخازيه تجد فيه على سبيل المثال لا الحصر كشفًا بأسماء ضحايا العبارة الغارقة التي أفلت مغرقها من العقاب بسبب مبارك وصورًا لهم، وكشفًا بأسماء ضحايا قطار الصعيد المحترق مصحوبًا بصور لهم، وكشفًا بأسماء ضحايا مسرح بني سويف المحترق وصور لهم، وكشفًا بكل ماتيسر من أسماء الذين ماتوا غرقًا وهم يهربون من جحيم الفقر في عهده، وقوائم بأسماء ضحايا

التعذيب والقمع من كل التيارات في سجونه ومعتقلاته وأقسام شرطته، وحصرًا بعدد مرضى الأمراض المزمنة الذين ذاقوا الأمرّين في "سلخاناته" المسماة -زورًا وبهتانًا- بالمستشفيات الحكومية؛ وهكذا دواليك.

ستتفهم فكرتي بشكل أفضل لو ضربت لك مثلاً بسيطًا على طريقة مواجهة الدول المتقدمة لماضيها المخزي.. تخيّل أنك تسير في شوارع مدينة أمريكية ووجدت لافتات ضخمة تدعوك إلى حضور أكبر متحف للعنصرية في العالم، يضم 9 آلاف قطعة كلها مليئة بالعنصرية ضد العرق الأسود بالتحديد، متحف جيم كرو في ولاية ميتشيجن الأمريكية فعَل ذلك وعرض ماوصف بأنه أضخم تشكيلة عنصرية في العالم تضم بدءًا من لافتات "للبيض فقط" التي كانت توضع على المتاجر والأتوبيسات خلال عهد التفرقة العنصرية الذي كان يمنع السود من ركوب المواصلات العامة ودخول المحلات بل والمشي في بعض الشوارع، ووصولاً إلى رسوم كاريكاتيرية حديثة صوّرت باراك أوباما بوصفه قردًا وإرهابيًّا.

المفاجأة أن من قام بجمع هذه التشكيلة عالم اجتماع أمريكي من أصل أفريقي اسمه دافيد بيلجريم، قرر أن يحارب العنصرية بطريقته الخاصة، منذ أن وجد في سوق الروبابيكيا في ألاباما عام 1970 ملّاحة تحوي رسمًا عنصريًّا لامرأة سوداء، فقرر أن يقوم بجمع كل مايجده محتويًا على إشارات عنصرية قائلاً لنفسه إن مثل هذه الأشياء يجب أن توضع في متحف بدلاً من أن تُرمى في صفائح الزبالة؛ لكي تشجع الناس على أن يفكروا بشكل عميق في عدم تسامحهم، وتعينهم على مواجهة مابداخلهم من تعصب وعنصرية.

يبقى السؤال: هل يمكن أن نرى في بلادنا متاحف تواجهنا بأسوأ مافينا لكي نظل نتذكره دائمًا؟ وهل لو قمنا بإنشاء هذه المتاحف لن يدخلها أحد من أبناء بلادنا تمامًا مثل المتاحف التي نضع فيها أعظم ما في تاريخنا، وهل يمكن في حالة كهذه أن نجعل زيارة جميع المتاحف بنوعيها جزءًا من منهجنا التعليمي، نشجع الطلاب فيه على حضور المتاحف التي تضم أمجادنا، والأهم تلك المتاحف التي تضم مخازينا وجرائم حكامنا.

المؤسف أننا اليوم ونحن نحاكم مبارك فنحن لا نحاكمه على أخطر جرائمه التي تهون كثيرا إلى جوارها تهمة قتل المتظاهرين برغم بشاعتها. مع الأسف نحن أكثر بلاد الله حديثًا عن الدين والتدين، ومع ذلك لن تجدنا أبدًا نطبق مبدأ المسئولية السياسية عن الفساد والاستبداد والإفقار والتجهيل. ذلك المبدأ الذي سنّه في حضارتنا الإسلامية الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي قال: "لو أن بغلة عثرت في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها لماذا لم أمهد لها الطريق"؛ ولذلك فنحن نحاكم مبارك ورموز نظامه على جرائم نعلم جيدًا أنهم سيفلتون منها لأننا نحاكمهم بقوانين هم الذين صنعوها وأمنوا مداخلها ومخارجها لكي يفلتوا من ثغراتها ساعة اللزوم؛ مع أننا لو حاكمناهم على مسئوليتهم السياسية عن ماجرى في بلادنا لأرسينا قواعد ذهبية للعدالة ستجعل أي مسئول يفكر في قادم السنين طويلاً قبل أن يفسد في أرض مصر أو يستضعف أهلها.

لا يمكن أن تجد دولة تتقدم أو يستقر حالها ويهنأ أهلها بالأمن والعدالة إلا إذا كانت تتخذ من المسئولية السياسية أساسًا لمحاسبة مسئوليها عن كل مايحدث فيها من كوارث وأخطاء ومصائب، هل تتخيل أن دولة مثل

آيسلندا كانت الدولة الوحيدة في العالم التي حاكمت رئيس وزرائها جاير هاردي بسبب مسئوليته عن الأزمة الاقتصادية العالمية التي ضربت العالم كله بما فيه آيسلندا؟! قرأت منذ أيام أن محاكمته أخيرا انتهت بحصوله على البراءة بعد أن استمرت لمدة أعوام، لماذا آيسلندا هي التي فعلت ذلك دون غيرها؛ ببساطة لأن هذه الدولة طبقت قاعدة عمر بن الخطاب دون أن تسمع عنه حتى، عندما أنشأت في سنة 1905 محكمة اسمها لاندسدومور مخصصة للتحقيق في الاتهامات الموجهة للقادة السياسيين والوزراء؛ ليس فيما يخص وقائع الفساد أو الوقائع الجنائية فتلك قضايا ينظرها القضاء العادي؛ وإنما فيما ينسب إليهم من اتهامات بالتقصير في أداء عملهم طبقًا لشكاوى مقدمة من نواب البرلمان الذين لاينشغلون هناك بالتدخل في حريات الناس ولا تكفيرهم في عيشتهم، بقدر ماينشغلون بجعل كل صاحب مسئولية يفكر ألف مرة قبل أن يتراخى في أداء عمله.

ولذلك فقد أحال أهل أيسلندا هاردي إلى المحاكمة التي ظل أمامها طويلاً قبل أن يُثبت براءته ويتضح أنه كان مدانًا فقط في تهمة وحيدة هي عدم مواظبته في حضور كل اجتماعات مجلس الوزراء المخصصة لبحث الأزمة المالية، وهي تهمة لن يتعرض للعقاب بسببها، ولكن سيوجه له فقط اللوم لأنه أثبت اجتهاده في حل الأزمة المالية بوسائل أخرى، ومع ذلك فإن هاردي لم يرضه الحكم واعتبره عبثًا حدث لإرضاء النواب البرلمانيين الذين حرضوا على محاسبته.

بالطبع نحن لانفضل أن نكون آيسلندا بقدر مانفضل أن نكون كأوغندا؛ لذلك ستجد لدينا من يعتبرون أن فلان أو علان من رموز العهد المبارك

"ناس نضيفة ومحترمة": لأنه لم يثبت عليهم أن أخذوا قطعة أرض بالمخالفة للقانون، أو لأنه لا توجد عليهم مستمسكات مالية؛ بينما لو فتشت في سيرة كل واحد منهم لوجدته شريكًا أصيلاً في جرائم مبارك؛ ليس فقط بالصمت أو بالمؤازرة وإنما بالتطوع بتسهيل التخريب الذي قام به مبارك في كل مؤسسات الدولة والذي سنظل نعاني منه حتى يأتي اليوم الذي يكون لدينا فيه محكمة كتلك التي في آيسلندا تحاسب كل مسئول على إهماله وتقصيره على أداء عمله، ولا تنتظر حتى يختلف مع شركائه في السرقات فيسربوا له مستندات تدخله السجن.

هذا الحساب الشرس الذي تُجريه الدول المتقدمة لمسئوليها لا يعني أن كل من يحكم فيها يرتقي إلى مصافّ الملائكة؛ بدليل أنك يمكن أن تجد شخصًا في غاية الوضاعة السياسية والأخلاقية مثل سيلفيو بيرلسكوني يصل إلى مقاعد الحكم في إيطاليا، وبالطبع فإن للفساد السياسي في إيطاليا قصة طويلة تحتاج إلى مجلدات لاستعراضها؛ لكن مع ذلك، حتى في إيطاليا لن يكون الفساد مهمة سهلة بالنسبة لمن يحكم؛ حتى لو كان فسادًا يتعلق بحياته الشخصية. ففي نفس المجلة التي قرأت فيها خبر محاسبة رئيس الوزراء الأيسلندي وجدت خبرًا عن تسريبات نشرتها صحيفة إيطالية كبرى مفادها أن بيرلسكوني وافق على أن يدفع 5 ملايين يورو مرة واحدة لكي يضمن صمت راقصة التعري المغربية كريمة المحروج الشهيرة باسم روبي سارقة القلوب، والتي كان قد أثير حولها لغط منذ أكتوبر 2010، عندما نشرت الصحافة الإيطالية أنها قالت لأصدقائها أنها ترتبط بعلاقة مع برلسكوني، وأنه عندما كان يتم تحويل مكالماتها إلى مكتبه كان يقول إنها ابنة صديقه حسني مبارك، لعلك تذكر

هذه القصة التي كانت فضيحة عالمية؛ ومع ذلك لم تنشرها أغلب الصحف لدينا.. روبي قالت يومها أن برلسكوني كان يدفع لها 47 ألف يورو أسبوعيًّا من ماله الخاص لكي يمارس معها الجنس، ومنذ أن تم نشر ذلك وبرلسكوني يتعرض للتحقيق معه في تلك الاتهامات؛ حتى بعد أن خلعه صندوق الانتخابات بعيدًا عن موقع قيادة إيطاليا، وهو لايحاسب بسبب ضخامة المبلغ؛ بل يتم محاسبته لأن روبي وقت أن رافقها كانت قاصرًا تبلغ من العمر 17 سنة: صحيح أنك لو شاهدت صورتها تشعر إنها "ماتديش على 17 خالص"، حيث يبدو أن الفراخ البيضاء لها تأثير فتاك في المغرب أيضًا. لكن هذا ليس موضوعنا فالمهم في هذه القصة أنه حتى في ظل مناخ سياسي فاسد كالموجود في إيطاليا، لا يمر الفساد بسهولة في ظل وجود تداول للسلطة وحرية صحافة ومؤسسات متماسكة توجد عليها رقابة شعبية تضمن عدم تعفنها الكامل، وفي ظل ذلك كله يمكن أن يتكبد الفاسد ثمنًا باهظًا من أجل أن لا يحاسب على فساده ولو كان شخصيًّا.

قصتي الأخيرة التي أُحدّثك عنها ستكون من أسبانيا التي لا يرى الناس غضاضة في وجود الملكية التي تحكمهم؛ لكنهم في نفس الوقت لا يرون أن انتقاد ملكهم المفدى خوان كارلوس يمكن أن يشكل عيبًا في الذات الملكية، ولا يعتبرون أن كونه ملكًا متوجًا يعني أنه يملك البلاد والعباد؛ حتى إن الصحف الأسبانية تمتلئ بتعليقات غاضبة تلومه على خطأ قام به حفيده الذي أطلق النار على نفسه خطأ من بندقية لم يكن ينبغي أن يحملها؛ لأن عمره 13 عامًا فقط، وقام الكثير من المعلقين بالربط بين تلك الحادثة وبين ولع الجد بالسلاح، وهو ماجلب له انتقادات حادة

لقيامه بالسفر إلى أفريقيا لاصطياد الفِيَلة؛ حتى إن صورة ظهرت له في الصحف وهو يقف أمام جسد فيل قام بصيده هو وصديقته الأميرة الألمانية التي تصفها الصحافة بأنها عشيقة الملك؛ بينما تنكر هي ذلك. بل إن كثيرا من المعلقين لم يتعاطفوا مع الملك الذي تعرض لكسر في الحوض خلال رحلته؛ بقدر ماتعاطفوا مع الفِيَلة التي أطلق عليها النار؛ معتبرين أنه من العار أن يقوم بذلك فيما يواجه بلده أزمة طاحنة تهدد بانهيار اقتصاده.

في مواجهة هذه الآراء قرأت في مجلة (ذي ويك) البريطانية مقالاً مترجمًا لكاتب أسباني نشره في صحيفة (زامورا) يدافع عن الملك بشراسة في وجه منتقديه، ويصفهم بالنفاق، ويذكّرهم بالأيام التي كانوا ينحنون فيها أمامه ويحلمون بالتقاط صور تجمعهم به، والآن يهربون كالفئران من سفينته الغارقة؛ على حد قول الكاتب الذي اعتبر أن كلمة "آسف" التي نطق بها الملك في تصريح صحفي مقتضب تكفي وزيادة لمسامحته على كل أخطائه؛ لكنها لن تجعل الأسبان يسامحون أبدًا النخبة السياسية والاقتصادية التي تحاول أن تُنسي الناس أخطاءها باصطياد رأس الملك.

وأنا أقرأ ذلك كله، سألت نفسي: هل يمكن أن نرى في أحد الملكيات العربية يومًا ما مقالات صحفية تنتقد ملك البلاد المُفَدّى -طال عمره- وتهاجمه، دون أن يعرّض ذلك كاتبها للكفر لأنه يجترئ على ظل الله في الأرض؟، لكني وجدته سؤالاً شديد التفاهة، وأن السؤال الأعمق والأهم الذي يمكن أن أعثر على إجابة له هو: ياترى كم عدد الحيوانات النادرة التي صادها ملوك وأمراء الخليج خلال رحلات صيدهم في بلاد الله، وهل

يجرؤ أحد في تلك البلاد على إيقافهم أصلاً لكي نطلب من مواطنيهم أن يفكروا في انتقادهم يومًا ما.

يبقى السؤال الأهم الآن: هل ستكون الانتخابات الرئاسية فاتحة عهد جديد لنا لكي نرى في بلادنا هذا النمط من المحاسبة والرقابة بحيث يفرض الشعب على كل من سيحكمونه أن تكون المسئولية السياسية وليس الجنائية فقط أساسًا لمحاسبتهم؟ هذا هو السؤال الأهم والأجدى من السؤال الذي ننتظر جميعًا إجابته الآن "مين اللي هيكسب الرياسة ويحكمنا؟": لأنه لن يفرق اسم الشخص الذي سيحكم الشعب إذا كان الشعب ضامنًا قدرته على أن يشكمه.

23 مايو 2012

هيا بنا نكسر هيبة الرئيس المنتخب!

كسر المصريون رقبة هيبة الرئيس المنتخب قبل أن ينتخبوه، وأولى بهم أن يستمروا في كسر هذه الهيبة مرارًا وتكرارًا إذا أرادوا له ألا يكون الرئيس المنتخب الأول والأخير.

نغمة خبيثة ستسمعها تتكرر بشدة في الأيام المقبلة مرددة: "لا يصح أن نعامل الرئيس المنتخب بنفس الطريقة التي تعاملنا بها مع الرئيس الفرعون المفروض علينا بقوة القمع والتزوير.. ينبغي أن نستعيد هيبة الدولة بأن نُحصّن الرئيس المنتخب من السخرية والنقد اللاذع، ونعامله بما يستحقه منصبه من احترام وتوقير".

بالطبع لن يستطيع مرددو هذه النغمة من عَبَدة كل السلاطين وهواة جمع الفراعين سواء كانوا يتسربلون باسم الوطنية أو باسم الدين، أن يتشطروا على ملايين الألسنة الحرة التي ستلاحق الرئيس بالسخرية والنقد اللاذع على شبكات التواصل الاجتماعي تويتر وفيس بوك وجوجل بلس وما يستجد بين عشية وضحاها، إلى أن يجدوا وسيلة ناجعة للتحكم في تلك الشبكات، وبالتالي سيلجؤون إلى زبونهم المفضل للقمع: الكُتّاب والفنانون ومقدمو البرامج، الذين سيكونون في اعتقادي المحك الحقيقي لاختبار ما إذا كانت ثورة يناير قد أنهت عقلية التعامل الفرعوني مع منصب الرئيس وشخصه أيضًا، وما إذا كانت النصوص القانونية

المطاطية التي تحصن هيبة الرئيس وتصونه عن النقد ستستخدم ضد معارضي أول رئيس تُجلسه دماء الشهداء على منصبه.

ربما ستكون مهمة الصحافة المكتوبة أسهل لأنها بدأت خوض معركة كسر هيبة الرئيس قبل سنوات طويلة منذ تجربة صحيفة (العربي) الناصرية التي ستظل في سجل حسنات الأستاذين عبد الله السناوي وعبد الحليم قنديل، ثم تجربة صحيفة (الدستور) "المتباعة" للأستاذ إبراهيم عيسى، وما تلاهما من تجارب شجاعة ساهمت في كسر حاجز الخوف لدى المصريين، كل بطريقته وكل حسب طاقته.. وبعد أن نطلب الأجر والثواب لأصحاب تلك التجارب عند الله ثم في وجدان الوطن وذاكرته، سيكون علينا أن نعترف أن تأثير الصحافة المكتوبة بحكم انتشار الأمية في بلادنا وبسبب انخفاض معدلات قراءة الصحف سيظل محدودًا برغم أهميته وتأثيره السياسي وبرغم ماتعطيه له شبكات التواصل الاجتماعي من زخم بفضل اللينكات والبوستات، وسيظل الامتحان الحقيقي لمدى وجود ديمقراطية حقيقية في مصر مرهونًا بأن نرى برنامجًا تلفزيونيًا كوميديًا مثل برنامج (ساترداي نايت لايف) الأمريكي الشهير يسخر مقدموه وممثلوه من الرئيس بكل جرأة وصراحة؛ بل وبكل وقاحة إن لزم الأمر، وأن نرى أفلامًا سينمائية تتحدث عنه بكل شجاعة مثلما رأينا المخرج الأمريكي أوليفر ستون يخرج فيلمًا عن الرئيس الأمريكي الأهطل جورج دبليو بوش خلال فترة حكمه وليس بعد خروجه من دائرة السلطة، وأن نرى نقدًا له بالاسم في حوارات المسلسلات التلفزيونية دون أن يمتد مقص الرقيب إلى ذلك النقد اللاذع بالختان أو حتى بالتشذيب،

وأن نرى معرضًا فنيًا تشكيليًا تتناول لوحاته سياسات وشخص الرئيس بالنقد والتشريح بكل شجاعة وجرأة.

لن أضرب هذه المرة أمثلة على كلامي فأستشهد بدول متقدمة وعريقة في الديمقراطية؛ بل سأضرب مثلين الأول من أفريقيا والثاني من أمريكا الجنوبية، وقبل أن تستغرب من اختياري للقارتين دونا عن قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية المشهورتين بمساحات حرية التعبير الواسعة في دولهما، دعني أقل لك إنني في مسألة كسر هيبة الرئيس لا أحلم بأن نصل إلى درجة الجرأة التي حدثت قبل أسابيع في جنوب أفريقيا، عندما فوجئ أهل البلاد بجاليري في مدينة جوهانسبرج يعرض لوحة للفنان بريت موراي ترسم رئيس جنوب أفريقيا جاكوب زوما وهو يقف في وضع مشابه لوضعيات تماثيل الزعيم السوفيتي لينين؛ ولكن مع تعديلة بسيطة هي خروج عضو الرئيس الذكري من بنطلونه.

اللوحة "الأبيحة" ظلت شبه مجهولة لعدة أسابيع حتى أصدر حزب المؤتمر الوطني الحاكم الذي يرأسه زوما بيانًا قويًا ضدها مهددًا باتخاذ إجراءات صارمة ضد الفنان والجاليري الذي يعرض لوحته، وبعدها قام زوما برفع دعوى قضائية ضد الفنان والجاليري، لتصبح اللوحة محط أنظار العالم وتجلب آلاف الزوار المبتهجين والساخطين والمتسائلين؛ بل والمستعدين لتشويهها بأيديهم، وهو مافعله رجلان ملثمان تم القبض عليهما وإحالتهما للسجن!! آه والنعمة إحالتهما هما وليس راسم اللوحة، ولتندلع مناقشات في طول البلاد وعرضها حول ضرورة حماية تلك اللوحة احترامًا لحرية التعبير أوضرورة منعها احترامًا لمقام الرئاسة، وكذلك احترامًا للرجل الأسود الذي تهينه اللوحة التي اعتبرها البعض

منتمية إلى تلك الأعمال الفنية التي تكرس الصور النمطية المهينة التي تصور الرجل الأسود بوصفه وحشًا جنسيًا مفترسًا.

الكاتبة فيليسيا أوبيلت في صحيفة (الصانداي تايمز) رأت أن الرئيس زوما كان يجب أن يتجاهل الإهانة؛ لأنه بالمبالغة في رد فعله أرسل نصف سكان البلاد ليلقوا نظرة على اللوحة؛ في حين رأى الكاتب موندلي ماخاني في صحيفة التايمز أن اللوحة لم تأت من فراغ؛ فزوما البالغ من العمر سبعين عامًا تزوج أربع مرات آخرهن في إبريل الماضي، ولديه على الأقل عشرون ولدًا من تلك الزيجات؛ مما يجعله "فخورًا بأن يفتح سوستة بنطلونه كثيرًا" على حد تعبير الكاتب الذي أضاف: "بصراحة رئيسنا فحل، ومغامراته الجنسية يتحدث عنها الناس من قبل انتخابه رئيسًا"، مُذكّرًا الناس بأن زوما تعرض للمحاكمة في عام 2006 عندما تم اتهامه باغتصاب ابنة صديقه، وهي المحاكمة التي انتهت بإسقاط التهم الجنائية عنه، بعد أن اقتنع المحلفون بأن الجنس الذي حدث بين الاثنين كان متفقًا عليه ولم يكن بالإكراه. وقد حرص الكاتب على أن يستعيد كيف صدم زوما الجمهور بتفاصيل صارخة لما حدث، وكيف أنه شعر بالإثارة بسبب لبس ابنة صديقه، وكيف أنه حرص عقب انتهائه من الجنس معها على أن يستحم لكي يحمي نفسه من الإصابة بمرض الإيدز.

لم يكن هذا رأي كل الصحف في جنوب أفريقيا؛ فصحيفة العهد الجديد تساءلت في افتتاحيتها عن حق الجميع في الكرامة بما فيهم الرئيس، حتى لو كان رئيسًا طائشًا، قبل أن تضيف: "هل من واجبنا أن نغض الطرف عن أي سخافة وقلة ذوق طالما كانت مرسومة ونحميها بوصفها فنًّا؟صحيح أن دستور جنوب أفريقيا يحمي حرية التعبير؛ لكن دعونا لا

ننسى أننا أفارقة، ومن تقاليدنا أننا لا نقوم بمضايقة أو التقليل من احترام كبار السن بذلك الشكل المهين الذي فعلته اللوحة، وحتى لو تسامح زوما مع ذلك، ماذا عن عائلته وبناته الكبيرات اللواتي أصدرن بيانًا يعبرن فيه عن مدى الإذلال والضيق الذي سببته لهن اللوحة".

صحيفة "كيب تايمز" ردت في افتتاحيتها على هذا المنطق المنتمي إلى مدرسة "اعتبره زي أبوك" قائلة بالنص: "حرام عليكم ياناس، إنه مجرد فن، وكان على زوما أن يضحك فور رؤيته للوحة وخلاص؛ لكن اختياره رفع دعوى قضائية يدل على رغبته في إظهار ميوله السلطوية التي سبق لها أن ظهرت في عام 2010 عندما قام برفع دعوى قضائية ضد أشهر رسام كاريكاتير سياسي في البلاد بسبب "كاريكاتيراية" وجد أنها مهينة له، وهو ما اعتبره العديد من المحللين السياسيين مثيرًا للقلق وينذر بتحول جنوب أفريقيا إلى دولة سلطوية تُحجّم من آراء المواطنين تجاه قادتهم. وحسبما يقول الكاتب جاريث فان أونسيلين: "إن الرئيس زوما لا يفهم أنك لا تطلب الاحترام بل تحصل عليه إذا كنت تستحقه، أما أن تطلب إسكات الناس وإذلالهم؛ فهذا لا يليق برجل دولة أبدًا".

من جنوب أفريقيا نذهب إلى باراجواي، حيث انشغلت الصحافة والإعلام قبل أسابيع بالحديث عن الرئيس الباراجوائي فرناندو لوجو الذي اضطر للاعتراف للمرة الثانية بطفل غير شرعي له، كان قد تسبب فيه خلال علاقة جنسية مارسها عندما كان قِسًّا في الكنيسة الكاثوليكية. لوجو البالغ من العمر 61 عامًا وصل إلى منصب الرئيس في عام 2006، وبعدها بعامين وخلال خوضه للانتخابات ادعت عليه أربع نساء أنه أب لأطفالهن غير الشرعيين بعد أن ضاجعهن عندما كان قِسًّا، وهو اعترف بأبوة طفل

واحد فقط بعد عام من رفع الدعاوى ضده، وقبل أسبوعين اعترف بطفل آخر عمره عشر سنوات، وأم الطفل قالت للصحافة إن الرئيس كان يدعم الطفل ماديًا طول الوقت؛ لكنها اضطرت لأن ترفع ضده دعوى قضائية لكي يستخدم ابنها اسم أبيه.

والغريب أن الرئيس بعدها بأسبوعين فقط من هذه الفضيحة ترك منصبه، ليس بسبب هذه الفضائح الأخلاقية؛ بل لأن البرلمان أدانه بسوء ممارسة مهامه، ومسئوليته السياسية عن وقوع مصادمات في يوم 15 يونيو أسفرت عن مقتل 11 فلاحًا كانوا يطالبون بامتلاك أراضي وستة من أفراد الشرطة، وحل نائبه سلفًا له.

خذ بالك أنني لم أحدثك عن وقائع جرت في دولتين تمارسان الديمقراطية منذ عشرات السنين؛ بل تحدثت عن دولتين حديثتي العهد بالديمقراطية؛ ومع ذلك فكما لاحظت يتم التعامل مع الرئيس هناك بوصفه بشرًا، من حقه أن يخطئ وتتم محاسبته قضائيًا وقانونيًا دون أن تُعلَق له المشانق الأبدية؛ فبعد اعترافه بخطئه أو تبرئته منه يعود لممارسة عمله السياسي؛ بل وينجح في الانتخابات لأن الناس تهتم بكفاءته أكثر من حياته الشخصية، وعندما يخفق في عمله ينقلب عليه الناس وتتم إزاحته بشكل ديمقراطي عن طريق البرلمان، المهم في كل الأحوال ألا يتصور الرئيس نفسه محصنًا عن الملاحقة والمحاسبة؛ حتى في أمور تتعلق بحياته الشخصية، وحتى عندما يتجاوز فنان في نقده ويتخطى أعراف المجتمع لا يكون الرد عليه بالقمع أو بالتصفية الجسدية؛ بل تثور مناقشات في المجتمع حول ما ينبغي عمله إزاء العمل الفني الصادم الذي تطاول على الرئيس.

لا تقل لي أن من الصعب أن يحدث ذلك عندنا؛ إلا إذا كنت تعتقد أننا نستحق حرية أقل من التي يستحقها شعب جنوب أفريقيا أو شعب الباراجواي، أو إذا كنت نسيت أننا دفعنا ثمنًا باهظًا من أجل أن نعيش حرية كاملة غير منقوصة كالتي يعيشها مواطنو الدول المتقدمة؛ بالطبع ليست هذه دعوة للبذاءة والوقاحة وخدش الحياء؛ بل هي دعوة لأن يكون الحكم على كتابة ما أو فن ما بأنه بذاءة أو وقاحة أو خدش حياء رهنًا لإرادة المجتمع وذوقه الجمعي، وليس رهنًا للنصوص القانونية الشرسة التي صاغها فقهاء الاستبداد التي يمكن أن تعتبر أي كلمة تسخر من مسئول أمرًا يسبب له الاحتقار لدى أهل وطنه، وترزع الكاتب حكمًا بالسجن المشدد ثلاث سنوات على الأقل جزاء وفاقًا لما كتبه.

دعني أقل لك إن الأشهر القادمة ربما جعلت مؤسسة الرئاسة الحلقة الأضعف في سلسلة مؤسسات الدولة التي يمكن أن تتعرض للنقد اللاذع والسخرية؛ لأنها لن تكون المؤسسة الأخطر والأكثر نفوذًا ولو إلى حين، وربما استطعت أن تسخر بشكل لاذع من الرئيس؛ في حين لن تستطيع أن تقترب من رموز العديد من المؤسسات التي جعلت نفسها دولة داخل الدولة وفوق الدولة، والتي لا يمكن أن تستبعد تورطها في حل مجلس الشعب المنتخب أيًا كان رأيك؛ فيه لمجرد أن بعض أعضائه قاموا بالتفكير في محاسبة هذه المؤسسات القضائية والسيادية.. وستظل هذه المؤسسات تحارب كل يد تمتد إليها بالنقد بدعوى خطورة ذلك على الأمن القومي واستقرار المجتمع وما إلى ذلك من التهم الفرعونية التي توارثناها جيلاً بعد جيل.

وتبقى هنا مسئولية كل كاتب وفنان أن يدرك أن رفع سقف الحرية لا يجب أن يكون فقط بالسخرية اللاذعة من رئيس الدولة ونقده؛ بل وبتصويب سهام النقد اللاذع إلى هذه المؤسسات التي ساهمت في إذلال المصريين والتنكيد على عيشتهم، وحق على الكتاب والفنانين الأحرار أن ينكدوا عليها عيشتها، بدلاً من أن يتشطروا فقط على المنتمين إلى التيارات السياسية المخالفة لهم في الرأي.. وهي معركة لن تكون سهلة على الإطلاق؛ لكنها تستحق، فيا أهلاً بالمعارك.

يونيو 2012

اسمها جلالة الملكة يا "Baghl" !

لا أدري، هل صادفك وأنت تقرأ صحف الأسبوعين الماضيين خبر عن تقدم "طويلة العمر فعلا" ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية ببلاغ رسمي إلى السلطات القضائية البريطانية ضد برنامج كوميدي تذيعه إحدى المحطات التلفزيونية البريطانية الكبرى؛ لأنه قام بإهانتها وبعثرة كرامتها الملكية على أرض بريطانيا التي لا تطلع عليها الشمس؟.

بلاش، هل وجدت خبرًا عن تقدم عدد من المحامين الغيورين على كرامة إنجلترا ببلاغات ضد ذلك البرنامج اللعين لأنهم عندما شاهدوا ما فيه من بذاءات قيلت بحق جلالة الملكة غلَت في عروقهم الدماء الإنجليزية الحامية، وشعروا أن كرامة التاج البريطاني قد تضررت؛ فوجب قطع الألسنة التي طالت وطالتها.

بلاش، هل وجدت خبرًا عن تقدم الرئيس الأمريكي باراك أوباما باحتجاج رسمي إلى الحكومة البريطانية يطالبها باعتذار رسمي عما تعرض له من إهانات تم إذاعتها في ذات نفس البرنامج مشددًا على ضرورة وقف بث البرنامج ووضع من شاركوا فيه على قوائم الترقب والوصول.

أرجوك اترك ما في يدك جانبًا وابحث في موقع (جوجل) عن أخبار مثل هذه، لعلك تنجح فيما فشلت فيه على مدى يوم كامل من البحث عن هذه الأخبار، وهو بحث بدأته بعد أن قرأت في مجلة (ذي ويك) البريطانية تقريرًا عن برنامج كوميدي أذيع مطلع العام على القناة الرابعة . إحدى

المحطات التلفزيونية الشهيرة في بريطانيا . يمكن ترجمة عنوانه بالبلدي إلى "أتخن فزورة في سنة 2012"، وشارك فيه الكوميديان البريطاني جاك وايتهول والممثل جيمس كوردون.

التقرير استعرض هجوم بعض الكتاب البريطانيين في صحف مختلفة على البرنامج الذي وصفوه بالبذاءة والسوقية؛ لأن جاك وايتهول تحدث فيه عن ملكة بريطانيا بأسلوب مبتذل قائلاً:إن عدم قيامها بالجلوس في أحد الاحتفالات الرسمية تفسيره أنها كانت بالتأكيد "تعبانة" من ممارسة الجنس مع زوجها الأمير فيليب في الليلة السابقة للاحتفال. ليقول كوردون:إن الرئيس الأمريكي باراك أوباما يمارس العادة السرية بانتظام في المكتب البيضاوي. ولم يتوقف الأمر عند ذلك؛ بل قام الاثنان بالسخرية من عدد من الشخصيات العامة البريطانية بصورة وصفتها صحيفة الديلي ميل الشعبوية بأنها "ليست سخرية؛ بل ممارسة للإذلال، وإهانة ووحشية تنشر الفظاظة في المجتمع".

لم أقرأ في المقتطفات التي اختارتها مجلة (ذي ويك) من المقالات المهاجمة للبرنامج مطالبات باعتقال ضيوفه والمسئولين عنه أو إحالتهم إلى المحاكمة الجنائية؛ مع أن القضاء البريطاني ليس "شامخًا على روحه"؛ بل هو قضاء شامخ بممارساته وأفعاله، ولن يعدم وسيلة لتعويض من يلجأ إليه من المسئولين إذا شعر بأن كرامته أهينت.

الكاتبة جيني ماكارتني في صحيفة الصانداي تليجراف قالت:إن ما قدمه البرنامج كان صدمة عنيفة للمشاهدين، أما الكاتبة كارول ميدجلي فقد قالت في مقالها بصحيفة التايمز العريقة:إنها جلست تشاهد البرنامج وهي تحاول جاهدة تحمل الإهانات التي يوزعها البرنامج؛ لكنها في النهاية

قالت:إنها شعرت بالندم لأنها كان يمكن أن تستفيد من التسعين دقيقة التي قضتها في متابعة البرنامج فتقوم بتحمية وتدفئة كلبها".

بس خلاص، كان هذا كل ما قيل عما قيل في حق الملكة، لم يطالب أحد باعتقال أحد أو قطع لسانه أو تكفيره وتخوينه واتهامه بالعمالة لأعداء بريطانيا؛ حتى تقرير "ذي ويك" الذي قال:إنه كان هناك لحظات موجعة في البرنامج تسبب فيها كوردن ووايتهول الذين سكرا ثم وجدا متعتهما في التفوه بالكلمات البذيئة بشكل مهين للمشاهدين، عاد ليقول بالنص: "بأمانة فقد تمت إذاعة البرنامج بعد الساعة التاسعة مساء والتي تُعتبر خطًّا فاصلاً فيما يتم قبول إذاعته لعموم المشاهدين من الأطفال.. وبالتالي إذا كنت لا تحب الكوميديا التي تتصف بالغلظة ولا الكوميديانات الذين يقدمون نكاتًا تثير الأعصاب؛ حسن، لا تشاهد البرنامج إذن"، ثم انصرف التقرير ليناقش واقع الكوميديا البريطانية وكيف تطورت، وحقيقة أنها لم تعد في العقد الأخير معتمدة على ذكاء الكوميديانات فقط؛ بل صارت تلجأ إلى الإيحاءات الجنسية الفجة لاستدرار الضحكات.

كما قلت لك، أنا قرأت كل هذا الكلام من هنا وذهبت إلى الإنترنت من هنا، باحثًا دون جدوى عن ردود الأفعال القاسية التي اتخذتها ملكة بريطانيا والرئيس الأمريكي ضد ذلك البرنامج الكوميدي السافل صدقًا وحقًّا، والذي يجعل ما يُقدم في (البرنامج) الذي يقدمه نجمنا الثوري اللامع المبهج باسم يوسف برنامجًا في الأخلاق الحميدة؛ ومع ذلك لا تسلم حلقة من حلقاته من الملاحقات القضائية والشتائم من أنصار حزب "إحنا آسفين ياريس مرسي"، الذين يعتبرون أن هيبة الرئاسة زي عود الكبريت، تحترق فقط إذا تعرض الرئيس للسخرية من قراراته

وسياساته؛ أما إذا قام الرئيس نفسه بالكذب وإخلاف الوعود وإصدار قرارات تريق دماء المصريين؛ فإن هيبته تظل محفوظة ومصانة.

سألتِ نفسي عن ملكة بريطانيا أو رئيس أمريكا أو رئيس فرنسا أو كل حكام الدول التي تسمح بالذهاب إلى أبعد مدى في انتقاد مسئوليها؛ فقلت لها: يانفسي هل تعتقدين أن هؤلاء الحكام أصحاب نفوس "مهزأة" يحبون المرمطة ويستلذون بالإهانة ولا يمتلكون كرامة تجعلهم يغضبون عندما يتعرضون لتلك الانتقادات القاسية التي لا تتوقف عند حدود سياساتهم بل تقوم بالتطاول على أشخاصهم مباشرة كل يوم في مئات البرامج التلفزيونية والصحف الساخرة ومواقع الإنترنت الإنتقادية؟

فقالت لي نفسي: إنها تظن . والله أعلم بعد دراسة وتأمل . أن أولئك الحكام أناس طبيعيون يشعرون بالغضب والإهانة عندما تتم السخرية منهم بشكل قاسٍ، وأنهم عندما يشاهدون تلك الانتقادات ينهالون بالسب واللعن على من يوجهها لهم، وربما كانوا بداخلهم راغبين في إلحاق الضرر بهم؛ لكنهم يعلمون أن النظام الديمقراطي الذي يعيشون فيه يمنعهم من استخدام الأجهزة الأمنية لإيذاء هؤلاء مهما تجاوزوا في حقهم، وبالتالي ليس أمامهم سوى اللجوء إلى القضاء لأخذ حقوقهم؛ لكنهم يدركون أنهم لو فعلوا سيوفرون مادة خصبة لمئات الصحف والبرامج والمواقع الإلكترونية التي ستعلو فيها مئات الأصوات لكي تنتقد ضيقهم بالنقد مهما كان متجاوزًا، وسيسأل أصحاب هؤلاء الأصوات المؤثرة على الرأي العام: ألم يكن من الأجدى أن يتجاهل الحكام هذا النقد وينشغلوا بما ينتظره منهم الشعب من إنجازات ومبادرات وتحركات تساعد على تغيير حياة الناس إلى الأفضل، تاركين الحكم على ما يليق وما لا يليق للناس،

مكتفين بتصحيح الأخبار المكذوبة وطلب تعويض من وسائل الإعلام التي تنشرها؛ لأن المجتمع المتحضر يمكن أن يتسامح مع التجاوز في السخرية والنقد، لكنه لا يتسامح مع الكذب والفبركة؟

قالت لي نفسي (والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربي): إن حكام الدول المتقدمة يعيشون بمبدأ مهم تعلموه بحكم الممارسة الديمقراطية؛ هو أن الشتيمة "ما بتلزقش" في المسئول أو الحاكم؛ لكن فشل المسئول أو الحاكم هو الذي "يلزق" فيه وفي شعبه وبلاده؛ ولذلك يفضل أولئك الحكام في الغالب الأعم تجاهل ما يوجه إليهم من انتقادات قاسية أو متجاوزة؛ لأنهم يؤمنون أن تلك الانتقادات ستضرهم شعبيًّا فقط إذا كانوا فشلة ومتلجلجين، أما إذا كانوا ناجحين وأذكياء ومحققين لإنجازات ملموسة على أرض الواقع؛ فإن تلك التجاوزات ستزيد من شعبيتهم وترفع من قدرهم عند شعوبهم؛ لذلك يختارون تركيز كل وقتهم في البحث عن مخارج للهروب من الفشل ووسائل لتحقيق الإنجاز؛ مؤمنين أن الشعوب إذا رضيت عن حكامها وأحبتهم فإن حبها ورضاها هو الذي يبقى، وهو الذي يجعل الناس يضعون الحاكم العادل الناجح في قلوبهم؛ فيعيدون انتخابه ويقفون إلى جوار سياساته، موفرين لها الدعم اللازم لنجاحها، وحتى بعد أن يرحل عن الحكم يظلون يذكرونه بالخير ولا يتأخرون عن تكريمه والاحتفاء به ليطيب حيًّا وميتًا. أما الحاكم عندما يكون متلجلجًا وتعيسًا وفاشلاً وضاربًا اللخمة تلو الأخرى؛ فإنه لا يجد من يدافع عنه سوى أفراد أسرته وأهله وعشيرته الذين يرفعون في وجوه منتقديه ذلك الشعار البائس "اسمه سيادة الرئيس يابغل".

مارس 2013

حماة الديار الإسرائيلية!

كان ينبغي أن أشاهد فيلمًا كهذا بمفردي تمامًا، ليكون بوسعي أن أطلق العنان لمشاعر الأسى وخيبة الأمل التي انتابتني وأنا أشاهده في قاعة نيويوركية صغيرة مليئة بمشاهدين كنت العربي الوحيد بينهم، وربما لذلك أخذت عروبتي تستصرخني أثناء المشاهدة ألا أجعل من نفسي ومنها موضعًا للشفقة والرثاء؛ خاصة أنني سمعت قبل العرض أحد الجالسين إلى جواري يقول لصديقيه إنه قادم من إسرائيل قبل أيام، ومن أجل هذا الرجل بالذات كان يجب أن أتماسك وأكبت رغبتي في البكاء عندما رأيت في الفيلم مقاطع تسجيلية جديدة تعرض مهانة أسرانا خلال هزيمة يونيو التي انتقلنا بعدها من سيئ إلى أسوأ؛ حتى وإن بدا لبعضنا غير ذلك.

هو فيلم تسجيلي اسمه (حراس البوابة) للمخرج الإسرائيلي درور موريه، كان مرشحًا هذا العام لنيل أوسكار أفضل فيلم وثائقي جنبًا إلى جنب مع فيلم (خمس كاميرات مكسورة) الذي تشارك في إخراجه فلسطيني وإسرائيلي مقدمين فيه ملحمة رائعة عن صمود الإنسان الفلسطيني ومقاومته للاحتلال بسلاح الكاميرا . ستجد قراءة وافية له في كتابي (التغريبة البلالية) إن استطعت إليه سبيلاً. لكن الفيلمين خسرا سباق الأوسكار، الذي فاز به فيلم شديد الروعة والجمال اسمه (البحث عن شوجر مان)؛ يحكي قصة ملهمة تبعث الأمل عن مطرب كاد يغرق في بحر الحياة لولا أن انتشلته يد حانية في آخر لحظة لينبعث من جديد.

أعترف أنني عندما قرأت أن الفيلم الإسرائيلي يتكلم عن جهاز الأمن الداخلي (الشين بيت) ظننت أن ترشيحه محاولة من أكاديمية الفنون الأمريكية للقيام بمواءمات سياسية تخفف ما ستلقاه من انتقاد من اللوبيات الصهيونية بسبب دعمها لفيلم صريح الفضح لإسرائيل مثل (خمس كاميرات مكسورة)، ولم أكن أتصور أن فيلم (حراس البوابة) يقدم هو الآخر بأسلوب فني متميز نقدًا جادًّا للسياسات الأمنية الإسرائيلية من خلال حوارات مع ستة من الرؤساء السابقين لجهاز الشين بيت تحدثوا عن تجاربهم خلال قيادة الجهاز بدءًا من حرب 1967 وحتى سنوات قليلة ماضية نفذ فيها الجهاز عمليات لاغتيال قادة حركة حماس.

ما أدهشني في الفيلم درجة الصراحة التي تحدّث بها قادة (الشين بيت) عن الأخطاء التي وقعت خلال قيادتهم للجهاز.. في البدء عندما أجاب أقدمهم إبراهام شالوم -أول رئيس للجهاز- بصراحة على أسئلة المخرج الناقدة لقتل الجهاز عام 1984 لفدائيين فلسطينيين قاموا بخطف أتوبيس ركاب داخل إسرائيل بدلاً من معاملتهم كأسرى والحفاظ على حياتهم، واعتبرت ذلك نوعًا من وضع الماكياج على وجه (الشين بيت) ليظهر للمشاهد الغربي أنه يحرص على النقد الذاتي ويأبه أصلاً لسقوط أبرياء على أيدي قواته؛ تمامًا كما اعتبرت الحديث عن دور الجهاز في مكافحة الإرهاب الإسرائيلي -مثل عصابات كاهانا- لعبة رخيصة لتمييع الحقائق ومساواة الجاني بالمجني عليه؛لكن رأيي تغير عندما بدأت نبرة نقد الفيلم تتصاعد لتطال جوهر وجود الجهاز نفسه الذي يؤدي إلى تعقيد الصراع مع الفلسطينيين بدلاً من حله، ويعطي انطباعًا خاطئًا

للشعب الإسرائيلي بأن الحلول الأمنية يمكن أن تكون بديلاً عن الحلول السياسية؛ بل إن أحد قادة الجهاز بعد أن سخر من حقيقة أن كل من قاد الجهاز كان يبدأ يمينيًا متحمسًا ثم يجد نفسه بعد التقاعد يساريًا ميالاً لنقد الجهاز. أضاف أن كون الجهاز لا يمتلك استراتيجية للعمل بل يتبع فقط تكتيكات وقتية، سيؤدي في النهاية إلى أن "تكسب إسرائيل كل معركة ومع ذلك فإنها ستخسر الحرب".

بالطبع لم يبك أحد قادة الشين بيت أمام الكاميرات معتذرًا عما اقترفته يداه بحق الفلسطينيين؛ فكل واحد منهم كان يوجه نقده اللاذع لسياسات إسرائيل الأمنية رغبة منه في تطويرها وجعلها أفضل، وبالطبع لست ساذجًا لأتصور أن ما قاله قادة الشين بيت من أسرار يمكن أن يكون به ما يهدد أمن إسرائيل الآن؛ لكن ما أدريه أيضًا أنهم انتقدوا أخطاء تفصيلية وقعت في عمليات محددة قام بها الجهاز بدءًا من 67 وحتى الآن؛ بينما بُحّت أصوات مؤرخينا مطالبة بالإفراج عن الوثائق الرسمية لتاريخنا الحربي لنفهم ما جرى لنا طيلة سنوات صراعنا مع إسرائيل؛ ذلك الصراع الذي كان مبررًا لإخراس كل معارض أو مطالب بالإصلاح والتغيير، واتهامه بالعمالة والخيانة؛ في حين كشفت الأيام أن حكامنا بفسادهم وقمعهم لإرادة المواطن وحريته كانوا يمثلون كنزًا استراتيجيًا عاشت إسرائيل على خيره ولا زالت.. أرجو مراجعة سلسلة مقالات كتبها المؤرخ المرموق د. خالد فهمي في صحيفة (الشروق) المصرية نُشر آخرها في 12 إبريل 2013 بعنوان (كيف نكتب تاريخنا الحربي)؛ حيث قال فيها كلمات تلخص ما شعرت به عقب انتهائي من مشاهدة فيلم (حراس البوابة): "إسرائيل دولة مهووسة بأمنها لدرجة الهستيريا؛

ولكن هوسها بأمنها لم يمنعها من الإفراج المنتظم عن وثائقها العسكرية ما دام قد مر عليها 30 سنة، لفتح حوار مجتمعي عن أخطاء الماضي وتحديد المسئول عنها؛ ليمكن العمل على تصحيح هذه الأخطاء والعمل على منع حدوثها، فيدرك القابع في السلطة أنه حتى لو غابت الرقابة الصحفية والبرلمانية على أعماله بسبب ما فستظل رقابة التاريخ مسلطة عليه وستتمكن الأجيال القادمة من الحكم عليه".

على المقهى العربي الذي يتخذه كثيرون من عرب نيويورك مفرًّا مؤقتًا إلى الوطن؛ حيث الشيشة والطاولة والدومنة والخرّوب والسحلب والشاي بالنعناع وصوت الست من السماعات وضحكة إسماعيل ياسين على الشاشة.. جلست أفك احتقان مشاعري مستعينًا بصديق طويل البال، استمع إليّ طويلاً ثم قال بلهجة الناصح الأمين: أرجوك لا تنسَ أن العدو الصهيوني له تكتيكات خداعية تجعله ينتج أعمالاً مثل هذه لكي ينبهر به أبناء أمتنا فلا تقع في هذا الفخ، قلت له: شكرًا على تنبهك يا صديقي؛ لكن ياترى متى نبدأ في إنتاج أعمال نعترف فيها بأخطائنا وكوارثنا ونفتح ملفاتنا المطمورة عمدًا؛ فقط لنبهر بذلك أبناء العدو ونوقعهم في فخ الاعتقاد أننا أصبحنا قادرين على النقد والمراجعة والتغيير؟

هز صديقي رأسه مُفضّلاً عدم الرد، وظللنا صامتين لفترة لم يقطعها إلا تنادينا إلى دور دومنة فضّلنا جعله "عادة وليس أمريكاني" دعمًا للهوية الوطنية؛ وذلك أضعف الإيمان.

فبراير 2013

شريعة الإنجليز التي أفلت منها محمد مرسي!

ربما كان على الدكتور محمد مرسي أن يحمد الله ويشكر فضله لأن شريعة الإنجليز ليست مطبقة في مصر؛ وإلا لكان الآن يقضي خريف عمره في السجن جزاء وفاقًا على كذبه وإخلافه للوعود الانتخابية التي قطعها على نفسه ووصل بفضلها إلى منصبه.

الإنجليز الذين لا يبغبغون آناء الليل وأطراف النهار بالحديث عن تطبيق الشريعة الغراء حبسوا الأسبوع الماضي وزير الطاقة البريطاني السابق كريس هيون وزوجته السابقة فيكي برايس لمدة ثمانية أشهر لكل منهما، بعد أن تمت إدانتهما بتهمة تضليل العدالة والكذب بشأن مخالفة مرورية لقواعد السرعة.

إذا كنت لم ترمِ الكتاب بعيدًا لتبدأ في لطم خدودك لأنك لم تأخذ بالك من سبب الحبس، دعني أكرره لك ثانية، أيون، سبب الحبس كان مخالفة سرعة، ولم يكن مخالفة لوعود انتخابية معلنة على الملأ، ولا مخالفة للقسم على احترام الدستور والقانون والقصاص للشهداء وصيانة كرامة ودماء الأحياء.

إذا كنت قد لطمت بعد أن عرفت سبب الحبس: فلست أدري ماذا أنت فاعل بنفسك، لو علمت أن مخالفة السرعة تعود في الأساس إلى عام 2003، عندما تم توجيه الاتهام إلى كريس هيون الذي لم يكن وزيرًا وقتها

بأنه كان يقود سيارته بسرعة أكبر من السرعة المسموح بها في بريطانيا؛ لكن زوجته الخبيرة الاقتصادية فيكي برايس قالت للبوليس إنها التي كانت تقود السيارة لتتحمل نقاط العقوبة، ويتفادى هو قرار منعه من القيادة، وكان يمكن للموضوع أن يصبح طي الكتمان إلى الأبد؛ لولا أن الزمن غدر بفيكي برايس، وهدم عش حبها الذي كان يجمعها بزوجها وأبنائهما الخمسة، ليهجرها زوجها ويرتبط بعلاقة غرامية مع مستشارة تعمل معه.. وعندما جرّبت فيكي نار الغيرة التي تحدثت عنها المرحومة وردة الجزائرية لم تتحملها أبدًا، وقررت أن تُسرّب تفاصيل ما حدث في يوم المخالفة المشئومة للصحافة الإنجليزية.. ومع أن فيكي برايس لا تعيش في مدينة المليون مئذنة، ولا يحاصرها المتدينون من كل اتجاه؛ إلا أنها لم تجد من يحاصرها بعبارات من نوعية "ياشيخة وهو ده كذب برضه.. مافيهاش حاجة يعني.. أمال لو بتشوفي اللي بيحصل في بلاد تانية.. ياشيخة حرام عليكي ده مهما كان جوزك وأبو عيالك.. اعتبريه زي أبوكي.. معلهش فوتيها واستري ما ستر الله.. خليها عليكي المرة دي وربنا حليم ستار.. الست الأصيلة ما تعملش كده في جوزها الوزير"، أو ربما وجدت من يقول لها ذلك؛ لكنها أصرت على أن تهدم المعبد على رأس زوجها الخائن، لأنها تعلم أنها تعيش في مجتمع يمكن أن يتقبل هجر زوجها لها واستجابته للغواية؛ لكن هذا المجتمع لن يتقبل أبدًا فكرة وجود سياسي كذاب يأتمنه على إدارة شئونه، وأن هذا المجتمع سينتفض غضبًا عندما يعلم بهذه الكذبة، ولن يعتبرها هامشية أو تافهة، ولن يقرر أن يعديها أو يطرمخ عليها؛ لأنه مجتمع عاقل يفصل بين الحرية الشخصية وبين حق المجتمع الذي لا يمكن أبدًا أن يجور عليه أحد؛ حتى ولو كان الأمر يخص مخالفة سرعة، مجتمع يطبق المسئولية السياسية التي تعطي للمسئول

الحق في أن يتبع نزواته كما شاء ما دام أنه لم يقم بالإضرار بأحد؛ لكنه يقمعه بكل قوة وحسم إذا تصور أن كونه مسئولاً يسمح له بأن يفلت من القانون. مجتمع يعرف أن الطرمخة في الصغائر تقود بالمجتمع إلى الطرمخة على الكبائر، وأن معظم نار الفساد تبدأ أحيانًا من مستصغر شرر الكذب.

لم يكن كريس هيون وزيرًا هامشيًّا استقوى عليه الإنجليز دُونا عن كل مسئوليهم وقادتهم؛ فعلى العكس يعتبر الرجل من أبرز شخصيات الحزب الليبرالي الديمقراطي المشارك في الحكم، وقد خسر بفارق ضئيل في المنافسة على زعامة الحزب عام 2007؛ ومع ذلك فإن كريس هيون عندما نشرت الصحف الفضيحة في عام 2011، لم يخرج على الناس خالعًا برقع الحياء وشاهرًا سيف التبرير ليقول لهم: "وفيها إيه يعني.. آجي إيه أنا جنب اللي بيحصل في الدولة الفلانية والبلد العلاني.. ده إنتو ماشفتوش أنا باخدمكو قد إيه.. بلادي وإن جارت عليّ عزيزة.. الحق أبلج والباطل كونفيوزد"؛ على العكس استقال الرجل من منصبه كوزير للطاقة محتفظًا بمقعده البرلماني فقط، وخضع للمحاكمة محاولاً الإفلات بالطرق القانونية من المأزق الذي قادته إليه نزواته، وعندما وجد نفسه مهددًا بأن يتطسّ عددًا معتبرًا من السنين يقضيها في السجن، قرر الاعتراف بذنبه أمام المحكمة في الدقائق الأخيرة قبل النطق بالحكم، وهنا وجد أنه لا يستحق البقاء في مقعده البرلماني فاستقال منه أيضًا، ووقف أمام المحكمة ليستمع إلى كلام كالرصاص يقوله له القاضي الذي لم يكتف بأن يرزعه الحكم بالسجن: بل قام بتوبيخه بسبب إصراره على الكذب حتى آخر لحظة، كما وجه كلامًا يسمّ البدن إلى زوجته التي

تعاطف القاضي معها بسبب ظروف الطلاق الرهيبة التي أحاطت بها وبأبنائها الخمسة؛ لكنه لامها على إظهارها للجانب المسيطر والمراوغ والملتوي وهي تحاول فضح زوجها السابق في وسائل الإعلام، وهو ما جعلها تصل إلى أبعد مدى في تعرية تفاصيل حياتهما الشخصية؛ حتى إنها كشفت أنه طالبها مرتين بإجهاض نفسها، وأنها وافقت في مرة ورفضت في الثانية، وأنجبت طفلهما الأصغر.

المؤسف أن فضيحة كريس هيون لم تقتصر فقط على وسائل الإعلام والمحافل السياسية؛ بل وأثرت بشكل مؤلم على علاقته بأبنائه؛ هذا ما عرفه الناس عندما تسربت إلى الصحافة نصوص الرسائل المتبادلة بينه وبين ابنه الأكبر الذي اعتبر أن ما حدث كان خطئًا كاملاً يتحمله والده، وأنه يشعر بالمرارة الشديدة لأن والده أجبر والدته على الكذب؛ لدرجة أنه قال في إحدى رسائله لوالده: "أكرهك لذلك ابتعد عن طريقي".

ومع ذلك وبرغم كل هذا الألم لم يكابر الرجل ولم يقف ليصرخ في الناس ليطلب منهم أن يخرسوا ويدعوه وشأنه، ولم يتهرب أبدًا من تحمل مسئولية أفعاله.. لم يلجأ إلى اللجان الإلكترونية لكي تبرر له كذبه، لم يحاول أن يتدارى خلف النصوص الدينية والتخريجات الفقهية، لم يتهم جهات أجنبية بالتآمر عليه، ولم يقرر أن يتشطر على الإعلام الفاسد العميل؛ بل أجرى حوارًا مع صحيفة الجارديان الشهيرة قبل ساعات من صدور الحكم قال فيه بالنص: "أشعر بالأسف، وأريد أن أعتذر للعائلة وللأصدقاء وللدوائر الانتخابية وللزملاء؛ فقد كان يجب أن أتحمل مسئولية خطئي، ولم يكن يجب أبدًا أن أطلب من زوجتي السابقة تحمل

نقاط مخالفة السرعة عني، ولم يكن يجب أن أكذب في مستند رسمي، ولم يكن يجب أن أحاول تفادي العواقب".

إياكم أن تشعروا بالحسرة، أو تتمنوا زوال النعمة عن إخوانكم الإنجليز، تذكروا أن رئيسكم يحفظ كتاب الله، ويُشذّب لحيته، ويصلي الفجر حاضرًا، وينتمي إلى جماعة ترفع الشعارات الإسلامية.

أفلا تكبرون.. دماغكم.

مارس 2013

ميدان صلاح جاهين.. التحرير سابقًا!

أرجوك لا تبتئس، حتمًا ولزمًا سيأتي اليوم الذي تدرك فيه بلادنا المنكوبة أن العلماء والأدباء والفنانين أهم وأجدى وأبدى وأجدع مليون مرة من السياسيين والحكام والقادة، وعندها سنرفع أسماءهم عالية خفاقة على الميادين والشوارع والمدارس ومحطات المترو والمنشآت العامة مرفقة بصورهم ونبذات عن حياتهم وأجزاء مختارة من أعمالهم لتذكير الأجيال الجديدة بهم وتخليدهم في الوجدان، وسنحذف أسماء الساسة والزعماء التي تنتشر كالوباء في كل أرجاء بلادنا؛ ليظل مكانهم الوحيد كتب التاريخ التي تدرس عهودهم وتقوم بتقييم حسناتهم وسيئاتهم وتحكي قصصهم لمن أراد إليها سبيلاً.

إذا بدا لك ذلك شطحة خيالية: فلك أن تعلم أن روسيا بدأت بفعل ذلك؛ ففي موسكو تم افتتاح محطة مترو تحمل اسم الروائي الروسي الأعظم ديستوفسكي صاحب (الجريمة والعقاب) و(الإخوة كرامازوف) و(الشياطين والأبله) وغيرها من الأعمال الروائية العظيمة التي ترجمها إلى العربية المترجم السوري الكبير سامي الدروبي رحمه الله، وتكرمت الهيئة المصرية العامة للكتاب بإصدار طبعة خاصة من أعماله الكاملة تميزت بأسعارها الرخيصة وأخطائها المطبعية الوفيرة التي تجعلك تفضل شراء النسخة الغالية فورًا.

محطة المترو لم تحمل اسم ديستوفسكي فقط؛ بل حملت على حوائطها لوحات فنية بديعة تصور مشاهد شهيرة مأخوذة من أهم رواياته، الغريب أن تلك اللوحات تعرضت للانتقاد من البعض؛ لأنها رُسِمت

بألوان كئيبة فضلاً عن أن المشاهد المختارة حسب رأي المنتقدين يمكن أن تشجع أكثر على الانتحار الذي تعاني منه موسكو؛ حيث انتحر في عام واحد فقط 80 شخصًا رموا أنفسهم أمام قطارات المترو.

صحيفة (الديلي تليجراف) البريطانية سألت الرسام إيفان نيكولايف الذي رسم اللوحات: لماذا اختار من بين روايات ديستوفسكي لوحات كئيبة يصور أحدها مشهدًا من رواية الجريمة والعقاب؛ حيث يقتل بطلها راسكلنيكوف سيدة عجوزًا؛ بينما تصور لوحة أخرى بطلاً من أبطال رواية الشيطان مهووسًا بالانتحار يمسك بمسدس "بيستول" ويشرع في قتل نفسه؟ فرد بهدوء شديد: "وما الذي كنتم تتوقعونه مني، ديستوفسكي ليس لديه في رواياته مشاهد رقص". قلت لنفسي: حقًّا لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب؛ فلو رأى المنتقدون الروس جدران محطات مترو الأنفاق المليئة بالقبح والكآبة لدينا لحمدوا الله على نعمته.

على أي حال إذا رأيت أن حلمي بتغير أسماء محطات المترو الرئيسية لدينا لتحمل أسماء نجيب محفوظ وصلاح جاهين وأم كلثوم ومصطفى مشرّفة ومحمد عبده وأحمد زويل ونجيب الريحاني وكبار علمائنا وأدبائنا وفنانينا هو حلم دونه خرط القتاد، دعني أقل لك إنه في نفس الأسبوع الذي افتتحت فيه محطة دستويفسكي في موسكو كانت جورجيا تشهد اختفاء تمثال الطاغية السوفيتي جوزيف ستالين من أكبر ميادين مدينة مسقط رأسه جوري.. كان التمثال البرونزي الضخم الذي يبلغ طوله عشرون قدمًا قد أقيم في عام 1952 قبل سنة من وفاة ستالين، وظل صامدًا حتى خلال الأيام التي شهدت محاكمة الفترة الستالينية في عهد خروشوف.. وحتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي واستقلال جورجيا

وتحولها إلى عدو لروسيا التي لم تعد ستالينية، ثم جاء اليوم الذي يتم إزالته من الميدان غير مأسوف عليه.

وصدقني نحن أيضًا طال الزمان أو قصر سيأتي يوم علينا تختفي فيه من أنظارنا أسماء الحكام الذين جابوا لنا الكافية والفقر والتخلف والتطرف والاستبداد، وسيرزقنا الله بوزير ثقافة لا ينشغل بإدخال المثقفين إلى الحظيرة، ولا ببعث كشوفات للكشف عليهم في إاتحاد الكتاب، وبدلاً من أن يساعد بإهماله الحرامية على سرقة الفن التشكيلي من المتاحف، سينشغل بإخراج الفن إلى الناس على جدران محطات المترو والمدارس والميادين في لوحات مبهجة تصور -على سبيل المثال لا الحصر-(حرافيش) نجيب محفوظ وأبطال (الليلة الكبيرة) و(حراجي القط) و(يامنة) و(أحمد سماعين) ونساء محمود سعيد ورجال يوسف إدريس وصعاليك خيري شلبي.. صدقني سيحدث ذلك يومًا ما؛ فربنا كريم، ومصر تستاهل.

يوليو 2008

حاجتنا إلى "لولا"!

إذن أخيرًا وبعد أن أوشكت مالطة على خرابٍ نجانا الله منه، سيذهب محمد مرسي إلى البرازيل ليستفيد من تجربة رئيسها الأشهر والأكثر شعبية لولا دي سيلفا.

سيذهب نعم؛ لكنه لن يستفيد مع الأسف الشديد مما حققه لولا أو تلميذته التي خلفته في الرئاسة ديلما روسيف لبلدهما من إنجازات: ليس هذا رجمًا بالغيب ولا مصادرة على المستقبل؛ ولكنه تقرير لحقيقة أن لولا دي سيلفا على كثرة ما ارتكبه من أخطاء سياسية لم يتورط في الكذب على شعبه بشكل فاضح، ولم يتورط في إسالة دماء مواطنين برازيليين ثاروا على قرارته، ولم يلجأ إلى القمع لحماية نفسه من التعثر الذي أصابه في بداية حكمه.

لقد حقق لولا دي سيلفا للبرازيل الكثير؛ لكنه أيضًا لم يكن قديسًا ولا منزهًا من الأخطاء: بل خاض مشواره السياسي عبر طريق مليء بالعثرات والزلات؛ لكنه بعد فترة قصيرة بمقاييس السياسة تحول إلى حلم يسكن وجدان ملايين الفقراء، وإلى فكرة تشغل عقولهم؛ ولذلك غفر له الكثيرون زلاته الكبيرة التي تورط فيها بعض أقاربه، والتي لا زال بعضها بالمناسبة منظورًا أمام القضاء حتى الآن؛ فالرجل بكل ما قدمه للبرازيل قرر أن يكون مثالاً يُحتذى: فلم يكفل لنفسه ولأسرته حصانة الخروج الآمن، ولم يقف ليقول للناس بنبرات عاطفية أنه عاش للبرازيل ويريد أن يموت على أرضها، فيغفر له الناس كل خطاياه.. وربما لأنه لم يفعل ذلك، لا زال يجد حتى الآن الملايين ممن يحبونه ويبلعون له الزلط

ويكرهون من يتمنى له الغلط؛ لأنه لم يقدم نفسه أبدًا بوصفه الرئيس الكامل من مجاميعه، أو البطل الملهم الذي تلقف عصاه كل الحيات وتتنزل بركاته على البلاد؛ بل قام بتقديم نفسه لشعبه كسبب أخذت به البرازيل لكي تبدأ رحلة إنقاذ نفسها من البقاء إلى الأبد في قعر الهاوية.

لا أدري إذا كنت قد شاهدت الفيلم البرازيلي الأشهر "مدينة الله" للمخرج فرناندو موريليس الذي يتم اختياره دائمًا في قوائم أفضل الأفلام السينمائية في العالم، إذا كنت قد فعلت، فأرجو أن تحاول مشاهدة مسلسل تلفزيوني ممتع أنتجه نفس فريق عمل الفيلم بعنوان "مدينة الرجال"، قاموا خلال حلقاته المنفصلة المتصلة بتقديم ملامح إضافية من حياة أبطال الفيلم الذي تدور أحداثه . هو والمسلسل . في أفقر أحياء مدينة ريو دي جانيرو وأكثرها عشوائية وأشدها ابتلاء بالجريمة المنظمة وتجارة المخدرات والدعارة.

في إحدى حلقات المسلسل نرى بطليه وهما صبيان فقيران يتجهان في رحلة إلى العاصمة برازيليا في مهمة غريبة يقترحها أحدهما، هي محاولة مقابلة رئيس الجمهورية لولا دي سيلفا والتقاط صورة معه.. يبدو الآخر متشككًا في نجاح المهمة برغم اشتراكه في الرحلة بهدف التعرف على العاصمة والخروج من خنقة الحي الفقير الذي يسكنه، يقول لصديقه: "هل أنت مجنون، هل تعتقد أنه حقًّا سيقابلك؟"، يرد صديقه وهو يريه "كارت" عليه صورة القصر الرئاسي "طبعًا انظر إلى العنوان، مكتوب أنه يسكن في قصر الشعب؛ ولذلك سيقابلني، ثم لماذا لا يقابلني؟ لقد كان هو أيضًا فقيرًا مثل فأر الكنيسة"، ثم يحكي لصديقه كيف عرف أن لولا وهو طفل كان يحلم بالذهاب إلى مدينة ساو باولو للحصول على عمل

فيها، وكيف أقنع صديقًا له بذلك.. وبالفعل سافر إلى هناك وعمل في بيع الفول السوداني.

بعدها ومع تواصل الحكي نكتشف أن هدف الصبي من الرحلة إلى قصر الشعب ليست فقط التقاط صورة مع لولا؛ بل هو ينوي أن يطلب من رئيس الجمهورية التدخل للإفراج عن جده المسجون بعد أن تورط بسبب الفقر في ارتكاب جريمة، وهو متأكد أنه سينجح في إقناع دي سيلفا بذلك لأنه سيذكره بأن جده كان صديقًا لـ"لولا" في طفولته، ويخرج من جيبه صورة لجده مع لولا وهما طفلين عندما كانت أم لولا تعمل طباخة في حي فقير كان جده يسكن فيه، ثم يقول الصبي لزميله أنه بعد أن يحكي كل هذا للرئيس سيقول له "أنا أؤمن بك، لأنك تذكر ما مررت به وأنت فقير".

وعندما يصل الاثنان إلى قصر الشعب في برازيليا يصر الصبي صاحب القضية على الدخول ويجبن الآخر فلا يدخل مع صديقه الذي يراهنه على أن لولا سيستقبله وسيلتقط معه صورة أيضًا، ثم تنتهي الحلقة بنهاية شديدة الذكاء نعرف منها أن الصبي دخل فعلاً وقابل لولا دي سيلفا وحكى له قصة جده والتقط صورة معه؛ لكن الصورة نفسها ضاعت لأن الكاميرا "المهكعة" التي كان يحملها لم تكن أصلاً تعمل.

لاحظ أن من أنتج هذه الحلقة البديعة لم يكن فريقًا من الفنانين المطبلاتية محترفي الموالسة ولحس الأعتاب من ماركة "وإحنا معاه إلى ما شاء الله"؛ بل كان نفس الفريق الذي قدم عملاً فنيًّا شديد الجرأة والصدق غاص في جرح البرازيل الأكثر خطورة وألمًا: جرح الهوة الطبقية المريرة بين الفقراء والأغنياء، وهو الجرح الذي وضعه لولا دي سيلفا

نصب عينيه منذ أن تولى الحكم، وقد كان لولا يعلم أنه سيتعرض لحرب شرسة من أصحاب المصالح الذين سيحاولون إفشاله بأي شكل بكل ما لديهم من ثروات ضخمة ووسائل إعلام طاغية التأثير وشبكات مصالح مع أقطاب الدولة العميقة في كافة المؤسسات؛ لكن لولا كان صاحب رؤية حرة مبدعة استلهمها من تجربته الشخصية العريضة، رؤية لم تملها عليه جماعة أو عشيرة؛ ولذلك لم يدع أحدًا يقوم بجره إلى معارك تلهيه عن معركته الأصلية التي خرج منها في النهاية بطلاً شعبيًا يبلع له الملايين الزلط، ويتغاضون عن خطاياه السياسية، ويعتبرون مقابلته حلمًا يسكن وجدانهم؛ ليس لأنه الرئيس صاحب القوة والسلطة؛ بل لأنه كان فقيرًا مثلهم ولذلك سيتذكر ما مر به وهو فقير.

إنه الذكاء العاطفي يا غبي!

دعنا نقل أنه إذا كان محمد مرسي ذاهبًا إلى البرازيل ليبحث عن قرض أو منحة أو اتفاقيات استثمارية فربما يجد هناك من يمد له يد العون؛ برغم أن هذا العام لأجل مرسي وحظه يعد واحدًا من أسوأ الأعوام التي مرت على البرازيل ماليًا خلال العقد الأخير؛ لكن إذا كان مرسي ذاهبًا للبحث عن خارطة طريق يمكن أن يتبعها لنقل التجربة البرازيلية التي غيّرت شكل حياة الغالبية العظمى من الفقراء إلى الأفضل خلال وقت قياسي بعد وصول لولا دي سيلفا إلى الحكم؛ فأظنه يضيع وقته؛ لأن البرازيل لم تتغير بسياسات يمكن نقلها بالمسطرة أو الكربونة؛ بل تغيرت بفضيلة رئيسية امتلكها لولا دي سيلفا اسمها: الذكاء العاطفي.

بملاحظة مهمة كهذه يفتتح بيري أندرسون أستاذ التاريخ في جامعة كاليفورنيا دراسته البديعة عن لولا دي سيلفا والتي نشرتها منذ فترة مجلة (لندن ريفيو أوف بوكس) العريقة وترجمتها جورجيت فرنجية ونشرتها على حلقات في صحيفة الأخبار اللبنانية؛ وبرغم أنه يحكي تفاصيل مدهشة عن عثرات دي سيلفا وخطاياه؛ إلا أنه يبدأ بإعطائه حقه من التقدير: مؤكدًا أن المؤرخين خلال دراستهم للتجارب الديمقراطية يجدون أنه من النادر بل من شبه المستحيل أن تفوق شعبية أحد الحكام في نهاية عهده شعبيته في بداية عهده؛ خصوصًا إذا كان حاكمًا يتبع سياسات متطرفة تعادي بعض الطبقات، ولا يتبع سياسات معتدلة بها استرضاء للجميع؛ لكن حاكمًا واحدًا أوحد في العالم يمكنه الادعاء بأنه حقق هذا الإنجاز، هو لويس إيناسيو لولا دي سيلفا أنجح سياسي عصره: إذ يكفي أنه عندما ترك رئاسة البرازيل كان يحوز رضى 80% من مواطنيه. وهو يفسر هذا النجاح بمجموعة استثنائية من المواهب الخاصة هي مزيج من حس اجتماعي مرهف وحسابات سياسية دقيقة، أو كما تقول خليفته ديلما روسيف "مزيج من تقويم عقلاني وذكاء عاطفي، بالإضافة إلى مزاج مرح مفعم بالحياة وسحر خاص بالرجل".

ولكي لا تبدو المسألة أشبه بالمعجزة يؤكد أندرسون أن نجاح لولا جاء من خلال حركة اجتماعية كبرى: فلم يكن ارتقاؤه سلم السلطة ليتحول من عامل مصنع إلى حاكم للبرازيل مجرد نصر شخصي؛ فما مهد له الطريق كان أبرز ثورة قامت بها نقابة العمال خلال ثلاثين سنة نتج عنها نشوء الحزب السياسي الحديث الأول في البرازيل والأبرز لحد الآن، والذي

أصبح أداة ارتقاء لولا إلى السلطة، ليحدث تزاوج فريد بين شخصية تتمتع بالكاريزما وبين تنظيم جماهيري لا يعتمد على أيديولوجية مغلقة تحمل شعارات تنتمي إلى الماضي؛ بل يهتم بمصالح الناس الاقتصادية وهمومهم الاجتماعية؛ مما يعني أن كاريزما لولا لوحدها لم تكن لتكفي، تمامًا كما أن وجود ذلك الحزب الذي ظل يتطور على مدى ثلاثين سنة لم يكن وحده يكفي لتحقيق تلك النتائج المدهشة.

ما يؤكد هذا الكلام، أن نجاح لولا لم يكن حتميًّا منذ البداية؛ فبعد انتخابه في 2002 شهد نظامه بداية اقتصادية متعثرة، ومع أنه لم يصدر إعلانات دستورية تشق صفوف شعبه، ولم يضيع وقته في استعداء الناس بالقمع وإثارة الفتن؛ إلا أن التركة الثقيلة التي ورثها من سلفه فيرناندو كاردوسو كانت ثقيلة جدًّا؛ فاستمر تزايد الديْن العام وارتفعت معدلات الفائدة، وهنا ظهر مؤيدو النظام السابق ليبدوا شماتتهم ويتحدثوا عن استمرار لولا في سياسات سلفه الاقتصادية التي كان ينتقدها، ثم جاءت الطامة الكبرى التي تعرض لها لولا بعد أكثر من عامين على انتخابه عندما انكشفت فضيحة سياسية كبرى مفادها أن عددًا من كبار مساعديه . على رأسهم رئيس ديوانه الرئاسي جوزيه ديرسو. كانوا يشترون أصوات النواب بطريقة منهجية مقابل مبالغ تصل إلى سبعة آلاف دولار شهريًّا لكل واحد لضمان الأكثرية في الهيئة التشريعية، وتصاعدت الفضيحة بعد اعتراف دودا مندونسا رئيس حملة لولا الرئاسية وهو رجل سيئ السمعة في عالم العلاقات العامة بأنه قام بتمويل حملة لولا من رشاوى دفعتها مصارف ومؤسسات مالية؛ مما يعد انتهاكا للقانون الانتخابي، ثم زاد الطين بلة قيام وزير الاتصالات لويس

غوشيكن أحد المؤتمنين على أسرار لولا السياسية بالتنحي عن منصبه بعد أن تم اكتشاف أنه قام بتبديد أموال صندوق التقاعد في وزارته لأهداف سياسية.

أحدثت هذه الفضائح المتوالية صدمة رهيبة لدى محبي لولا، وبدأ بعضهم يدافعون عنه بأنه قام باستخدام نفس النهج الذي كان يتبعه الجميع في البرازيل طيلة الوقت، وأنه لولا ذلك لكان لولا قد فشل في الانتخابات كما حدث له من قبل ثلاث مرات؛ فالانتخابات البرازيلية تأتي من حيث التكلفة على مستوى العالم في المرتبة الثانية بعد الانتخابات الأمريكية؛ برغم أن الناتج المحلي للفرد في البرازيل أقل من سدس قيمته في الولايات المتحدة، ولذلك أخذ المقربون من لولا يقولون إن الحزب لكي يحقق أهدافه كان لابد أن يقدم رشاوى مؤقتًا لكي يحصل على أكثرية نيابية ليقوم بتحقيق أهدافه، وهو نفس التبرير الذي تم استخدامه لقيام الحزب بإرضاء صندوق النقد الدولي، وبدأت تتصاعد نغمة تذكير الناس بالماضي النضالي المشرف لرموز الحزب الذين طالتهم الفضائح، والذين كان كل واحد منهم صاحب تاريخ في الكفاح يحلف الجميع به.

كان يمكن لفضائح سياسية مدوية كهذه أن تطيح بلولا دي سيلفا إلى الأبد من على كرسي الحكم، وتكتبه في قائمة أسوأ الحكام على الإطلاق؛ فما الذي أنقذه إذن؟

ببساطة أنقذه أمران: أولا كان لديه خطة عمل واقعية وملموسة جعلته ينحني للعواصف ويُصعّب على أعدائه مهمة ضربه، وثانيا كان لديه ذكاء عاطفي جعله يتخذ قرارات في غاية البراعة تحدث تغييرات ملموسة في حياة الناس دون أن يلجأ إلى استخدام القمع وسفك الدماء؛ فأصبح

لديه ظهير شعبي واسع النطاق يحميه من تحالف كل النخب السياسية والإعلامية ضده.

الخروج من الحارة المزنوقة

وجد لولا دي سيلفا نفسه في حارة مزنوقة بكل ما للزنقة من معنى سياسي، بعد موجات الفضائح المتلاحقة التي طالت عددًا من أبرز المقربين له، والتي استغلتها وسائل الإعلام التي كان أبرزها معاديًا له، وبدأت المعارضة في الكونغرس تلاحقه بطلبات لجان التحقيق؛ لكنه اختار أن يبدأ مقاومته لكل هذا بحرصه على ألا يبقى حوله كل من ترددت حوله شبهة فساد أيًّا كانت أهميته، وقد كان أكثر من أوجعه من هؤلاء وزير ماليته أنطونيو بالوتشي، الذي كان لولا يشبهه باللاعب الشهير رونالدينيو الذي لا يتحمل الفريق خسارته؛ ولذلك صبر على اتهامات الصحافة له لكن بعد أن ثارت فضيحة ظهور علامات ثراء فاحشة على أبرز مساعدي بالوتشي وصلت إلى حد استئجار بائعات هوى في حفلات ماجنة للمحاسيب، اضطر لولا إلى التضحية ببالوتشي؛ لتبقى لائحة المحيطين به نظيفة تمامًا.

لكن خصومه لم يهدؤوا، وبدؤوا يتهمون لولا شخصيًّا بالتورط في الفساد؛ فماذا فعل لولا؟

لم يلجأ إلى مواجهة خصومه بقرارات هوجاء تزيد الطين بلة؛ بل فعل العكس تمامًا. يكشف المؤرخ بيري أندرسون في دراسته البديعة عن لولا،

أن لولا درس في اجتماع سري اللجوء إلى خيار الشارع لمواجهة خصومه بدعوة عشيرته العمالية للحشد ضد أعدائه؛ لكنه قرر أن يستبعد ذلك الخيار تمامًا ويركز على العمل في صمت، وكان ذلك قرارًا شديد الذكاء، جعل أبرز خصومه وهما الرئيس السابق كاردوسو وعمدة ساو باولو يتخذان قرارًا بألا يقوما بالتصعيد ضد لولا وتركه يكمل مدته؛ لأنه من الأفضل ترك رئيس حالته حرجة في منصبه، على المجازفة ببروز خصم قوي وعنيد لهما في حالة الإطاحة بلولا.

كان هذا بالضبط ما يحتاجه لولا الذي لم تتملكه غباوة تجعله يظن أنه قادر على أن يحارب الجميع بما أنه يستند إلى حزب عمالي قوي منظم؛ فقد أدرك أن مفتاح نجاحه يكمن في تحسين الوضع الاقتصادي، وبالفعل وبعد فترة شهدت أسوأ ركود في القرن العشرين بدأت في عهد سلفه ولاحقته خلال بدايات حكمه، نجحت سياسات لولا الذكية التي طبقها خلال أول سنتين من بداية حكمه في رفع الناتج المحلي إلى نسبة 4.3%؛ خاصة أنه كان موفقًا في سياسته الخارجية التي جعلته يوثق علاقته بالصين التي ارتفع طلبها بشدة على أثمن سلعتين تصدرهما البرازيل: الصويا والحديد الخام. وعندما بدأت تدفقات من رؤوس الأموال الصغيرة على البرازيل تحسنت أوضاع الاقتصاد، وبدأت فرص العمل تتلاحق على الناس، تغير المزاج الشعبي في البلاد، وقل عدد الذين ينكرون ادعاءات الجهات الحكومية بوجود تحسن في الاقتصاد.

لقد صدّق الناس لولا فقط عندما رأوا التحسن يحدث في الواقع، ليبدأ تأثير هجوم وسائل الإعلام عليه في التراجع، وهنا يأتي دور الذكاء العاطفي ثانية: فبعد أن وجد لولا ثغرة في صفوف خصومه قرر أن يهاجم، ولكن

ليس بخطب مليئة بالجعجات البلهاء والتصريحات غير المدروسة؛ وإنما بتنفيذ تعهداته الانتخابية التي أطلقها بمساعدة الفقراء؛ فقام بإطلاق برنامج "بولسا فاميليا" الذي ظل يرتبط اسمه به حتى الآن. وهو برنامج يقدم تحويلات نقدية شهرية يتم توفيرها لأمهات ينتمين إلى أشد طبقات المجتمع فقرًا، مقابل إثبات أنهن يرسلن أطفالهن إلى المدرسة ويذهبن بهم إلى الوحدات الصحية للكشف الطبي، كانت المبالغ التي يدفعها البرنامج قليلة جدًّا: 12 دولارًا لكل طفل، بمعدل 35 دولار شهريًّا للأسرة، تدفعها لكل أسرة مباشرة لجان تابعة للحكومة دون اللجوء إلى الوحدات المحلية ليتم قطع الطريق على الفساد الإداري المنتشر في البلاد، وفي زمن قياسي التحقت بهذا البرنامج 12 مليون أسرة يشكل مجموع أفرادها حوالى ربع سكان البرازيل.. كانت كلفة البرنامج الفعلية ضئيلة جدًّا؛ خاصة أنه قام بتوفيرها من خلال إجراءات اقتصادية ذكية لتوظيف الموارد الموجودة فعلاً في الميزانية؛ لكن تأثيره السياسي كان هائلاً؛ لأنه ساعد ولو قليلاً على الحد من الفقر وتشجيع الطلب على السلع في أكثر مناطق البرازيل فقرًا، وكانت الرسالة الرمزية التي نقلها مدهشة وهي أن الدولة في عهد لولا تهتم بكافة البرازيليين مهما كانوا بائسين أو مظلومين، باعتبارهم مواطنين يتمتعون بحقوق اجتماعية في بلادهم، وأصبح ارتباط لولا بذلك البرنامج أصلب ورقة سياسية رابحة يمتلكها، وازداد تأثير الإعلام المعادي له تراجعًا وخفوتًا.

بدأ لولا يزداد ثقة بنفسه؛ لكنه لم يلجأ للجعجعة والعنتريات؛ بل استمر في التركيز على محاربة خصومه بسلاح الاقتصاد دون غيره؛ حيث بدأ يرفع الحد الأدنى للأجور بزيادات بسيطة ومحسوبة لكنها ظلت تتصاعد من

عام إلى آخر. ومع تزايد استطلاعات الرأي المؤيدة له قرر أبرز خصومه أنه لن يخوض الانتخابات الرئاسية القادمة ضد لولا، ليخوضها لولا في 2006 ويحصل فيها على نفس الأكثرية التي حصل عليها منذ 4 سنوات، أي 61% في الجولة الثانية؛ لكن التركيبة الاجتماعية التي انتخبته هذه المرة كانت مختلفة؛ حيث صوّت له الفقراء والمسنون بأعداد أكبر من أي وقت مضى، وهم الذين عوضوه عن خسارته لأصوات الناخبين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة الذين صدمتهم الفضائح السياسية للمحيطين به، وعلى رأسها فضيحة وزير ماليته الذي كان قد استقال قبل الانتخابات بفترة قصيرة. والمدهش أن لولا قام بتغيير سياسته التوافقية التي اعتمدها في حملته الرئاسية الأولى ليشن هجومًا عنيفًا على الأثرياء الذين استفادوا من عمليات الخصخصة التي قام بها سلفه، وأخذ يفاخر بأنه لم يقم بخصخصة أي شركة في عهده.. وهنا أصابت رسائله وترًا حساسًا جعله يبدأ فترته الثانية بمساندة شعبية من الفقراء أعطته قوة لكي يتخذ قرارات اقتصادية صعبة أدت إلى نتائج مذهلة في زمن قياسي.

عشيرة "لولا"!

ما أسهل أن تدغدغ مشاعر البسطاء بالأحلام، وما أسهل أن يصدقوك؛ لكن ما أصعب أن تنجو من ثمن عدم تحقيقك لأحلامهم عندما تحين ساعة حسابهم لك وتجد نفسك وجهًا لوجه مع ثمار فشلك وكذبك. كان هذا الدرس الذي تعلمه لولا دي سيلفا من تجربة فشله لأكثر من مرة في الوصول إلى كرسي الرئاسة؛ لأن البسطاء كانوا كل مرة يتأثرون بالكم

الضخم من الأموال التي ينفقها اليمين الذي كان دائمًا يجد سندًا له من بعض الرموز الدينية المستفيدة من بقاء الملايين على فقرها وجهلها؛ لكن الناس مع الوقت اكتشفت الحقيقة واختارت التغيير، وأحضرت لولا إلى كرسي الحكم؛ ليس حبًّا في تاريخه النضالي ولا عشقًا لشعاراته؛ بل من أجل أن يتحول حلم التغيير إلى واقع ملموس، وهو ما أدركه لولا جيدًا فاختار أن يبدأ تحقيقه بأفكار شديدة البساطة والإبداع؛ مراعيًا ضرورة أن يكون حذرًا فيما يعد به لكي لا يدفع ثمنه غاليًا عند فشله في الوفاء به.

كانت الخطوة التالية للولا بعد وثيقة الرعاية الأسرية اللجوء إلى زيادة الحد الأدنى للأجور للعاملين في القطاعات التابعة للدولة.. لم تكن نسبة الزيادة كبيرة؛ لكنها شجعت -بشكل غير مباشر- العمال في القطاعات الأهلية الذين يشكلون أغلبية القوة العاملة البرازيلية على استخدام الحد الأدنى الحكومي معيارًا لتحسين ما يمكنهم الحصول عليه من أصحاب العمل الذين كانوا يقومون بتشغيلهم بأجور غير عادلة، ولم تكن الزيادة التي قام بها مرة وآدي دقني إن تكررت؛ فقد حرص على زيادة الحد الأدنى للأجور كلما حدث تحسن في الاقتصاد؛ خصوصًا عندما بدأ تصاعد اكتشاف فضائح المحيطين به؛ ففي عام 2005 وطبقًا لدراسة المؤرخ بيري أندرسون بلغت الزيادة الفعلية في الأجور ضِعف ما كانت عليه في عام 2004، وفي عام 2006 عام الانتخابات الرئاسية ارتفعت قيمتها أكثر فأكثر، وبالطبع تلقى لولا سيلاً عاصفًا من الانتقادات يتهمه بتقديم رشاوى انتخابية للفقراء، ويشكك في استمرار هذه الزيادات بعد نجاحه، وهو ما لم يحدث؛ بل على العكس عندما جاء عام 2010 كان معدل

الزيادات المتراكمة في الحد الأدنى للأجور قد بلغ 50%، وأصبح أكثر من 18 مليون شخص على الأقل مستفيدين بشكل مباشر من زيادات لولا، وعزز تلك المكاسب قانون حماية الشيخوخة الذي تم إقراره في عهده.

لجأ لولا أيضًا إلى فكرة تتمثل في منح قروض مصرفية لمشتريات الأسر يتم منحها لمن لم يملكوا حسابًا مصرفيًّا من قبل، ويتم السداد عبر اقتطاع القيمة تلقائيًّا من الأجور الشهرية والمعاشات، ولأن الفكرة جاءت ضمن حزمة سياسات اقتصادية متكاملة؛ فقد أدت إلى زيادة الاستهلاك الشعبي وتوسع السوق المحلي الذي شهد أخيرًا فرص عمل إضافية بعد فترة قحط طويلة، ليحقق لولا النمو الاقتصادي الأسرع في تاريخ البرازيل ليس بتدليل الأغنياء والمحلسة لرجال الأعمال والاستمرار في سحق الفقراء؛ بل بإدراك أنه لا خير في معدلات نمو لا تحدث فرقًا في حياة الناس؛ ولذا أدت سياساته الذكية إلى تحقيق أكبر خفض لنسبة الفقر في تاريخ البرازيل؛ فخلال ست سنوات فقط انخفض عدد الفقراء من نحو خمسين مليون إلى ثلاثين مليون، أما عدد المعوزين فقد انخفض بنسبة 50%، ولم يقتصر لولا فقط على رفع الأجور؛ فقد بدأ منذ عام 2005 زيادة إنفاق الحكومة على التعليم بمقدار ثلاثة أضعاف، وقام بإعفاء الجامعات الخاصة من الضرائب مقابل إجبارها على تقديم منح دراسية لطلاب منحدرين من عائلات فقيرة أو من غير العرق الأبيض، لم يكن لديهم أمل في دخول الجامعات على الإطلاق، ومع أن نوعية التعليم التي قدمتها تلك الجامعات كانت متدنية بل ورديئة جدًّا حسب وصف أندرسون فقد أحدثت تغييرًا اجتماعيًّا مدهشًا لأنها فتحت أبواب الأمل لطبقات لم تكن تحلم بأي تغيير من أي نوع؛ فوجدت نفسها أمام فرصة

عليها أن تثبت جدارتها لها، في نفس الوقت الذي كان يتم فيه تحسين مستوى تلك الجامعات ومراقبتها بحزم.

عندما تحقق كل ذلك خلال 4 سنوات أصبح لولا متأكدًا أن الفقراء الذين جعلهم في المرتبة الأولى من اهتماماته سيكونون نصيره الوحيد ليصنع في فترته الثانية إنجازات يتعب بها من بعده ويريح بها فقراء شعبه؛ ولذلك وبرغم كل الضربات السياسية الموجعة التي تلقاها من خصومه؛ فإن تصديق الملايين له جعله يجتاز في منتصف ولايته الثانية محنة انهيار الاقتصاد الأمريكي في 2008، والتي ألقت بظلالها على الاقتصاد العالمي كله؛ يومها خرج لولا على شعبه قائلاً:إن ما حدث قد يكون بمثابة تسونامي في الولايات المتحدة؛ لكنه لن يمثل سوى موجة صغيرة في البرازيل، ليتلقى هجومًا ضاريًا من وسائل الإعلام التي اعتبرت كلامه دليلاً على جهل اقتصادي متهور وانعدام حس المسئولية: لكن لولا كان مُحِقًّا، ليس لأنه كان ساحرًا أو راجمًا بالغيب؛ بل لأنه اتبع سياسة الدولة القوية في مواجهة الأزمة، فبرغم تراجع عائدات الضرائب رفعت الدولة التحويلات الاجتماعية، وقامت بزيادة الاستثمار العام، واتبعت سياسات مصرفية محلية اعتمدت فيها قدرًا عاليًا من الشفافية؛ فحافظت على سمعة البنوك البرازيلية.

وعندما رأى شعب البرازيل هذه السياسات استجاب لطلب لولا له بألا يخاف؛ فتواصلت الزيادة على المنتجات البرازيلية ليستقر الاقتصاد، وبحلول الربع الثاني من 2009 تدفقت رؤوس الأموال الأجنبية مجددًا لتنتهي الأزمة مع نهاية العام، ومع اقتراب ولاية لولا الثانية من نهايتها سجل الاقتصاد نموًا بنسبة تزيد على 7%، وعندها كما يقول بيري

أندرسون ابتسمت الطبيعة نفسها لحكم لولا لتعطيه هدية مع نهاية حكمه حين تم اكتشاف مخزون ضخم من النفط قبالة شواطئ البرازيل، لم يحدث ذلك في بداية حكم لولا كما يحاول مبرراتية الإخوان أن يصوروا للمصريين ليوهموهم أن نجاح لولا كان سببه الحظ البترولي؛ فمفتاح نجاح لولا كان ببساطة أنه جعل من الفقراء عشيرته الأولى بالرعاية والدعم والتدليل، ولم يكن طريقه لتحقيق أحلامه مفروشًا بالورود أبدًا.

بين الشحاتة والسيادة!

ليست حالتك الاقتصادية هي التي تجعلك كبيرًا بين الدول؛ وإنما رؤيتك التي تدير بها علاقاتك الخارجية مع العالم. هذا ما أدركه لولا دي سيلفا الذي لم يكن مشبعًا بأوهام من نوعية أستاذية العالم وأول نور في الدنيا شق ظلام الكون؛ لكنه أدرك أن من أبرز ما يمكن أن يميزه عن سلفه اليميني كاردوسو هو أن يبني سياسة خارجية بعيدة عن علاقات التبعية التي اختارها سلفه والتي شوهت سمعته وجعلته كما يقول المؤرخ بيري أندرسون "ناطقًا من الدرجة الثانية باسم الطريق الثالث وخزعبلاته؛ بينما قام المبدأ الموجه لحكمه على الولاء للولايات المتحدة"، وهو ما امتنع لولا عن فعله منذ أول لحظة له في الحكم، دون أن يتورط في رفع شعارات انتخابية عن مواجهة واشنطن ثم يراه الناس وهو يلحس حذاءها عند وصوله إلى الحكم.

كان لولا يعلم أن بلده فقير؛ لكنه كان يؤمن بأنه يستحق مكانة دولية تليق بحجمه وبأهميته الكامنة؛ ولذلك قرر أن يحول فقر البرازيل إلى ميزة نسبية في سياسته الخارجية، ويستخدم فقر بلاده كورقة ضغط في مواجهة سياسات التبعية للدول القوية؛ بدلاً من أن يستخدمه كورقة للشحاتة التي تمارسها جماعة الإخوان مع العالم بمنطق "إنتو كفار وهتروحوا النار بس أبوس إيديكو ساعدونا يا كفار عشان ربنا ينصر الإسلام".

لم يقرر لولا أن يحجل في سياسته الخارجية، فيرفع شعارات الريادة بينما يتبع نهج الشحاتة، لم يتخبط في أنحاء العالم كالفرخة الدايخة محاولاً أن يجمع بين محبة أمريكا وروسيا وإيران وألمانيا والصين وفرنسا؛ بل اتبع سياسة واضحة منذ البداية اختار لتنفيذها وزير الخارجية سيلسو أموريم الذي كان أبرز شخصية في حكومته؛ حيث كلفه لولا بقيادة جبهة من الدول الأكثر فقرًا المحيطة به شمالاً وجنوبًا من أجل التصدي لمحاولات أوروبية وأمريكية لفرض المزيد من الإجراءات المتعلقة بالتجارة الحرة، وتجاوبت هذه الدول مع لولا ليس من منطلق شعاراتي؛ بل لأنها رأت في سياسته ما يحقق مصالحها دون عنتريات ولا حنجوريات، من خلال إجراءات منطقية يمكن تحقيقها.. لخص لولا خطته في هدف بسيط هو "أنه يريد للعالم أن يشهد نظامًا تجاريًّا متعدد الأطراف أقل استبدادية"، وقد نجح ما سعى إليه بعد جهد؛ فكما يقول إندرسون "يعود إلى البرازيل الفضل الأكبر في فشل واشنطن ومنظمة التجارة العالمية في فرض إرادتهما على العالم الأقل تقدمًا".

فعل لولا ذلك بذكاء وتدرج، دون أن يلحس حذاء أمريكا ودون أن يستثير عداءها الصريح: فأجبرها على الحذر منه ومحاولة كسب رضاه طيلة فترة ولايته الأولى، ثم تبلورت سياسته الخارجية أكثر في ولايته الثانية عندما أصبح لديه ثقل متزايد كقوة اقتصادية؛ حيث شارك في إنشاء مجموعة "البريك" في 2009 والتي جمعت رؤساء البرازيل وروسيا والهند والصين في سفيردلوفسك، والتي أحدثت دويًّا عالميًّا عندما أصدرت بيانًا يدعو إلى احتياطي عملة عالمي بعيدًا عن هيمنة الدولار الأمريكي.. وفي السنة التالية قام لولا بترسيخ موقع دولته السياسي الجديد عندما استضاف قمة مجموعة البريك في البرازيل نفسها.

وكما يلاحظ بيري أندرسون؛ فإنه بينما كانت البرازيل هي الدولة الوحيدة من بين الدول الأربع للمجموعة التي لا تمثل قوة عسكرية أساسية؛ فإنها كانت الوحيدة التي تصدت لإرادة الولايات المتحدة استراتيجيًّا؛ فقد اعترف لولا بدولة فلسطين؛ بل رفض أيضًا الموافقة على محاصرة إيران؛ حتى إنه دعا أحمدي نجاد إلى زيارة برازيليا، وكانت تلك الخطوة بمثابة إعلان استقلال البرازيل دبلوماسيًّا؛ فجُنّ جنون واشنطن، وهاجت الصحافة المحلية التابعة لليمين ضد لولا؛ لكن الناخب المحلي لم يكترث لذلك الهجوم، لأنه أحب فكرة أن تبرز دولته كقوة عالمية. وبحلول نهاية عهد لولا، لم تأت شعبية لولا المتزايدة من التحسن المادي فقط؛بل من الفخر الجماعي للبرازيليين ببلادهم أيضًا.

كانت البرازيل قبل لولا تعاني سياسات الانعزال عن باقي أمريكا اللاتينية بفعل أنها تتحدث لغة مختلفة هي البرتغالية، وبفعل حجمها وجغرافيتها، وكان تواصل البرازيل مع جيرانها قائمًا فقط على لجوء المناضلين ضد

الحكم العسكري إلى كوبا والمكسيك، وهو ما تغير مع سياسات لولا التي استغلت صعود حكام جدد إلى أغلب دول أمريكا اللاتينية لبناء شبكة علاقات قوية؛ لكنه في نفس الوقت كان ذكيًا بحيث وظّف لمصلحته وصول يساريين أكثر تشددًا إلى الحكم في دول مثل بوليفيا وفنزويلا والإكوادور؛ فمدّ لهؤلاء -ما سماه أندرسون- "غطاء صداقة واقية" في نفس الوقت الذي استفاد لدى الرأي العام الدولي من مقارنة صبت لمصلحته بين توسطه وتطرف تلك الحكومات؛ لكنه لم يحاول أن يفعل ذلك باستخدام منهج الفكاكة والحداقة الذي يورطه في دعم تيارات متطرفة تنقلب عليه فيما بعد؛ بل أدار كل هذه التناقضات بحذر لم يجعله يفقد تركِيزه الدائم على تحسين الاقتصاد وربطه بالسياسات الاجتماعية المحسنة من أحوال الفقراء؛ ولذلك عندما قرر أن يدير ظهره للولايات المتحدة التي كانت تعاني أزمة اقتصادية بسبب سياسات بوش البلهاء، وتحالف مع الصين، دعمه شعبه بقوة في وجه هجمات الإعلام والمعارضة، وكانت البرازيل بالفعل أكثر دولة في العالم تستفيد من ازدهار الصين الاقتصادي؛ خاصة أنه لم يبنِ علاقته معها من باب مشاغلة أمريكا "لأجل تحن وترضى"، ولذلك ساعدته تلك العلاقة على تحقيق فلسفته التي كانت ترفع شعار "الاهتمام بالفقراء مسألة زهيدة الكلفة وبسيطة"، وهي فلسفة نجحت -في رأي بيري أندرسون- لأن "لولا امتلك الخيال الذي أتى من تماثله الاجتماعي مع فقراء بلده الذين أدرك أن الدولة تستطيع أن تكون أكثر سخاء مع الأفقر حالاً بطريقة تحدث تغييرات جوهرية في حياتهم؛ لكن دون أن يأتي ذلك على حساب الأثرياء وميسوري الحال الذين تحسنت أوضاعهم كثيرًا في عهده أيضًا".

خلطة لولا السحرية!

لكي تكون نصير الفقراء وبطل أحلامهم، هناك طريق آخر غير سحق الأغنياء وتطليع دينهم وتأميم أموالهم.. تبدو تلك معادلة مستحيلة؛ لكن لولا دي سيلفا حققها؛ خاصة بعد أن صوره إعلام اليمين بأنه اليساري الذي يحمل الخراب لكل صاحب ثروة في البلاد،وأنه مجرد غوغائي يشتري عطف الفقراء ليصل إلى الحكم، وأخذت تنتشر عملية مقارنته بالديكتاتور غيتوليو فارغاس الذي وصل إلى السلطة عبر صناديق الاقتراع بلقب "أبو الفقراء" ثم قام بممارسات إجرامية قضت على محبة الناس له تمامًا.

يعلق المؤرخ بيري أندرسون على المقارنات التي شبهت لولا بالديكتاتور فارغاس وبالسياسي الأرجنتيني الشعبوي بيرون بأنها خاطئة من الناحية التاريخية؛ صحيح أن كلاً من الإثنين قام بحشد وتجييش الجماهير الفقيرة في صفه؛ لكن بطرق مختلفة عن تلك التي اتبعها لولا؛ فخطاب فارغاس للجماهير كان أبويًا وعاطفيًّا لجأ إلى إسالة دموع الفقراء لكي يحتشدوا خلفه في وجه أعدائه؛ بينما كان خطاب بيرون السياسي محرضًا وعدائيًّا بحيث شجع الفقراء على أن يحاربوا معه ضد أعدائه من المتنفذين الجامعين بين المال والسلطة، أما لولا فلم يلجأ في حكمه إلى تلك الأساليب: لأنه ارتكز في حكمه على حركة نقابية وحزب سياسي أكثر عصرية وديمقراطية، ناضل من خلاله ثلاث مرات محاولاً الوصول إلى الرئاسة، وعندما نجح في المرة الرابعة لم يرتكب لولا خطيئة الاعتماد على أعضاء حزبه فقط في ترسيخ دعائم حكمه؛ بل قرر أن يتوجه نحو

قطاعات أوسع من البرازيليين كانت تنتخب اليمين دائمًا، مع أن أغلبهم كان من الفقراء.

لم يلجأ لولا إلى التحليلات الحمضانة التي تدين الفقراء؛ بل حاول فهم أسبابهم واستعان بالعالم والسياسي أندري سنجر الذي عيّنه مستشارًا له إدراكًا منه لأهمية أن تحيط نفسك بالمفكرين الصادقين، وليس بالصيّع والمهللاتية. وبعد دراسة مستفيضة تبنى لولا سياسة جديدة تعتمد على تحليل سنجر الذي رأى أن فقراء البرازيل الذين يبلغون نحو 48% من السكان، يدفعهم لاتخاذ قراراتهم السياسية انفعالان أساسيان: أولهما الأمل بأن تخفف الدولة من ظلمها لهم، وثانيهما الخوف من أن تقوم الحركات الاجتماعية اليسارية بخلق مناخ من الفوضى وعدم الاستقرار قد يؤدي إلى حدوث نزاعات مسلحة تؤدي إلى تدهور أحوالهم أكثر. كانت الشعارات العنيفة الحادة التي يرفعها بعض اليساريين تخيف منهم الفقراء الذين كانوا يرغبون في حدوث أي تحسن سريع في نمط معيشتهم؛ ولذلك كانوا يرون في خطاب اليمين الحافل بوعود الاستقرار أملاً أقرب للتصديق.

لذلك رأى سنجر أنه إذا ظل اليسار عاجزًا عن ابتكار حلول سياسية تشجع الفقراء على تأييده، غير الإضرابات التي يكرهونها أكثر من الأغنياء لأنها تهدد رزقهم اليومي؛ فإنه لن يستفيد أبدًا من تبنيه لمطالب الفقراء، وسيظل اليمين يحصد أصواتهم إلى الأبد.. وكانت هذه هي الرؤية التي استند عليها لولا فور وصوله إلى الحكم؛ حيث فاجأ الجميع بتبني خطاب إصلاحي عاقل هادئ يطمئن الفقراء قبل الأغنياء بأنه لن يحدث تغييرات عنيفة تؤدي إلى نشوب صراعات في البلاد.

كانت السياسة التي اتبعها لولا تقوم على تحسين أحوال الفقراء دون صدام حاد مع أصحاب رؤوس الأموال، من خلال سياسة الاستهلاك الشعبي التي يصفها أندرسون بأنها كانت طريقًا أيديولوجيًا جديدًا جمع بين استقرار الأسعار وتوسيع السوق الداخلي؛ حيث قام لولا باحترم مزاج الجماهير وثقافة البلاد السياسية التي تميل إلى تجنب النزاعات التي طالما أرهقت الشعب؛ مع الحرص على تمتين علاقاته مع الجماهير؛ مستغلاً جذوره الشعبية كمهاجر معدم قادم من الشمال الشرقي والتأكيد الدائم على صدق تعهداته الديمقراطية بألا يرتكب ما يدفع الناس للشك فيه، باستخدامه للقمع أو إظهار رغبته في الاستبداد أو الصدام مع مؤسسات الدولة؛ لذلك يرى أندرسون أنه إذا كان يمكن تشبيه لولا بزعيم؛ فلن يكون سوى الأمريكي فرانكلين روزفلت الذي تجسدت عبقريته في تبديل المشهد السياسي الذي لم يكن في صالحه، من خلال مجموعة إصلاحات أدت إلى أن ينتقل ملايين العمال والموظفين الغارقين في الفقر إلى صفوف الطبقة الوسطى في أمريكا، وهو الدرس الذي حرص عليه لولا ومستشاروه عندما أدركوا أن أي طرف يطلق حركة اجتماعية تدفع ملايين الفقراء نحو الأعلى ولو قليلاً سيسيطر على الساحة السياسية وقتًا طويلاً مهما كانت قوة خصومه.

لكن لولا وهو يتحرك ظل حريصًا على عدم استعداء أصحاب رؤوس الأموال؛ بل أثبت من خلال قراراته الذكية التي أدت إلى تنشيط الاقتصاد أنه سيشكل أكبر فائدة لهم؛ فلم تزدهر رؤوس الأموال بالقدر الذي عرفته في عهد لولا؛ فبين 2002 و2010 -طبقًا لأندرسون- فاق أداء بورصة ساو باولو أداء أي بورصة أخرى في العالم؛ مُحلّقة بنسبة 523%، وأصبحت

تشكل في نهاية عهده ثالث أكبر مجمع للسندات المالية والعقود الآجلة والسلع في العالم، ومع أنه لم يقم باتخاذ خطوة راديكالية لجعل الضرائب تصاعدية على أصحاب الثروات؛ إلا أنه قام بخفض الفقر إلى حد كبير، وانتقل حوالى 25 مليون شخص في عهده إلى صفوف الطبقة الوسطى، وازدادت مداخيل العُشر الأفقر من الشعب بمعدل بلغ ضعف معدل مداخيل العشر الأغنى تقريبًا، وفي حين أصبحت تكلفة برنامج بولسا فاميليا تبلغ حوالى 9 مليارات دولار؛ فقد تضاعف عدد أصحاب الملايين خلال عقد حكم لولا أكثر من أي وقت مضى، ليتحول معظم المولين والصناعيين البرازيليين إلى مؤدين باندفاع لحكم لولا مثلهم مثل الفقراء الذين وجدوا أن الانتقال إلى الطبقة الوسطى حلم ممكن التحقق.

تضيق المساحة عن استعراض تفاصيل السياسات الاقتصادية التي تمكّن لولا بفضلها من تحقيق هذا الإنجاز، وعن تفاصيل الحروب والمصاعب التي خاضها في كل يوم من أيام رئاسته ليحقق ذلك؛ لكن إذا كان يمكن تلخيص ما حققه في سبب واحد فهو أنه لم ينشغل بمحاربة أعدائه بقدر ما انشغل بخلق مستفيدين من سياساته؛ ولذلك فقط لم تضره حروب الإعلام الشرسة من قريب ولا من بعيد.

حجة البليد.. الإعلام!

عندما تكون صاحب رؤية غير قائمة على الشعارات الهلامية، بل قمت ببنائها على تجاربك الناجحة والفاشلة، لن تندهش إذا وجدت أن

أعداءك لن يقابلوا ميلك إلى تجنب الصراع بأن يجنحوا بدورهم للسلم؛ بل على العكس سيحاولون تحطيمك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ لكنك لن تنشغل بهم قدر انشغالك بتحقيق إنجازات تُفشل رغبتهم في تحطيمك، والأهم أنك لن تمنحهم بغبائك السياسي كل يوم هدية جديدة تجعل مهمتهم في تحطيمك أسهل وألذ.

في دراسته عن مشوار لولا دي سيلفا يقول المؤرخ الأمريكي بيري أندرسون إن كراهية لولا للنزاع والصراع لم يتم مقابلتها بالمثل؛ خصوصًا من وسائل الإعلام الأكثر انتشارًا وتأثيرًا؛ ففي حين كانت وسائل إعلام عالمية ذات سمعة رفيعة مثل مجلة الإيكونوميست وصحيفة الفاينانشيال تايمز لا تكفان عن الثناء على حلول لولا المبتكرة في تقديم سياسات اجتماعية تخدم الفقراء دون أن تصطدم بسياسات السوق، وعلى وضعه بلاده على مسار ثابت نحو الازدهار، كان من يقرأ صحفًا ذائعة الانتشار في البرازيل مثل صحيفتي "فولها" و"استادو" ومجلة "فيغا" يشعر أنه يعيش في عالم مختلف؛ فبحسب ما يرد عادة في مقالات تلك الصحف؛ فإنه "كان يحكم البرازيل حكمًا سيئًا ديكتاتور فظ ومدّعٍ لا يفهم بتاتًا المبادئ الاقتصادية، كما لا يكنّ أدنى احترام للحريات المدنية، ويمثل تهديدًا دائمًا للحرية والملكية على حد سواء".

يقول أندرسون إنه لم يكن لدرجة الحقد الإعلامي الموجهة ضد لولا أي علاقة تقريبًا بما كان يقوم به فعليًا، إذ خبأت وراءها ضغائن أكثر وأكبر؛ فقد عنى نظام لولا بالنسبة للإعلام فقدان السلطة التي اكتسبها منذ 1985 حين انتهى الحكم العسكري واستولى اليمين بإعلامه على السلطة؛ فقد كان أصحاب وسائل الإعلام والتلفزيونات يختارون فعليًا المرشحين

ويحددون نتائج الانتخابات؛ حتى إن الصحافة قامت بتتويج سلف لولا "كاردوسو" رئيسًا قبل حتى أن يترشح أصلاً؛ ولذلك فقد كسرت علاقة لولا المباشرة مع الجماهير هذه السيطرة الإعلامية على المشهد السياسي، وللمرة الأولى لم يكن الحاكم رهن أصحاب المؤسسات الإعلامية: ولذلك كرهوه، وساعدهم على الإمعان في ضراوة حملاتهم الإعلامية وجود جمهور متعاطف معها، كان يتمثل في طبقات البلاد الوسطى التقليدية المتمركزة في المدن الكبيرة وخصوصًا ساو باولو، والذين شعروا أن وجود لولا يهدد منزلتهم الاجتماعية؛ فالرئيس الحالي كان عاملاً سابقًا، غير متعلم، اشتهر بلغته الشعبية الركيكة، وزاد الطين بلة لدى هؤلاء أن الرعاع من وجهة نظرهم صاروا يحصلون في عهده على سلع استهلاكية كانت مخصصة للطبقة المتوسطة فقط: فراح هؤلاء الرعاع يتباهون بذلك في حياتهم اليومية بشكل أزعج أبناء الطبقة الوسطى.

أذكر أن الصديقة المدونة هند محيي الدين حكت لي عن لقاء جمعها بزملاء برازيليين في شركة بترول كانت تعمل بها، وفوجئت بكم العداء الذي يُكنّونه له واتهامهم له بأنه خرب البرازيل وقام بتدليل حثالة البشر فيها ليقوم بتخريب بنية المجتمع البرازيلي، وهو ما أكد لي عبقرية التوصيف الذي أسماه الناقد السياسي البرازيلي إيليو غاسباري "ظاهرة رُهاب الشياطين" التي تشكلت من امتزاج الغم السياسي الذي يشعر به أصحاب المؤسسات الإعلامية مع الضغينة الاجتماعية الموجودة لدى قرائهم أبناء الطبقة الوسطى، ليشترك الجميع في ظاهرة مرارة غريبة تعادي نظام لولا.

أذكر أنني تحدثت عن علاقة لولا المتوترة بالإعلام البرازيلي في البرنامج الإذاعي (في أوروبا والدول المتخلفة) الذي قدمته على إذاعة نجوم إف إم: فهلل أنصار الإخوان لكلامي كعادتهم كلما سمعوا كلامًا يعجبهم؛ لكنهم صموا آذانهم تمامًا عن النصف الآخر من الكلام الذي تحدثت فيه عما فعله لولا في مواجهة هذه الحرب الإعلامية الشرسة، فلولا مثلاً لم يكن من الغباء بحيث يصعب مهمته أكثر بمحاربة وسائل الإعلام هذه بالدعاوى القضائية والبلاغات التي يرفعها محبوه وأنصاره؛ لأنه كان يعلم أنه لو فعل ذلك سيجعل الشكوك التي تُروّجها وسائل الإعلام ضده بأنه كان يستخدم الديمقراطية التي لا يؤمن بها للوصول إلى الحكم؛ لذلك قرر أن يترك قراراته وحدها ترد على وسائل الإعلام المعادية له، وابتعد عن اتخاذ أي قرارات استبدادية يستغل فيها صلاحياته لكي يعطي الحجة لوسائل الإعلام أن تقول للناس: ألم نقل لكم أن خلف هذا الوجه الذي يدعي محبتكم ديكتاتور شرير يتحين الفرصة لضرب الديمقراطية.. وكما قرأت في دراسة بيري أندرسون فإن المجال الوحيد الذي قرر فيه لولا توسيع صلاحياته الرئاسية كان مجال القرارات الرئاسية للتوظيف؛ حيث كان يصدر كل عام قرارات بتوظيف حوالى 200 ألف شخص في وظائف يرى أنهم الأكفأ لها، وكان حزبه يساعده على اختيار أكفأ العناصر التي كانت مظلومة في العهد السابق؛ بحيث لا يجلب تعيين هؤلاء سخط الناس؛ بل على العكس يثير استحسانهم وتأييدهم له ولحزبه.

لقد كان لولا أكثر حكمة من أن يظن أن وجود عشيرة عمالية تدعمه سيكون كافيًا لإخراس وسائل الإعلام الكارهة له، وهكذا استمر مع كل يوم له على كرسي الحكم يقابل كل طعنة إعلامية يتلقاها باكتساب

مواطن يؤيد سياساته بعد أن رأى مدى فائدتها له. وعندما وصل لولا إلى نهاية فترة رئاسته الثانية كانت كل وسائل الإعلام المعادية له تقسم لجمهورها أن لولا لن يترك كرسي الحكم أبدًا، وأنه سيعمل على التحايل على الدستور، وسيقوم باستغلال شعبيته لضرب تداول السلطة في مقتل؛ لكن لولا لم يكتفِ فقط بأن يفي بتعهداته ليترك الحكم وهو في أوج مجده؛ بل حرص على أن يقدم للبرازيل خليفة يحافظ على إنجازاته، ظل لولا يساهم في إعداده لسنين ووقف إلى جواره بكل ما أوتي من قوة، فقط لكي لا يذهب كل ما حققه لشعبه أدراج الرياح بعد أن يرحل عن الحكم.

كيف أفلح قوم ولوا عليهم امرأة رد سجون؟

لم يكتف لولا دي سيلفا بالإنجاز التاريخي الذي تفرّد به بين جميع زعماء العالم، بكونه الحاكم الذي يغادر الحكم ونِسَب شعبيته تفوق بمراحل شعبيته عند بداية حكمه؛ بل قرر أن يواصل انتصاره على خصومه حتى بعد أن غادر الحكم؛ فوضع كل ثقله في دعم خليفته ديلما روسيف التي كان انتصارها في الانتخابات الرئاسية "انتصار لولا الانتخابي الأكبر" طبقًا لتعبير المؤرخ بيري أندرسون؛ فقد كانت شخصية يكاد يجهلها عامة الشعب قبل قيام لولا بتقديمها لهم، ولم تكن قد واجهت ناخبًا من قبل في حياتها، ولم تكن تمتلك أي أثر للكاريزما التي كان يمتلكها لولا؛ لكن ثقة الناس بلولا جعلتها تحصل على عدد من الأصوات قريبًا من ذلك الذي حصل عليه لولا نفسه عندما نجح في الانتخابات الرئاسية؛ حيث

نجحت ديلما روسيف في الدورة الثانية من الانتخابات الرئاسية بنسبة بلغت 56%، وبثلاثة ملايين صوت أقل من عدد الأصوات التي حصدها لولا خلال فوزه في انتخابات 2006، وأكثر بثلاثة ملايين صوت مقارنة مع فوزه في انتخابات 2002.

ليس ذلك فحسب؛ بل أصبح حزب العمال الحزب الأكبر للمرة الأولى في الكونغرس، وفي مجلس الشيوخ حقق أيضًا انتصارًا كبيرًا، وأصبحت روسيف تقود البلاد بدعم أكثر من ثلثي الهيئة التشريعية في المجلسين، وهي أكثرية لم يتمتع بها لولا نفسه يومًا ما.. صحيح أن ديلما تدين بنجاحها إلى الفراغ الذي لفّ الحزب الحاكم إثر الفضائح التي أطاحت بكل من السياسيين الشهيرين بالوتشي وديرسو اللذيْن كانا خَلَفين قويين محتملين كان يفكر فيهما لولا، ولذلك لم تكن مهمة إقناع الحزب بدعمها سهلة؛ فقد حظيت بالأفضلية داخل انتخابات الحزب بفارق ثلاث نقاط فقط عن أقرب منافسيها؛ لأنها لم تكن أصلاً من نتاج حزب العمال؛ فقد انضمت إلى صفوفه في عام 2000؛ لكن لولا وضعها في باله منذ البداية، ربما لأنه -كما يقول أندرسون- لم تكن تشكل أي تهديد له.

ومع أن لولا يكبر روسيف بسنتين فقط، فقد كانت علاقتهما تشبه علاقة أب بابنته؛ فقد وجد لولا فيها أنها بارعة في أمر لم يتقنه هو الإدارة؛ ولذلك عيّنها وزيرة للطاقة، فنجحت في أن تجعل البرازيل تتوقف عن المعاناة من انقطاع الكهرباء، خاصة أن لولا أدرك خطورة تلك المعاناة التي كانت سببًا رئيسيًّا في خسارة سلفه كاردوسو للانتخابات لأن الكهرباء كانت تنقطع كثيرًا في عهده.

يصف أندرسون الحملة المشتركة التي قام بها لولا وديلما في انتخابات 2010 بأنها كانت ستكون أكثر غرابة لو كان المرشح الرئاسي الذي يدعمه لولا رجُلا؛ لكنه يقول إن التباينات الموجودة بين لولا وديلما عملت لخدمة الحملة أكثر من عملها ضدها. لا أدري إذا كنت تعلم أن ديلما روسيف أصلاً كانت "رد سجون" مثلها مثل لولا نفسه؛ بل إنها كانت متورطة في أعمال كانت تصنف وقتها بأنها أعمال إرهابية؛ فرغم أن ديلما تنتمي إلى عائلة من الطبقة الوسطى العليا، إلا أنها تأثرت بأفكار والدها البلغاري الشيوعي الذي هاجر إلى أمريكا اللاتينية في الثلاثينيات من القرن الماضي، وحقق نجاحًا في قطاع العقارات في مدينة بيلو هوزيزونتي، مَكّنه من أن يضمن لابنته تعليمًا جيدًا ويعلمها اللغة الفرنسية والعزف على البيانو.. تعليمها الجيد ساعد على ازدهار بذرة التمرد التي ورثتها من والدها؛ فعندما استولى الجيش على الحكم في البرازيل كانت ديلما في سن السابعة عشرة، وبعدها بسنتين كانت جزءًا من حركة ثورية سرية تنفذ أعمالاً مسلحة، وحين انتقلت إلى ريو دي جانيرو في 1968 شاركت في إحدى أشهر عمليات الاقتحام الثورية في ذلك الزمان، وهو مصادرة صندوق يحوي مليونين ونصف مليون دولار من عشيقة أكثر حكام ولاية ساو باولو فسادًا، وفي 1970 تم القبض عليها في ساو باولو وتم تعذيبها وسجنت لمدة ثلاث سنوات، وعندما تم إطلاق سراحها، انتقلت إلى الجنوب لتقطن مدينة بورتو أليغري حيث كان مسجونًا رفيقها السابق في الحركة السرية الذي أصبح زوجها.. وعندما خفّت وطأة الديكتاتورية في أواخر سبعينيات القرن الماضي، حصلت ديلما على وظيفة في مكتب إحصاءات ريو غراندي دو سول، وعادت إلى الحياة السياسية بانتسابها إلى الحزب الذي كان يقوده منافس لولا الأساسي اليساري في الثمانينيات

ليونيل بريزولا، ويبدو أنها لفتت منذ ذلك الوقت أنظار لولا إليها؛ لذلك عندما نجح في عام 2002 أتى بها إلى برازيليا وعيّنها وزيرة للطاقة ليستفيد من قدراتها التقنية والإدارية.

أفتح هنا قوسًا لأقول إنني قرأت مؤخرًا أن ديلما روسيف تسلّمت في يونيو الماضي مبلغًا يساوي عشرة آلاف دولار أمريكي من حكومة البرازيل كتعويض عن تعذيبها طيلة سنوات اعتقالها الثلاثة التي كانت تُصرّ خلالها على أنها لم تقتل أحدًا خلال فترة نضالها السياسي.. تبرعت ديلما بالمبلغ لمناهضة التعذيب، ولم تكتفِ بذلك؛ بل قامت بتشكيل لجنة من سبعة أفراد للتحقيق في الاعتداءات التي وقعت ضد المدنيين خلال فترة الحكم العسكري، وحرصت على أن توجه خطابا للشعب البرازيلي تقول فيه "نحن لسنا مدفوعين بالانتقام والكراهية والرغبة في إعادة كتابة التاريخ؛ وإنما يحركنا فقط رغبتنا في معرفة الحقيقة".

أقول ذلك لبعض الذين لا يكفون عن ترديد نغمة أن أبرز مشاكل محمد مرسي هو أنه رئيس رد سجون، مع أن ذلك في نظري هو ميزته الوحيدة؛ فالاعتقال السياسي شرف وليس تهمة، ومشكلتي مع مرسي ليست أنه كان معتقلاً سياسيًّا؛ بل أنه لم يكتسب من تجربة الاعتقال السياسي حساسية ضد الظلم تجعله يرده فورًا عمن تم اعتقالهم في عهده، مشكلتي أنه عندما أصبح في يده صلاحيات تُخوّله أن يرد الظلم عن المظلومين، لم يفعل كما فعلت ديلما روسيف التي أخذت هذا القرار الجريء بفتح ملفات الماضي الشائكة؛ فكانت أرجل وأجدع وأشجع من الذين لم يكتفوا فقط بالطرمخة على ملفات الماضي المليئة بالظلم؛ بل قرروا أن يتفننوا في إضافة صفحات جديدة مكتوبة بالدم إليها.

أُغلق القوس وأعود إلى بيري أندرسون وهو يتأمل في تاريخ ديلما روسيف التي اختارها لولا خليفة له؛ فيقول:إنه من حيث الخلفية السياسية يمكن اعتبار روسيف "ميليشاوية" أكثر من كونها قائدة عمالية تتحلى بالخبرة النقابية مثل لولا، وربما لذلك يعرف المحيطون بها أن طبعها أكثر حدة من طبع لولا، مع أنها تحاول أن تسيطر على نفسها كثيرًا؛ لدرجة أنه سرى في الأوساط السياسية تعبير أطلقه البعض عن الفرق بين طريقتها وطريقة لولا في حل النزاعات هو أن لولا يستمتع بالنزاعات كمتفرج على مباراة كرة الطاولة، أما أسلوب روسيف فهو قذف المضرب.

ولعل اختيارها وهي بهذه الشخصية يضيف ميزة -من وجهة نظري- إلى لولا دي سيلفا الذي لم يحرص -كما يفعل الزعماء لدينا- على اختيار خليفة باهت الملامح ضعيف الشخصية على أمل أن يقارنه الناس به فيترحموا على أيامه؛ بل كان لديه من إنكار الذات ومن بُعد النظر ما يجعله يختار لخلافته سيدة تتمتع بالكفاءة المهنية وقوة الشخصية؛ لأنه يدرك أن نجاحها سيشكل استمرارًا لنجاح تجربته، ولن يلغي تاريخه؛ بل على العكس سيؤكد حضوره دائمًا، وهو ما حدث بالفعل؛ فقد بدا من خلال تقييم بيري أندرسون لأداء ديلما خلال الأشهر المبكرة من حكمها، أنها استفادت كثيرًا من تجربة لولا ومن فلسفته في الحكم؛ فقد أعلنت أنها ستدافع بشراسة عن حقوق الامتيازات الملكية التي تتمتع بها البرازيل لمخزون النفط الهائل الذي قيل إنه موجود في أعماق البحر قبالة شاطئ البلاد والذي تحوم حوله بشراهة الشركات المتعددة الجنسية ووكلاؤها المحليون، كما وعدت بتوسيع برامج الإسكان والبنية التحتية التي بدأت في عهد لولا، وأضافت إلى ذلك تعهدها بتأمين صحي شامل لمواطني

البرازيل، وهو ما يعتبر التزامًا كبيرًا وجديدًا، وقامت بإعادة بالوتشي - صاحب الخبرة المالية الواسعة- إلى السلطة ليكون كبير موظفيها في الديوان الرئاسي برغم كل ما لاقاه ذلك من هجوم؛ ولكنها في نفس الوقت قامت باستبدال أموريم -وزير الخارجية- بوزير مفوض لطيف ترضى عنه واشنطن، وصممت حكومتها بطريقة تطمئن فيها أوساط الأعمال والولايات المتحدة أنه لا خوف من الإدارة الجديدة ولا داعي لمحاربتها، ومع إبقائها على الحد الأدنى للأجور كما ورثته من عهد لولا، ورفع معدلات الفائدة ووعدها بمراقبة أشد على الإنفاق العام؛ فقد بدت تدابيرها الأولى مشابهة تمامًا لسياسة لولا "الأروبة" خلال سنواته الأولى في الحكم.

ينهي بيري أندرسون دراسته بإثارة أسئلة كثيرة حول مستقبل التجربة البرازيلية في عهد ديلما روسيف أتمنى أن أقرأ لها إجابة لدى أي دارس للتجربة البرازيلية خلال الفترة الأخيرة التي لم تقم الدراسة بتغطيتها؛ لكي ندرك هل أحسنت ديلما أم أساءت في الحفاظ على تجربة لولا وتطويرها؛ خاصة أن لولا ترك لها إنجازات؛ لكنه ترك لها أيضا تحديات ورثها عن العهود السابقة له؛ فعندما رحل لولا كان معدل الادخار البرازيلي شديد الانخفاض؛ حيث لا تتجاوز نسبته 17% من الدخل القومي؛ أي أقل من نصف النسبة المسجلة في الهند، وثلث النسبة المسجلة في الصين، كما أن معدلات الإنفاق على البحث والتطوير كانت لاتزال في حدود معدل 1%. وفي حين أدت قرارات لولا برفع معدلات الفائدة البرازيلية لتفوق نسبة 11% إلى جذب رأس المال الأجنبي وكبح جماح التضخم؛ فإنها كما يقول أندرسون أصبحت تشكل خطورة اقتصادية في حالة حدوث أي

هزة لاقتصاد البلاد الذي أصبح يعتمد بشكل أكبر على تجارة المحاصيل الزراعية واستخراج المعادن؛ في حين تراجعت الصناعة، وهبطت حصة المنتجات الصناعية من الصادرات البرازيلية من 55 إلى 44% بحلول 2009، وأصبحت البلاد مهددة بإغراق حليفتها الصين لها بمنتجات زهيدة الثمن سجل استيرادها من الصين في عام 2010 نسبة صاروخية بلغت حوالى 60%؛ أي أن الصين كما أفادت البرازيل تجاريًّا قامت بالإضرار بها من ناحية أخرى كما هو شأن أي علاقة تجارية غير متكافئة؛ لذا يؤكد أندرسون أن البرازيل لا يمكن أن تحقق مستويات معيشة مرتفعة من دون تصنيع واسع النطاق؛ لأنها ليست مجتمعات قليلة السكان ذات مستويات تعليم عالية مثل أستراليا أو نيوزيلندا أو فنلندا، وأن الوضع السكاني وانتشار الفقر في البرازيل يفرض عليها الاهتمام دائمًا بالتصنيع؛ خاصة أن مواردها الطبيعية تلعب في مصلحتها؛ فمساحة الأراضي الزراعية الاحتياطية لديها تبلغ مساحة تلك التي في الولايات المتحدة وروسيا مجتمعة، والمياه المتجددة لديها توازي تلك المتوافرة في قارة آسيا بأكملها، واحتياطي النفط أصبح يسجل أرقامًا قياسية عالمية، وكل ذلك يجعل فُرَصها في تحقيق نمو أسرع ممكنة وقائمة.

أيًّا كان الحكم على تجربة ديلما روسيف التي تواجه مشاعر غضب متصاعدة في الشارع البرازيلي خصوصًا من جيل الشباب الساخط، سيظل مستقبل البرازيل دائمًا مرهونًا بقدرة أبنائها على استلهام الشعار الذي اختير ليتم كتابته على علم البرازيل، وهو شعار مستلهم من المفكر أوجست كونت ومكون من كلمتين (النظام والتقدم)، وقد قام لولا بترجمته إلى سياسة مبدعة عندما اختار على حد تعبير بيري أندرسون أن

يحقق تقدمًا من دون نزاع، ويقوم بتوزيع في الموارد من دون إعادة توزيع، ومع أن التحسين المادي في ظروف الناس لا يعني بالضرورة وجود تمكين اجتماعي للفقراء؛ إلا أن وجود ذلك التحسن قد يؤدي إليه، والعكس بالعكس، فقد ثبت طبقًا لسياسة لولا دي سيلفا أن السعي نحو تمكين الفقراء يؤدي إلى تحسن اقتصادي للبلاد بأسرها، فقط إذا توفرت إدارة تتمتع بالخيال السياسي وتدرك أهمية الحفاظ على جوهر الديمقراطية وضمان تداول السلطة، كضرورة لم يعد يمكن لأي شعب أن يتقدم بغيرهما.

لقد أثبتت تجربة لولا أنه لا يوجد إطلاقًا وصفة جاهزة للتطبيق يمكن أن تحل بها مشكلات مجتمع ما؛ بدليل أنه عندما سقط الحكم العسكري في فنزويلا وحكمته نخبة ليبرالية قامت بتطبيق سياسات الليبرالية الجديدة المستوردة من جامعات أمريكا وأوروبا، فشلت فشلاً ذريعًا، وانطلقت ضدها ثورة شعبية في أحداث كاراكاس التي جرت في فبراير 1989،والتي قادت إلى نهاية النظام القديم في فنزويلا، وشجعت على انطلاق شعبية اليسار الذي وصل بفضله نجمه هوجو شافيز إلى الحكم.

ومع أن لولا وصل إلى الحكم بعد شافيز بقليل، ثم توالى صعود اليسار إلى السلطة في الأرجنتين وبوليفيا والإكوادور والباراغواي والأورجواي؛ لكن كلاً من حكام اليسار قدّم تجربة مختلفة، كانت أنجحها تجربة لولا الذي استطاع أن يقود سفينة بلاده الضخمة بذكاء لا يجعله محسوبًا على تيار سياسي بعينه، ولم تكن مهمته سهلة؛ فقد واجه قدرًا كبيرًا من المزايدات من رفاق دربه ومن أبناء توجهه اليساري الذين اتهموه بخيانة أفكاره

وبأنه لم يعد ثوريًا كما كان؛ بل أصبح إصلاحيًا رقيعًا، وهو بالمناسبة نفس ما تم به اتهام خليفته ديلما روسيف التي بدأت حياتها في العمل المسلح؛ ولكنها عندما مارست العمل السياسي نضجت أفكارها، وأصبحت تدرك أن هناك فرقًا بين النعيم الذي يبدو ممكن التحقق في الشعارات النبيلة، وبين الجحيم الذي يمتلئ به الواقع المعقد بشكل كريه يكفي لإزهاق روح أكثر الشعارات نبلاً وبراءة.

لقد واجه البرازيليون الكثير من التحديات منذ بدأت تجربتهم الديمقراطية التي لم تكن مكتملة منذ بدايتها؛ لكنهم لم يجروا في أول منعطف صعب ليطالبوا بعودة الاستبداد أو حكم العسكر صارخين "إحنا شعب ما بنجيش إلا بالجزمة". بالتأكيد هناك من صرخ منهم بذلك، ومنهم من طالب بعودة الاستبداد، ومنهم من ردد أفكارًا بلهاء عن أن هذا الشعب لا يمكن أن يصلح لحكمه إلا "حرامية شبعانين" لكي يتوقفوا عن سرقته؛ لكن هذه الأفكار -كما تقول نتائج الواقع- وجدت مقاومة شرسة من الأحرار الذين لم ييأسوا ولم يتخاذلوا، وقاموا بتجميع جهودهم في حركات حزبية ونقابية منظمة هي التي اعتمد عليها لولا في رحلته للوصول إلى الحكم؛ لأنه برغم ذكائه وخبرته، لم يعش أبدًا في دور المخلّص: فكيف يمكن أن يدعي لنفسه القدرة على تحقيق الخلاص من فشل في الانتخابات ثلاثة دورات متالية.. إن فشلاً مثل هذا كان يمكن أن يقتل لولا إلى الأبد لو لم يكن لديه حلم يعيش من أجله؛ لكنه مع أنه كان يعلم أن خسارته دائمًا تحدث بسبب معايير انتخابية غير نزيهة، يلعب فيها المال السياسي والتجارة بالدين والإعلام الموجه أدوارًا قذرة، لم يكتفِ بدور الشجيع الذي لا يجيد سوى الهتاف؛ فقد أدرك أنه طالما ارتضى خوض

لعبة السياسة فإن عليه أن يستخدم أدواتها لتحقيق أحلامه، أيًا كان رأيه في هذه الأدوات.

لا أدري إذا كان لولا دي سيلفا قد كتب مذكراته، لأنني أتمنى أن أقرأها مترجمة إلى العربية، لكي يتعلم منها شباب بلادنا قيمة الصبر وفضيلة الكفاح وأهمية الإصرار على تحقيق الحلم، وهو ما جعل لولا يجتاز أصعب المحن حتى بعد رحيله، وعلى رأسها محنة وصول الملاحقات القضائية إلى أقرب الناس إليه، ابنه الذي تم اتهامه مؤخرًا في قضية فساد مالية، ومع ذلك ظل من يحبون لولا مخلصين في حبهم له؛ حتى تحوّل خلال إصابته بمرض السرطان إلى قديس يصلي من أجله الملايين ويباهون به الأمم، لأنه حتى وهو يترك الحكم لم يهتم بالحصول على مكاسب سياسية له ولأسرته، بقدر ما اهتم بترسيخ التجربة الديمقراطية وتأكيد نجاحاته الاقتصادية والاجتماعية، ولعلك عندما تقرأ التقارير التي تتحدث عن وجود رغبة شعبية متنامية بإعادة لولا إلى كرسي الحكم ثانية بعد أن تنهي ديلما روسيف فترتها، تدرك حجم المحبة التي نجح في غرسها في قلوب الناس؛ مع أنه لم يكن خاليًا من الخطايا؛ لكن الناس غفروا له لأنه أيقظ فيهم أهم ما يدفع الأمم إلى التقدم: الأمل.

لم يهبط لولا على البرازيل من السماء؛ بل خرج من أرضها وصنعه شعبها، ولكل شعب "لولاه" إذا أراد أن يصنعه، ولذلك نستطيع أن نصنع "لولا" يخصنا عندما ندرك أولاً أن الشعارات -أيًا كان نوعها- ستؤدي بنا إلى الخراب، وأنه لن ينقذنا من وحلتنا سوى التفكير المركب والاحتكام إلى العقل والمنطق، سيكون لنا لولا عندما ندرك ما أدركه الذين ساندوا لولا

في البرازيل، وهو أن التقدم لا يتحقق إلا بعد أن يتم دفع ثمنه غاليًا، ماذا وإلا فإننا سنظل ندفع ثمن استرخاصنا إلى الأبد.

إبريل 2013

بين مهاتير محمد ومهاترات الإخوان .. يا شعبي احزن!

مع احترامي لك إذا كنت من الذين لا يزالون ينتظرون السمنة من إيد النملة والنهضة من وش الجماعة، دعني أصدمك باعتقادي أن جماعة الإخوان غير قادرة على الاستفادة من تجربة السياسي الماليزي الأسطوري مهاتير محمد لإحداث نهضة في مصر: حتى وإن كانت راغبة في ذلك، وظني -ولا أظن أن ظني هذا إثم- أن الجماعة سعت لاستقدام مهاتير محمد من باب المهاترة السياسية التي تهدف منها للتمسح في تجارب تدّعي بها وصلاً لإنعاش مخزونها من الضحك على الذقون بالحديث عن المشروع الإسلامي الماليزي، وهو ما حاولت فعله من قبل مع مشروع أردوغان الإسلامي قبل أن يسكعها الرجل كفًّا سياسيًّا بإعلانه القاطع أنه "سياسي مسلم في دولة علمانية".. انظر كتاب (التغريبة البلالية) للإستزادة..

ولكي لا تظن أن حديثي رجم بالغيب ومصادرة على المستقبل، دعني أسألك: طيب ما الذي استفادته الجماعة حتى الآن من علاقتها الوثيقة بأردوغان وحزبه؛ مع أن العاملين بالمطار يعلمون أن الرحلات القادمة من وإلى تركيا لا تخلو أسبوعيًّا من قيادات بارزة في الجماعة تسافر إلى تركيا، وتعود من هناك تحمل أسفارًا لا تستفيد منها شيئًا، أو هذا على الأقل ما نراه من ناتج سياسات الجماعة.

سأكون أسعد الناس لو خاب ظني، واستفاد الإخوان من مهاتير محمد بأي شيء؛ لكن ذلك لن يتحقق إذا تعاملوا معه كما تعاملوا من قبل مع أردوغان ولولا دي سيلفا، بوصفهم أصحاب تجارب قابلة للتطبيق الفوري من أجل لزوم إحداث تغيير في السريع المريع لمكايدة العواذل والكارهين، ونسوا أن كلاً من مهاتير محمد وأردوغان ولولا دي سيلفا، مهما كان اختلافك مع بعض سياساتهم ومحطات حياتهم، هم أصحاب رؤى متطورة مرنة وذكية، ولكي تحقق ما حققوه من نجاح، عليك أن تنظر إلى جوهر رؤاهم قبل نظرتك إلى تفاصيلها التي ترغب في نقلها "كوبي بيست" إلى أرض واقع يحتاج هو الآخر رؤية متطورة مرنة تنبع من تعقيداته الخاصة.

قال أجدادنا في المثل العبقري "بيقولوا الغراب جاي من بلاد اللبن، قلنا كان بان على منقاره"؛ ولذلك لو كان الإخوان مؤهلين لأن يستفيدوا من تجربة مهاتير محمد لكان قد بان على منقار سياساتهم بعض من رؤاه، ولو لم يكونوا راغبين فقط في حملة دعائية يستخدمون فيها الرجل المتحمس لتغطية خيبتهم، لرأينا استفادتهم من أفكار الرجل التي سجلها في كتب بعضها مترجم إلى اللغة العربية، ومن أهمها كتاب (خطابات محاضير محمد) الذي ترجمه عمر الرفاعي وأصدرته مكتبة الشروق الدولية، والذي صدر عام 2007، والذي أجزم دون مبالغة أن قراءته وحده بعقول واعية وقلوب ذكية كانت تكفي الإخوان لكي يبان كثير من التطور والعقل على منقارهم السياسي.

قارن مثلاً بين المجهودات المذهلة التي يبذلها الإخوان منذ إصدار الإعلان الدستوري اللعين لشق الصف المصري وإشاعة مناخ الاضطراب

والفتنة، وكيف يتخذون مواقف متخاذلة في ملف خطير كملف الوحدة الوطنية، ظنًّا منهم أنهم بذلك يكسبون الأصوات المتشددة التي يعتمدون عليها انتخابيًّا.. قارن كل ذلك بما يقوله مهاتير محمد في واحد من أهم خطاباته يحمل عنوان (التكامل الثقافي)، والذي سيحزنك أن تعلم أنه ألقاه في منتدى جمعية محبي فن صلاح طاهر في الإسكندرية في سبتمبر 2004، ومع ذلك لم يستفد الإسلاميون الذين يطنطنون باسمه بحرف واحد: مما قاله عندما وصلوا الآن إلى الحكم، يقول مهاتير محمد: "ما يُمَكِّن الثقافات المختلفة في ماليزيا من أن تستمر وتتعايش هو روح من التسامح والعملية يظهرها الجميع، يعلم الماليزيون أن أي محاولة لفرض ثقافة واحدة سوف تؤدي إلى ضيق وعدم تعاون، وربما مواجهة عرقية، ستصبح الدولة في هذه الحالة غير مستقرة وغير قادرة على النمو. إننا نعتقد في ماليزيا أنه من الأفضل أن يكون لك قطعة من كعكة تكبر عن أن يكون لك كعكة كاملة تنكمش.. لقد أدى تسامح الكل لثقافة الآخر أن تصبح ماليزيا آمنة ومستقرة؛ لهذا أصبح النمو الاقتصادي سريعًا، وكبُر نصيب كل مجتمع أكثر بكثير من ثروة البلاد الاقتصادية الأصلية".

للعلم، رزق الله مهاتير محمد أيضًا في بلاده بمن يزايد عليه وينتقص من إيمانه؛ لكنه لم يلجأ إلى المواقف المائعة مع هؤلاء لكي يحصل على شعبية سياسية لدى جماهير ماليزيا التي تتحكم فيها العواطف الدينية الجارفة؛ لأنه أدرك خطورة مثل هذه اللعبة في مجتمع يوجد به أعراق وأديان مختلفة، ولم ينظر بغباء إلى حسبة الأرقام، لأنه يدرك أنه فيما يتعلق باستقرار الأوطان لا بديل عن إعلان مواقف واضحة تؤكد على أهمية الوحدة الوطنية وتطلب العدالة للجميع؛وإلا فإن التنمية تصبح

وهمًا بعيد المنال.. يقول مهاتير محمد لمن يزايدون عليه في مسألة الحدود مثلاً: "يريد البعض لأسباب سياسية أن يفرضوا نسختهم من قوانين الإسلام؛ خاصة الحدود.. سيؤدي تفسيرهم للحدود إلى الظلم للمسلمين خاصة وأيضًا لغير المسلمين.. إذن فهي ليست إسلامية وليست قوانين للحدود على الإطلاق، إن ما يسمى بحزب ماليزيا الإسلامي لا يتمنى سوى تكوين الحكومة والفوز بأصوات بادعائهم أنهم أكثر إسلامًا من المسلمين في حكومة ماليزيا.. إنهم لا يعنيهم أن يتم تشريع قوانينهم المقترحة بشكل غير سليم وأن تكون هذه القوانين غير عادلة ولا إسلامية".

وفي ختام هذا الخطاب يلخص مهاتير محمد رؤيته للتقدم في كلمات رائعة تقول: "إن وصفة التقدم هي أن يخلص الإنسان نفسه من ثقل الفكرة الحديدية داخل عقله، بإيماننا أننا نستطيع أن نفعل ما فعله الآخرون، نكون قد فزنا بنصف المعركة.. لقد وهبنا الله نحن البشر قدرة على التعلم والتفوق في أي شيء إذا كنا على استعداد للمحاولة مرة بعد الأخرى حتى ننجح.. هذه هي المعادلة الماليزية، الوصفة الماليزية للتنمية".

ومن عجبٍ أن الإخوان يحلمون بتحقيق نتائج الوصفة الماليزية للتنمية دون أن يتبعوا شرطها ويخلصوا عقولهم من أثقال الأفكار الحديدية، وهو عشم مشروع؛ لكنهم سيكتشفون مع الوقت أن عشمهم في النهضة من غير اتباع شروطها يشبه عشم إبليس في الجنة من غير مؤاخذة.

طيب، بما أني حدثتك من قبل عن المثل الذي حكى فيه أجدادنا عن الغراب الذي يدّعي قدومه من بلاد اللبن، لا أظنك تحتاج إلى أن تكون خبيرًا في حياة الطيور أو حتى تاجر دواجن لتدرك أن الغراب لن يصبح طاووسًا لمجرد أنه عقد مؤتمرًا استضاف فيه الطاووس ووقف إلى جواره

نافشًا ريشه، متخيلاً أن ذلك سيجعل ريشه الأسود الكئيب يشبه ريش الطاووس الزاهي المبهج. لا تملك الطيور عقلاً كالذي كرّم الله به الإنسان، ومع ذلك لن تجد الغراب مشغولاً بتقليد الطاووس بقدر انشغاله بتأمين نفسه من مخاطر الدهر وتطوير إمكانياته لتلبية احتياجاته اليومية.. ومع أن الغراب كان الوسيلة التعليمية الأولى التي أرسلها الله للإنسان ليعلم القاتل قابيل كيف يواري سوءة أخيه هابيل؛ فإن قادة الإخوان لم يتعلموا من الغراب إلا قدرته على النعيق بشعارات يرددونها برتابة غبية لو سمعها هابيل لانتحر كمدًا ووفّر على قابيل مؤونة قتله.

مبدئيا، صحيح أنك لكي تُحدث فارقًا في حياة شعبك، يمكن أن تلجأ إلى شعار براق تتمركز حوله جهودك؛ لكنك إذا لم تكن تمتلك الرؤية التي تحول الشعار إلى واقع، سيصبح ذلك الشعار عبئًا عليك وأداة للنيل منك وفضح عجزك وتجريس فشلك.

ومهاتير محمد الذي يتمسح به الإخوان الآن رفع بالفعل شعارًا براقًا عندما تولى الحكم عام 1981، لأنه أدرك أن الماليزيين يجب أن يتمتعوا بالثقة في أنفسهم؛ فلا يمكن أن تحدث تنمية شاملة دون ثقة في النفس، ولذلك أطلق شعار "ماليزيا بوليه" أو "ماليزيا تستطيع"، ولأنه رجل ذكي وصاحب رؤية؛ فقد أدرك أن الانتصارات الصغيرة ستساعده على جعل هذا الشعار جزءًا من وجدان البسطاء؛ فقرر أن يشجع مبادرات فردية لا تكلف خزينة الدولة الكثير، مثل تشجيع رياضيين ماليزيين على تسلق قمة جبل إيفرست، والهبوط بالمظلات على القطب الشمالي، وعبور المانش.. وكلها أمور لا تناسب الطبيعة الشخصية لبلد يقع في المنطقة

الاستوائية؛ فقط ليشعر الماليزي أنه جزء من العالم وليس محصورًا داخل بلده فقط.

أذكر أن الدكتور أحمد زويل حكى لي أنه عندما التقى بمهاتير محمد قال له:إنه قرر بمجرد توليه الحكم أن يبني برجين عملاقين في قلب العاصمة الماليزية التي لم تكن متعودة على مثل تلك الأبراج؛ لأنه رأي أن مجرد انتصاب البرجين الضخمين أمام أعين الناس واتخاذهما مركزًا للتجارة والأعمال سيصبح رمزًا يجسد أحلام الماليزيين في مستقبل مختلف عما ألفوه.

تعال نترك مهاتير قليلاً ونتأمل في الإخوان الذين حكموا شعبًا يتمتع بثقة جبارة في نفسه استمدها من إطاحته بعرش ظالم حكم البلد ثلاثين عامًا فأكثر فيها الفساد، وبرغم أن بعض المصريين سبق لهم تسلق قمة إيفرست وعبور المانش والذهاب إلى القطب الشمالي وصعود برج القاهرة؛ إلا إن الإخوان -وفي أقل من عام- قضوا على ثقة الكثير من المصريين بأنفسهم، وبددوا مخزون الطاقة الإيجابية الذي نجوا به من بواخة الفترة الانتقالية.. وبسبب كذب محمد مرسي على ناخبيه وإخلافه لوعوده وترديه في هاوية الخطايا السياسية منذ أصدر إعلانه المفرق للمصريين، أفقدوا شركاء ميدان التحرير الثقة في بعضهم لتتحول خلافاتهم السياسية إلى عداوات ملوثة بالدماء، ولم يقدم الإخوان بعد كل هذا مبادرة واحدة تثبت جديتهم في الاعتراف بالخطأ والرغبة في تصحيح المسار وإمكانية الاستماع للناصحين؛ بل تمترسوا خلف عقلية الإنكار وهوس المؤامرة وروح المكابرة الشيطانية؛ ليبدو أن الدرس الوحيد الذي خرج به

الإخوان من كل قصص القرآن عن فرعون اعتناقهم لصيحته الشهيرة "ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد".

وكما توقعت، لقد سكع مهاتير محمد الإخوان على قفاهم السياسي عندما حذر من الاستماع لنصائح صندوق النقد ومن أوهام الصكوك الإسلامية، ومع ذلك لا أظن أن الإخوان سيأخذون بنصائح مهاتير وتحذيراته؛ فلو كانوا جادين في الإصلاح لنفّذ "مرسيهم" وعده الانتخابي باختيار رئيس وزراء قوي يكون محل توافق بين القوى الثورية؛ لكنهم لم يكتفوا بإخلاف الوعد بل ظلوا متمسكين برئيس وزراء يقبل على نفسه دور الشخشيخة السياسية، وهو ما حذر منه مهاتير محمد في خطاب شهير له عن (القيادة الآسيوية) ألقاه عام 2004 شارحاً رؤيته السياسية التي تتناقض تمامًا مع هوس الإخوان بالصناديق واعتبارهم أنها الطريق الوحيد للتقدم دون إدراك أن ديمقراطية الصناديق لا قيمة لها دون حماية حقوق الأقليات ودون التمسك بأداء سياسي عملي مرن يحقق الاستقرار كشرط مبدئي لإنجاح أي خطة تنمية.

يقول مهاتير في خطابه: "قد لا ينتج عن الانتخابات وصول أفضل المرشحين إلى السلطة، من الممكن للرشوة والبلطجة والتطاول بالكلام والخداع باسم الدين والمحسوبية بالإضافة إلى أساليب دنيئة أخرى أن تأتي بالنصر لأقل المرشحين أهلية لقيادة الدولة.. فنرى كيف يطلق حزب حملته خلال صلاة الجمعة الجامعة وفي كل صلاة جامعة، وتهدد مكبرات الصوت بكراهية الحكومة التي يعارضونها، يظن البعض أنه يجب أن يتم تجاهل ذلك؛ ولكن الكراهية التي يدعون إليها والخوف من سوء العاقبة في الآخرة يؤثر على الجماهير عميقة التدين، فيدلون بأصواتهم لمن ليس

لديه القدرة على القيادة ولكن لمن هم محتالون بدرجة تكفي لخداع الناخبين.. ومع وجود كل تلك الأحزاب المتنافسة ومع الرشوة والتطاول بالكلام والخوف فمن المستبعد أن ينتج عن انتخابات ديمقراطية حكومة قوية يقودها قادة أكفاء. وعندما تكون الحكومات ضعيفة فلا يمكن حتى لقادة أكفّاء أن يحققوا نتائج".

يمكن أن تختلف مع رؤية مهاتير محمد وترد عليها بتجارب دول أخرى نجحت الديمقراطية بكل عيوبها أن تغير حياة شعوبها، كما أسلفت من قبل بالكتابة مرارًا عن تجربتي البرازيل وتركيا؛ لكن هل يجرؤ الإخوان على أن يذيعوا على جماهيرهم كلام مهاتير عن الدور السلبي للشعارات الدينية في إعاقة التقدم ومنع النهضة؟ وهل يعتقدون أن قدرتهم على استغفال الناس بالشعارات الدينية ستدوم إلى الأبد؟

ستجد الإجابة على كل هذه الأسئلة في قول الشاعر:

لكل داء دواء يُستَطبُّ به *** إلا الحماقة أعيت من يداويها

مايو 2013

ناهيا أقرب من كرداسة..
وبين السرايات أقرب من أثيوبيا!

ما الذي يمكن أن تفعله معنا سخرية الأقدار أكثر من اختيارها للأيام التي نستقبل فيها ذكرى هزيمة الخامس من يونيو 1967 لكي تُدخلنا في تجربة كتجربة سد النهضة الأثيوبي الذي نشف ريق المصريين قبل الأوان بأوان.

نحن لم نقرأ درس هزيمة يونيو جيدًا منذ وقع، ولم نتعلم من أخطائه؛ ولذلك ليس عجيبًا أن تنبعث الآن دعوات الهجايص لمواجهة السد الإثيوبي بأفكار من نوعية "اغضب ياريس" و"أعلنوا الجهاد على إثيوبيا"، و"عبد الناصر لو عايش كان وقف أثيوبيا عند حدها" و"الله يرحمه السادات فاكرين لما ضرب أهل الحبشة على قفاهم" و"فين أيام مبارك لما هدد إنه يضربهم بالطيارات"، وما إلى ذلك من دعوات يختلف رافعوها تمام الاختلاف عن بعضهم ومع بعضهم؛ لدرجة أنك لا يمكن أن تجمعهم في غرفة واحدة دون أن يضربوا بعضهم بالنعال، ومع ذلك فجميعهم يشتركون في الاعتقاد الشعبي الأكثر شيوعًا لدينا بأن مصر أم الدنيا المحروسة التي ستظل تحظى دائمًا بمعاملة خاصة "لأن فيها شيء لله؛ ولذلك تفوت عليكي المحن، يمر بيكي الزمان، وإنتي أعلى مكان"، وهو اعتقاد لا يصلح للتطبيق خارج نطاق إذاعة الأغاني، ولن نتقدم خطوة إلى الأمام إلا بعد أن نتخلص منه تمامًا؛ فندرك أن ما يسري على غيرنا من الشعوب من قوانين الكون سيسري علينا بالضرورة؛ لأننا لسنا شعب

الله المختار. والكون ليس ملكًا لنا لمجرد أننا كنا أول حضارة نشأت على أرضه.

تعال نتكلم بصراحة بعيدًا عن الطنطنات والعنتريات، وقل لي كم شخصًا تعرفه يطلق تعبيرات عنصرية مهينة على الأفارقة من نوعية "..."، ولا بلاش فأنت تعرف هذه التعبيرات جيدًا وتعرف أنك بنفسك تستخدمها من حين لآخر ولو على سبيل الدعابة التي تظنها بريئة.. لكي لا أبرئ نفسي من ذلك العيب دعني أخبرك أنني كتبت سلسلة مقالات في صحيفة المصري اليوم عام 2009 أعتذر فيها عن سخريتي فيما سبق من ذوي البشرة السوداء؛ يومها حاولت على قدي أن أفتح ملف التعامل العنصري الذي نمارسه مع إخواننا الأفارقة كأن الدماء الزرقاء تجري في عروقنا. ولم أكن أعلم وقتها أن عدالة السماء التي لا تنزل فقط في ستاد باليرمو ستعطينا الآن درسًا بليغًا، هو أن من تموت ضحكًا عليه وسخرية منه واستهانة به يمكن أن يكون سببًا في موتك عطشًا؛ فهل نعتبر أم لا؟ وهل تكون هذه الأزمة بداية لمراجعة شاملة ليس فقط لأبسط سلوكياتنا مع شركائنا في القارة الأفريقية؛ وإنما لتعاملنا مع الكون بشكل عام؟

"الحكاية مش حكاية سد"؛ بل حكاية كل شخص منا يعتقد أن دور البطولة في الدراما الكونية محجوز لنا بالضرورة لكي نستمر في لعب دور بطل القارة المرح الذي لا يكف عن إطلاق الغازات الفكرية والتغني بشعارات أستاذية العالم على الطريقة الناصرية أو الإسلامية أو الفرعونية؛ مفترضًا أن على جيراننا الأفارقة أن يستمروا في لعب دور الكومبارس أو السنّيد في أحسن الأحوال؛ فإذا رفضوا وقرروا أن يصنعوا لأنفسهم قدرًا مختلفًا لا يعبؤون فيه باحتياجاتنا، كان أول ما نفكر فيه

أن نضربهم بالطائرات، ثم عندما نكتشف أن ذلك غير متاح بالسهولة التي كنا نظنها، نبدأ في تمزيق ثياب بعضنا البعض وأصواتنا تعلو بالشكوى من المؤامرة الإسرائيلية الصينية القطرية الإيرانية الأمريكية التي تستهدف تركيعنا وتعطيشنا وتجويعنا، دون أن يسأل أحدنا نفسه عما فعله لإيقاف هذه المؤامرة منذ وعى على الدنيا، ولماذا كنا دائمًا مشغولين بالفوز بكأس أفريقيا أكثر من انشغالنا بأن يكون لنا مصالح حقيقية في أفريقيا التي نمتلك منذ عشرات السنين معهدًا متخصصًا في دراساتها في قلب جامعة القاهرة.

أتحدى أن يكون مسئول واحد طيلة الثلاثين عامًا الماضية قد قام بتطبيق توصيات رسائل الماجستير والدكتوراه التي يقدمها المعهد كل عام: فلو فعلوا ذلك لما كان حالنا كما لا يخفى عليك، ولما أصبحت الأصوات التي نسمعها لحل الأزمة الأثيوبية متنوعة بين شرسين يطالبون بسحق أثيوبيا لتلزم حدودها وتعرف هيّ بتكلم مين، و"طيّوبين حبّوبين" يوصون بمنح مساعدات لأثيوبيا ولعموم الأفارقة لكي نستعيد ريادتنا في أعينهم فيقولوا لنا "آسفين يا مصريين إننا فكرنا نتطاول عليكم مع إنكم أسيادنا، وخير زعمائكم من محمد علي إلى عبد الناصر مغرّقنا".

مع الأسف أغلبنا لا يدرك إلى أي حد تغيرت أفريقيا عن الصورة التي سكنت وجداننا بفضل فيلم (عماشة في الأدغال) وما شابهه، وهو تغيير يمكن أن تعرف بعض ملامحه بقراءة كتاب (نهوض أفريقيا) الصادر عن الدار العربية للعلوم، والذي كنت قد اخترت قبل أربعة أعوام أن يكون الكتاب الأول الذي أعرضه في برنامج (عصير الكتب) طيّب الله ثراه، حيث طلبت يومها من الروائي والدبلوماسي عز الدين شكري أن يقرأه ويشاركني

في عرضه للمشاهدين، وكان أبرز ما حاولنا إيصاله لكل من يهمه الأمر أن أفريقيا لم تعد ذلك المكان الذي نحسن إليه أو نتعالى عليه؛ بل إنها أصبحت سبيلاً إلى خلاصنا الاقتصادي، لا يصح أن نتأخر عن الاهتمام به لحظة واحدة.. بالطبع لم يفرق ما قلناه ببصلة مع أحد؛ لأن الدولة التي لا تهتم بدراسات يصدرها معهد تنفق عليه من ميزانيتها، لن تهتم قطعًا ببرنامج يتحدث فيه اثنان من المغرضين الحاقدين.

ستسألني: ما هو الحل ياسيدي، هل لديك كلمة حلوة تقولها بعيدًا عن التقطيم فينا وتقليب المواجع علينا؟ سأجيبك ببساطة: حل أزمتنا مع أثيوبيا موجود على حدود (بين السرايات)؛ حيث يقع حرم جامعة القاهرة الذي يضم بداخله معهد الدراسات الإفريقية الذي أنشأناه ونسيناه، تمامًا كما نسينا أفريقيا ظنًّا منا أنها لن تجرؤ أبدًا على تهديد مصالح أسيادها حاملي أكبر عدد من ألقاب كأس الأمم الأفريقية، وأنهم لو فعلوا كما فعل الأثيوبيون فآخرهم معانا شوية طيارات أو شوية معونات.

أي تحرك لحل أي أزمة لا يقوم على أساس من المعرفة والبحث العلمي والتفكير العقلاني سيودي بنا إلى مزيد من الهزائم التي ندلعها ونسميها نكسات، ومن ليس له خير في بين السرايات لا يصح أن يرتجي الخير من أثيوبيا.

يونيو 2013

السيد الرئيس المؤمن.. محمد أنور بوتين!

صدقوا كتاب الموالسة المنبثين في الصحف القومية عندما يقولون لكم إن شمس الرئيس مبارك تسطع على العالم وأن فكره يملأ جنبات الأرض وكنباتها، وأن البشرية لو اتبعت منهجه السياسي الفذ لانصلح حالها وانعدل بختها وانسد خرم أوزونها. صدقوهم فليس عيبًا أن نعترف بخطأ تكذيبنا لهم عندما نكتشف ذلك؛ بل إننا يجب أن نفاخر في "المنتئة" أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أعلن اعتناقه الفكر المباركي وصار بحمد الله واحدًا من تلاميذ رئيسنا وقائدنا الرئيس التاريخي الضرورة النيسيسري. أيوه فلاديمير بوتين ماغيره.

أنا ياسادة مثلي مثل أغلبكم كنت أعتقد منذ زمن بعيد أن مصر تخلت عن اتخاذ الروس -خلفاء السوفييت- قدوة ونبراسًا. منذ طرد السادات الخبراء الروس من مصر وأعلن أن 99% من أوراق اللعبة بيد أمريكا، ووصولاً إلى تفاخر إعلامنا باصطحاب الرئيس بوش للرئيس مبارك إلى مزرعته كأول رئيس يحظىٰ بهذه المعزة -من الإعزاز طبعًا لكي لاتُقرأ الكلمة خطأ عند ربطها بالمزرعة.

لكنني الآن أدرك وليس عيبًا أن أغير إدراكي أن الهوى الروسي لا يزال مسيطرًا علينا، وأنه قد يكون حبًّا قليلاً لكنه لا يزال صالحًا للتوهج في وجدان من يحكموننا؛ بل إن الأمر يمكن أن يكون قد تطور وتعقد إلى حد سيطرة الهوى المصري على روسيا نفسها. لم أكتشف ذلك بالمناسبة

أثناء الزيارة التي خص بوتين بها مصر منذ عدة أسابيع بعد أكثر من 50 عامًا انقطع فيها الزعماء السوفيت ثم الروس عن زيارة مصر، وهو ماجعل مصر تحتفي ببوتين وتصر على أن تعشيه في قلب القاهرة أوعلى قلب سكان القاهرة بمعنى أصح.. بل اكتشفته خلال مشاهدتي مؤخرًا لمقابلة حصرية للرئيس بوتين مع برنامج 60 دقيقة، أشهر البرامج السياسية الأمريكية وأكثرها تأثيرًا والذي يذاع بانتظام وتعاد حلقاته المهمة على قناة (إم بي سي فور) وأنصحكم أن لاتفوتوا حلقة منه.

الانطباع الأول الذي لاحظته في المقابلة هو ذلك القدر من الحرية الذي حظي به مذيع البرنامج المخضرم في حواره مع بوتين الذي تحمّل أسئلته المحرجة؛ بل وتحمل تصحيح المذيع معلومات مغلوطة له؛ بل ووصل الأمر إلى حد قيام مذيع البرنامج بمقاطعة بوتين أكثر من مرة وبشكل ساخر، وانتهى الأمر بأن طلب من بوتين أن يوجه كلمة للشعب الأمريكي بالإنجليزية، وعندما أراد بوتين أن يفعل ذلك بالروسية قاطعه المذيع وطلب منه أن يتحدث بالإنجليزية، وكان له ماأراد.

ذكرني ذلك طبعًا بصبر الرئيس مبارك على المذيعين الأجانب في حواراته معهم والتي تجيء دائمًا حوارات كاملة الدسم -مع أن مذيعيها ليسوا بدسامة عماد أديب- حوارات حافلة بالمعلومات التي تذاع لأول مرة وبالمفاجآت الحقيقية؛ لأن مذيعيها يقومون بما تمليه عليهم واجباتهم المهنية وليسوا مشغولين بالحصول على مكاسب من الدولة أو نفاق رئيسها، ولو اضطر الأمر فإنهم من الممكن أن يحرجوا الرئيس ويصححوا له بعض مايقوله، ويقاطعوه عند اللزوم ليطلبوا منه عدم الخروج على الموضوع.

تأكد لي انطباعي بمدى كوننا نحكم بمنهج بوتيني، أو بكون روسيا تحكم بمنهج مباركي، لست أدري فالحكم لكم، عندما سأل مذيع البرنامج بوتين بلهجة صريحة قاطعة "الفساد يملأ روسيا.. تريد شقة هات فلوس أعطيك شقة.. تريد أي شيء من الحكومة تنجزه بالفلوس.. هذه حقيقة قالها لي أصدقائي الروس أنهم مشمئزون من الفساد الموجود في روسيا.. ألا ترى ذلك صحيحًا سيدي الرئيس؟ الفساد يملأ روسيا".

تخيلوا ماذا كانت إجابة بوتين! لن يكون صعبًا عليكم تخيل الإجابة لأنكم سمعتموها كثيرًا وحفظتموها كمان، قال له بوتين بلسان مباركي مبين: "ولماذا لم تسأل أصدقاءك الأمريكيين عن الفساد في أمريكا" ثم سكت، أي والله سكت.

تكرر المنهج البوتيني المباركي المشترك في التفكير السياسي عندما سأل مذيع البرنامج بوتين: هل هناك من يعارضك؟ قال له: نعم، قال له ساخرًا: أين؟ قال له في كل مكان في الصحف ومحطات التلفزيون والشوارع، لم يقتنع المذيع وسأله كيف يتحدث عن حرية الصحافةفي ظل سيطرته على أهم ثلاثة محطات تلفزيون خبرية في روسيا؟ ولم يكن ينقص بوتين سوى أن ينطق بلسان عربي مبين: لأن إجابته جاءت عربية جدًّا ومباركية خالص، قال له بوتين: ولماذا لاتتحدث عن حرية الصحافة في أمريكا، وعن أهم مذيعين يتم استقالتهم بسبب موقفهم من العراق ومن الانتخابات؟

استغرب المذيع لأن الرئيس لم يكن يعلم أنه كان يتحدث عن زميله المذيع المخضرم دان راذر الذي، لا يزال -برغم استقالته من منصبه- كبير مذيعين بسبب خطأ مهني وقع فيه؛ لكنه لا يزال يعمل في برنامج 60

دقيقة كمضيف للبرنامج.. قام المذيع بتصحيح المعلومة لبوتين الذي اكتفى بهز رأسه وصمت، ولعله أعدم من نقل له هذه المعلومة بعد البرنامج.

بوتين تحدث أيضًا بالنص عن "خطأ تصدير الديمقراطية الذي تقوم به أمريكا، وأن الديمقراطية لابد أن تكون نابعة من التطور الوطني داخل كل بلد".. شايفين الحلاوة ياولاد، إزاي فكر الرئيس مبارك وصل روسيا؛ بل إن المذيع عندما سأله ساخرًا وبالحرف الواحد: "في الماضي كان حكام الأقاليم يأتون بالانتخاب والآن أصدرت قرارات بتعيينهم، كيف يمكن أن تكون هذه ديمقراطية، على الأقل هذه ليست الديمقراطية التي أعرفها؟". لم يهتز لبوتين جفن وقال له: "لا.. هذه ديمقراطية وأنت تعرف أنها ديمقراطية؛فالديمقراطية لاتعتمد على هذا فقط.. لماذا لاتتحدث عن الديمقراطية في الهند التي هي أكبر ديمقراطية في العالم، وتقوم بتعيين حكام الأقاليم؟ هل تشكك في ديمقراطية الهند؟".

أشعرتني الإجابة أن الدكتور فتحي سرور يقف وراء الكاميرا ليقترح على بوتين إجابة جهنمية مثل هذه؛فمن غير فتحي سرور يمكن أن يتأسى بالهند وإندونيسيا لضرب الديمقراطية من الداخل.

الحقيقة أن بوتين عندما استرسل في الإجابة شككت في أنه إلى جوار فتحي سرور يقف صفوت الشريف وسمير رجب ومحمد عبد المنعم وباقي أفراد عصبة خليك هنا خليك بلاش تفارق؛ فقد انتقد بوتين الديمقراطية الأمريكية وقال للمذيع: "نحن أكثر ديمقراطية منكم؛ فأنتم تنتخبون المنتخبين الذين يقومون بانتخاب الرئيس؛ بينما الرئيس لدينا يُنتخب من قِبَل الشعب في انتخابات مباشرة حرة؛ لكننا لاننتقد نظامكم

الديمقراطي لأن تغييره بيد الشعب الأمريكي وحده". والله هذا نص ماقاله، وحاشا لله أن أدس على كلام بوتين كلامًا مقتطعًا من حوار للرئيس مبارك؛ فليس هذا من شيم المواطن الصالح.

الغريب أن بوتين فعل مثل مايفعل حكامنا؛ وجه انتقادات لاذعة لغزو أمريكا للعراق، وقال إنه نصح بوش بعدم فعل ذلك.. برضه بوتين بيحب النصيحة بس ماقالش إذا كان بيبعت جوابات برضه؛ لكنه قال في نفس الوقت إن أمريكا سترتكب خطأ أكبر لو تركت العراق الآن - مش ممكن ياجماعة- ثم كال المديح لبوش وقال إنه شعر منذ أول لحظة عندما رآه بأن روحيهما التقتا، وأنه رجل يعرف مايقوله وينفذه بكل ثقة، وعندما سأله المذيع بلمزة سخرية:"هل تلاقت روحك معه من أول نظرة لأنك متدين؟"، قال له:"نعم ولابد أن يكون داخل كل شخص إيمان"؛ فقال له المذيع:"حتى بعد غزوه للعراق الذي حذرته منه؟"، قال له بوتين:"هو يعرف مايفعل ونظرتي له من الانطباع الأول لم تخب".

إذن فالرئيس المؤمن بوتين مثلنا ينتقد أمريكا ويمدح رئيسها، يرفض حديثها عن الديمقراطية؛ لكنه يعتز بصداقة رئيسها، كلما سأله أحد عن أي شيء سواء كان الفساد أو حرية الصحافة أو الإرهاب ترك الموضوع وتحول للحديث عن أمريكا وانتقادها ليقول لشعبه ياشعبي لست وحدك في ماأنت فيه من فساد وضنك وفقر.

أين تعلم بوتين هذا المنهج الذي كان حكرًا علينا؟ وهل هذا هو سر زيارته لمصر في هذا التوقيت الذي تزداد فيه الضغوط الأمريكية عليه لمطالبته بتحقيق الإصلاح السياسي؟ هل جاء إلى مصر خصيصًا لكي ينهل من مصرف ديمقراطيتنا العريقة، ويستفيد من منهجنا السياسي الذي

يُرَقّص أي إصلاح على "مادة ونص" ويلعب التلات ورقات مع أي تحديث؟ هل تم الاتفاق على تعميم هذا المنهج في البلدين خلال الاتفاقيات التي وقعت في الزيارة الأخيرة؟ ليس لدي إجابات واضحة على أسئلة كهذه؛ فالأمر يحتاج إلى مراجعة حوارات بوتين السابقة لمعرفة كيف كان يتحدث قبل هذا الحوار الذي أجري معه عقب زيارته لمصر،وهي مهمة قد يساعدنا فيها الصديق الكاتب المتميز أشرف الصباغ المقيم في موسكو، ولو ثبت لنا بعد مراجعة تلك الحوارات أن ماقاله بوتين هو نبرة جديدة على خطاب بوتين السياسي لحقّ لنا أن نطالب بحقوق الملكية الفكرية الفرعونية، ولحقّ لنا أن نفخر بعالميتنا وتأثيرنا على بلد عريق مثل روسيا لم يكن يعرق كثيرًا بسبب برودة الطقس؛لكننا بحمد الله عرّقناه بعراقتنا الديمقراطية، ومش كده وبس، لاده إحنا دهنّا الهوا بوتين.

2005

صحافة عن صحافة تفرق!

ياعيب الشوم، لدينا عشرات القنوات الفضائية ومئات الصحف والمجلات وآلاف الأبواق الإعلامية التي تغطي سقف وأرضية وحيطان العالم العربي، ومع ذلك لا تزال الصحافة الأجنبية وحدها الأقدر على نشر أسرار وأخبار قادتنا وزعمائنا.

منذ أيام نشرت مجلة (الإيكونوميست) تقريرًا خطيرًا عن مستقبل الخلافة في مصر في ظل ما أسمته "تطورات صحة الرئيس مبارك"، مع الأسف لن تجرؤ صحيفة مصرية على نشره كاملا بدون تصرف أو حذف أو تخفيف، ولو فعلت لرفعتُ لها القبعة ثم قرأتُ لها الفاتحة تضامنًا. وفي حين تعيد صحافتنا الحكومية نشر أي "بُقّ إيجابي" تنشره الصحف العالمية مصحوبًا بالطبل والزمر، هاهي تتجاهل الإشارة إلى تقرير (الإيكونوميست) ولو حتى من باب تفنيده وتنبيه قادة البلاد إلى خطورة تجاهله على الاقتصاد القومي؛ خاصة وقد نشرته أهم مجلة اقتصادية في العالم.

في نفس الأسبوع نشرت مجلة (نيو ستيتمنت) الإنجليزية الرائعة تقريرًا ضخمًا وخطيرًا عن القواعد العسكرية الأمريكية في العالم وعلى رأسه طبعًا العالم العربي؛ في نفس الوقت الذي كان بعض المسئولين العرب يتباهون برفضهم للقواعد العسكرية الأجنبية. والتفاصيل التي نشرتها

المجلة تدعو للفزع والخجل، وبالطبع لن يجرؤ أحد في الوطن العربي على نشرها أو حتى التعليق عليها لأسباب لا تخفى على فطنتك أو حتى غفلتك.

قبلها وعلى مدى أسابيع متفرقة نشرت صحيفة الصانداي تايمز الشهيرة تقارير مفزعة عن حكامنا العرب لم نسمع لها ركزًا في صحافتنا. خذ عندك مثلاً قصة عن زعيم كبير رفع قضية على صحيفة أوغندية كشفت علاقته العاطفية الملتهبة بأرملة ملك إحدى الممالك الأوغندية؛ لدرجة أنه اشترى لها طيارة خاصة بأموال الشعب الزاحف.

قصة أخرى عن حاكم إمارة عربية اشترى في منطقة دلهام البريطانية مساحة كبيرة من الأرض تشمل مزارع وغابات و39 منزلاً بمبلغ 45 مليون جنيه إسترليني؛ وهذا يُعد رقمًا قياسيًّا في تاريخ العقارات في بريطانيا؛ كل ذلك لكي يضمها إلى منطقة أملاكه المجاورة التي تبلغ 3 آلاف أكر من الأراضي الزراعية؛ وذلك لكي يستمتع هو وأصدقاؤه بالصيد خلال إجازاته.

بعدها بثلاثة أسابيع نشرت الصحيفة تحقيقًا مطولاً عن الدعارة في تلك الإمارة العربية التي تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية على أي شخص عربي يختلي بسيدة خلوة تعتبرها السلطات غير شرعية؛ بينما تغض الطرف عن نوادي الدعارة المخصصة للأجانب والتي يتم فيها استقدام فتيات من الجمهوريات الإسلامية التابعة سابقًا للاتحاد السوفييتي.. تحدثن لمراسل الصحيفة عن ظروفهن التي جعلتهن يلجأن للعمل في الدعارة، وأجمعن كلهن على أنهن لا يفضلن العمل مع العرب لجلافتهم وتعاملهم السادي وغير المتحضر معهن أثناء المعاشرة (هكذا بالنص).

لم تفزعني الفضائح التي نشرها التقرير؛ فقد استمعت قبله إلى حواديت كثيرة عن الدعارة في دول كثيرة تخفي عن مجتمعاتها خلف أقنعة زائفة من التدين.. ما أفزعني حقًّا تقرير خبري نشرته الصحيفة نقلاً عن قادة المخابرات الإسرائيلية حول اتفاق عقدته إسرائيل مع دولة عربية كبرى لكي توفر هذه الدولة لإسرائيل ممرات جوية آمنة خلال أي ضربة إسرائيلية متوقعة للمنشآت النووية الإيرانية؛ وذلك بعد لقاءات عقدها رئيس الموساد الحالي مائير داجان مع مسئولين في هذه الدولة، سبقتها لقاءات سرية عقدها إيهود أولمرت قبل رحيله مع مسئولي تلك الدولة، التي تملك سفارتها في لندن بالتأكيد اشتراكًا في الصنداي تايمز؛ ومع ذلك لم ينبس مسئول فيها ببنت شفة ردًّا على مانشر.

قبلها بأسبوع كانت مجلة النيوزويك الأمريكية قد نشرت تقريرًا عن الانتخابات اللبنانية الأخيرة قال فيها مسئول بهاتيك الدولة لمحرر المجلة متبجحًا أن بلاده أنفقت على من تساندهم في الانتخابات اللبنانية أضعاف ما أنفقه أوباما على حملته الرئاسية، ولم يجرؤ أحد على تكذيب مانشر.. وطبعًا لم يطالب أحد بمحاسبة الذين ذهبت إليهم تلك الأموال المشبوهة في لبنان.

ستسألني: لماذا تلوم الصحافة العربية على صمتها وجُبنها إذا كنت نفسك قد جَبُنت عن ذكر أسماء الدول العربية التي تحدثت عنها الصحف الأجنبية؟

صدقني لم أمتنع عن النشر جُبنًا أو عجزًا؛ بل لأنني أعرف أنه حتى لو جُنّت إدارة تحرير هذه الصحيفة وطاوعتني في النشر؛ فلن أدفع أنا والصحيفة فقط ثمن النشر؛ بل سيدفع ثمنه معنا وقبلنا المواطن

المصري الذي يعمل بشرف وكَدّ في تلك الدول العربية، والذي يستأسد عليه حكامها كلما نشرت الصحافة المصرية مايضايقهم؛ بينما لا يجرؤون مثلاً على مس شعرة من رأس بريطاني كلما فضحتهم صحافة بلاده.. والمشكلة أن العيب ليس في حكام تلك الدول؛ بل في حكامنا الذين لم يعملوا لنا سعرًا كالذي عمله حكام بريطانيا لمواطنيهم وصحافتهم. ولاّ كلامي غلط؟

2008

أوباما في صفط اللبن!

ماذا لو قرر الرئيس الأمريكي باراك أوباما أن يغير غدًا خط سيره إلى جامعة القاهرة التي سيلقي منها خطابه إلى العالم الإسلامي؛ فيقرر عبور كوبري ثروت ليحط الرحال بـ(أبي أتاتة) و(صفط اللبن) الملاصقتين لجامعة القاهرة؟.

سؤال نميس طرحه صديقي عماد الدين حسين في عموده بجريدة الشروق؛ فكان سببًا لأن أجدد العهد بـ(أبي أتاتة) و بـ(صفط اللبن) بعد انقطاع دام منذ نهاية سنوات الدراسة الجامعية الغراء.. كنت راغبًا في أن أشاهد التغييرات التي ستحدثها أجهزة الدولة في المنطقة تحسبًا لذلك الافتراض الخبيث؛ لكنني اكتشفت أن الدولة قررت أن تكتفي بزيارة أجهزة الأمن المختلفة للمنطقة التي يدعو سكانها على اليوم الذي قرر فيه أوباما أن يزور جامعة القاهرة؛ ليس كراهية منهم لطلعته البهية؛ بل لأنهم يعلمون أنه لو فرقعت أنبوبة بوتاجاز خلال تواجده بالقرب منهم سيكون يومًا أسود على كل ربة بيت ورب أنبوبة منهم.

قال لي صديق صفط لبني متندرًا: إن أهالي المنطقة المحيطة بجامعة القاهرة من بين السرايات وإنت طالع حتى أول فيصل، ومن صفط اللبن وإنت نازل حتى جنينة الأورمان، سيتم منعهم وقت الزيارة من إطلاق الروائح المسموعة والمشمومة؛ لكي لا تلتقطها أجهزة الأمن الأمريكية العاتية في حال انطلاقها صدفة أو بعد تخطيط مسبق؛ فاكتشفت أن

صديقي وكل من سألتهم قلدوا أجهزة الدولة في عدم أخذ افتراض عماد بجدية؛ ربما لأن عماد العابث لم يطرحه أساسًا بجدية؛ بينما لو تتبع الجميع أخبار أوباما منذ تولى الحكم لعرفوا أن افتراض اقتحامه لصفط اللبن أقرب مما نتصور؛ فالرجل معروف بحبه لكسر الجداول المُعدّة له سلفًا دون اكتراث بالإجراءات الأمنية.. فعل ذلك مرارًا وتكرارًا، آخرها ماشاهدته على برنامج "إنسايد إيديشن" الشهير الذي تبثه قناة (إم بي سي 4) حين زار أوباما فجأة مطعم برجر شعبي في واشنطن؛ ليفاجأ الرواد به وسطهم ينتظر دوره للحصول على سندوتش برجر خس زيادة ومن غير مايونيز.. قلت في عقل بالي وأنا أشاهده: ماذا لو ضربت في دماغه خلال زيارة جامعة القاهرة وقرر أن ينعطف يمينًا لكي يضرب سندوتش سجق أو طبق مكرونة فرن عند (صبري)، أشهر مطعم يعرفه طلاب جامعة القاهرة جيلاً وراء جيل! لن أشكك في قدرة حريفة صبري على منافسة "الاستاندارد" الأمريكي؛ لكن لحم أكتافي الذي ربرب بفضل سندوتشات صبري يجعلني أتمنى ألا يحدث ذلك الافتراض لأن إصابة أوباما بأي انتفاخ لن تكون في مصلحة صبري ولا سندوتشاته ولا مصلحة مصر كلها.

بالأمس نبهني صديق "أبو أتاتي" إلى أن نظام الحزب الوطني المبارك أنمس من كل الافتراضات، وأنه طنّش افتراض عماد ليس نكاية في شخصه؛ بل لأنه قادر على أن "يتعامل" مع أي تغيير أوبامي مثلما تعامل مع أي أمل في التغيير طيلة الثلاثين سنة الماضية التي عدت علينا كده -تخيل الإشارة التي أقصدها بمعرفتك- وكما أقنع النظام أوباما أن من سيحضر خطابه هم صفوة العقول المفكرة الحرة؛ مع أنه لن يحضره أحد لو كان على خالة مراة عمته تحفُّظ أمني أو لو اشتهر أن عمة جده كان لها يومًا ما

رأي حر؛ فبناء عليه لو قرر أوباما أن يزور أبو أتاته وصفط اللبن "فأجه" سيسمح له النظام بذلك دون أن يكنس شارعًا أو يشيل كوم زبالة، وسيخبر أوباما بهدوء أنه الآن يزور أول معمل تجارب مفتوح في تاريخ العالم، تم تدشينه بالقرب من الجامعة لكي يسهل على طلاب الطب والاجتماع والاقتصاد والتخطيط العمراني عبور شريط السكة الحديد وممارسة تجاربهم العملية على الحالات البشرية التي تسكن في المعمل، وبالطبع سينبهر الرجل وربما عاد إلى أمريكا ليطلب إقامة منطقة عشوائية فقيرة إلى جوار جامعة هارفارد.

قلت لصديقي عندًا فيه: طيب هيحصل إيه ياحلو لو قرر أوباما أن يزور القرية الفرعونية، ثم قرر بعد خروجه منها أن يتمشى حتى كوبري عباس وشاهد كميات المخلفات الآدمية الشنيعة التي تمتد على طول السور وبعضها كما تعلم يرقد متحجرًا هناك من سنين؛ فقال لي: بسيطة، في دقائق سيكون إلى جوار أوباما كل من محافظ الجيزة والدكتور زاهي حواس لإعلان افتتاح أول متحف في الهواء الطلق للمخلفات الفرعونية.

طيب، طالما أعجبتك لعبة "ماذا لو" التي لعبناها الآن عن مفاجآت زيارة الرئيس الأمريكي أوباما إلى القاهرة، مارأيك لو قلبنا اللعبة جد قليلا، وسألنا: ماذا يحدث لو قررنا اليوم أن نتأسى بالرئيس الفنزويلي شافيز، ليس في معارضته لأمريكا لا سمح الله؛ بل في تلك الحركة المبهرة التي قام بها خلال قمة رؤساء أمريكا اللاتينية عندما توجه إلى أوباما حاملاً في يده كتابًا أهداه لأوباما وسط ذهول الجميع.

مافيهاش حاجة أن نقلد الرجل؛ فقد قلدنا هو عندما أدخل تعديلات دستورية تسمح له بالبقاء طويلاً على كرسي الحكم، وبرغم أن غالبية

شعبه وافقته على ذلك في استفتاء . بالتاء وليس استفتاء بالسين من بتوعنا . فإنه اكتسب كراهيتي من لحظتها وشعرت أنه نسخة حنجورية من زعمائنا العرب لن تجلب خيرًا لفنزويلا ولا للعالم؛ حتى إنني عاتبت أصدقاءنا الذين زاروا سفارة فنزويلا إبان العدوان الإسرائيلي الهمجي على أطفال غزة، وقلت لهم إن آخر من نحتاج إلى دعمه مهووس مثل شافيز؛ فلم يضيعنا إلا هروبنا من كراهية حكام التنازلات إلى عشق حكام الميكروفونات.

لكنني ولا أخفيك نسيت كل هذه المشاعر السلبية التي كنت أكنها لشافيز فور أن عرفت أنه اختار بمنتهى الذكاء أن يهدي لأوباما كتاب "الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية" لأحد كتابي المفضلين الكاتب الأورجوائي العظيم إدواردو جاليانو.

عرفت إدواردو جاليانو قبل عشر سنوات من كتاب ساحر اسمه (كرة القدم بين الشمس والظل) جذبني لقراءته وجود اسم المترجم العظيم صالح علماني عليه، والذي أنصحك ألا تترك كتابًا عليه اسمه إلا واشتريته دون أن تسأل حتى عن موضوع الكتاب أو مؤلفه وصدقني لن تندم.. وقتها لم أكن أعرف أن جاليانو مثقف عظيم كتب في الرياضة من باب المزاج.. التهمت الكتاب وأنا مسحور بكتابة جاليانو وقدرته على تكثيف الحياة كلها من خلال كتابته عن كرة القدم، لم أتمكن من تحديد ماقرأته، هل هو رواية فذة أم موسوعة رياضية أم كتاب فلسفي أم دراسة سياسية؛ لأنه ببساطة كان كل ذلك، ككل كتبه التي -لحسن الحظ- وجدت أن إخواننا السوريين نشروا أغلبها من ترجمة صالح علماني وأسامة إسبر، واكتشفت أنه يكتب بطريقة خاصة تشبه كتب

التراث العربي الشهيرة مثل الأغاني والأمالي والمستطرف، وهي الطريقة التي انقطعت عن كتابتنا العربية حتى أعاد الوصل بها عميد الأدب العربي طه حسين في كتابه الجميل المظلوم (جنة الشوك)، ولم يفته تسجيل فخره بذلك في مقدمة الكتاب، أشك أن يكون جاليانو قد قرأ كتاب طه حسين الذي لم يترجم؛ لكنني متأكد أنه قرأ بعض كتب التراث المترجمة؛ لأنه يقتبس أحيانًا من بعضها، وهو من أشد كتاب العالم تعاطفًا مع القضية الفلسطينية ووقوفًا ضد الهيمنة الأمريكية.. وكتابه الذي شهره شافيز يحكي قصة عربدة العم سام في أمريكا اللاتينية، وقد أعجبني في شافيز حرصه على أن يُهدي أوباما الكتاب في نسخته الأسبانية مع أنه تُرجم إلى الإنجليزية، وبالطبع احتل الكتاب فورًا المركز الثاني في قوائم أعلى المبيعات في العالم الذي يُقرأ؛ بينما لم تفكر صحيفة مصرية في عرض الكتاب برغم أنه مترجم إلى العربية من زمان على يد مترجم مصري قدير هو أحمد حسان.

شفت بقى، هاهي محبتي لجاليانو قد ألهتني عن الإجابة على تخيل الكتاب الذي يمكن أن نهديه لأوباما، ربما لأن عقلي الباطن يعلم أننا شعب لا يقرأ يستحق قيادة لا تقرأ؛ لكن يعني بما أننا نفترض، والافتراض ماحرمش، عن نفسي سأهدي لأوباما كتابًا مصريًّا صدر منذ عامين ولم ينتبه أحد له ولا لكاتبه الشاب الذي يكتب أفضل من عشرات الكتاب المزقوقين على صحفنا، اسمه (الويلات المتحدة الأمريكية) للكاتب شادي عبد السلام الذي لم أتشرف بلقياه بعد؛ لكنني شرفت بمراسلته ومشاطرته إحباطَه من ضيق زوجته بتكدس نسخ كتابه في منزله، وعلمت أنه يعمل في البورصة وغير متفرغ للكتابة لحسن حظ زوجته.

أعترف أنني لم أكن متحمسًا للكتاب في البداية لأنني ظننته كتابًا حنجوريًّا؛ لكن أسلوبه الساحر شدني بدءًا من الكلمة التي اختارها "ضهرًا" لغلافه وحتى آخر سطر في كتابه المدهش الذي يحكي تاريخ الويلات التي سببتها أمريكا لشعوب الأرض قاطبة.

قلت كل هذا بحماس شديد لصديقي "الأتاتي" الذي هرب من أبو أتاتة بعد ماكتبته نسبة إليه؛ برغم أني لم أذكر اسمه؛ فأسمعني صوتًا حقيرًا، ثم استغفر وحمد الله لأن الأوان قد فات على أخذ المسئولين باقتراحي المهيب؛ لأنهم كانوا أكيد سيهدون أوباما كتاب (محمد حسني مبارك.. قال فصدق) للكاتب "الجاكوزي" سمير رجب.

يونيو 2008

كما تدين تدان!

بغضّ النظر عن كل ماتضيق به صدورنا من التفاصيل الملتبسة والألاعيب القانونية والمناورات السياسية، لا يساورني الشك ولو للحظة أن يد العدالة ستقتص من كل قناص أطلق رصاصة على رأس متظاهر أعزل، ومن كل ضابط تسبب في جرح ثائر، ومن كل قائد يتخيل أن موقعه العسكري سيعفيه من تحمل مسئولية انتهاكاته لحقوق الإنسان، ومن كل مسئول مدني يظن أنه لن يتحمل المسئولية السياسية عن أفعال القناصة والضباط والجنود التابعين لإمرته؛ سواء كان ذلك في مصر أو سوريا أو ليبيا أو اليمن أو البحرين.

لا أنطلق في ذلك اليقين من عاطفة دينية يؤججها كوننا في أيام مفترجة نحتاج فيها إلى أن نحسن الظن بالديّان الذي لا يموت لكي يقينا يقيننا به من اليأس، ولا من عاطفة وطنية فخورة برؤية مبارك وأفراد عصابته في أقفاص الحساب التي طالما زُجّ بالأبرياء بداخلها ظلمًا وعدوانًا.

بل أنطلق في يقيني من إمعان النظر في أحداث وقعت خلال الأسبوعين الماضيين فقط، شهدتها دول ديمقراطية أو أصبحت ديمقراطية، تحولت فيها العدالة من رغبة ثورية أو نخبوية لتصبح رغبة شعبية عارمة جعلت حتى بسطاء الناس يدركون أن إنفاذ العدالة ليس وراءه رغبة في الانتقام أو التشفي؛ بل إن رزق عيالهم وأمان بيوتهم وصلاح حالهم مرتبط بإنفاذ

العدالة على الكبير قبل الصغير؛ فالدول التي تريد أن تتقدم لا يصح أن تسقط فيها جرائم النفس بالتقادم أو الاستعباط.

في الأرجنتين صدر حكم بالسجن مدى الحياة على ضابطين سابقين لتورطهما في قضايا تعذيب وقتل وقعت قبل أربعين عامًا بحق عدد من المعارضين كان من بينهم باحثة ألمانية كانت متعاطفة مع المعارضين وتم تعذيبها وقتلها.. لم تتوقف العدالة أبدًا عند كون أحد المتهمين يبلغ من العمر 84 عامًا والآخر 81 عامًا؛ بل تم سجنهما في نفس السجن الذي شاركا فيه بتعذيب 2500 معارض بين عامي 1976 و1978.

الحكم الذي صدر بعد تحقيقات طويلة فتحت ملفات قتل وتعذيب واختطاف 30 ألف معارض على أيدي العسكر في سبعينيات القرن الماضي، لم ينزل فقط بردًا وسلامًا على الأجيال التي شهدت ذلك الماضي الأليم؛ بل حمل أملاً للأجيال الجديدة التي تشهد التحول الديمقراطي الحالي في أنها ستعيش في بلاد لا تموت فيها العدالة أبدًا.

في كولومبيا اعترف ضابط برتبة كولونيل أن وحدته قتلت خلال سنوات الحرب التي شهدتها البلاد 57 مدنيًّا ثم ألبست جثثهم أزياء عسكرية للادعاء أنهم متمردون قُتلوا في مواجهات عسكرية من أجل الحصول على مكافآت مالية أعلن عنها الجيش لمن يقتل أكبر عدد من المتمردين..

الكولونيل لويس بورجا سيقضي عقوبة السجن لمدة 21 سنة، وقد سبقه إلى السجن ثمان جنود يقضون عقوبة بالسجن ستين سنة لقتلهم أربعة مزارعين ثم إلباسهم ثيابًا عسكرية؛ بينما يحقق المدعي العام

الكولومبي في ألف وأربعمائة حالة مماثلة حصلت في الفترة من 2002 إلى 2010.

في هولندا صدر حكم قضائي باتّاعتبر أن الدولة الهولندية مسئولة عن قتل ثلاثة مسلمين هربوا مع المئات من مذابح سيربيرنتسيا التي كانت تقوم بها قوات الصربي راتكو مالديتش في 11 يوليو 1995، ولجؤوا إلى معسكر قوات حفظ السلام الهولندية التي أجبرتهم على الخروج من المعسكر ليتم قتلهم هم و8 آلاف شخص في أسوأ مذبحة شهدتها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية.. ليلجأ بعض ذويهم إلى القضاء الهولندي الذي أثبت بعد تحقيقات طويلة أن القوات الهولندية كانت مخطئة بعدم حمايتها للمدنيين مما يلزم الدولة الهولندية بدفع تعويضات لذويهم؛ وهو ما يفتح الباب لسلسلة قضايا تشمل كل المتضررين مما جرى يومها.

لعلك تعلم أن القوات الصربية ألقت القبض أخيرًا على جوران هادزيتش آخر السفاحين الصرب المطلوبين بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية خلال فترة الحرب العرقية بعد هروبه لسنوات طويلة؛ ليمثل أمام العدالة التي تحاكمه بأكثر من 14 اتهامًا سياسيًّا وجنائيًّا، لينضم إلى قائمة محاكمات تشمل 161 متهمًا بارتكاب جرائم حرب وقعت في تسعينيات القرن الماضي في كرواتيا وصربيا والبوسنة وكوسوفو، وهي المحاكمات التي صارت سبيلاً لابد أن تسلكه حكومات كل الدول للحصول على مميزات دولية اقتصادية وسياسية.

أما في الولايات المتحدة فقد عرفت العدالة طريقها أخيرًا إلى أمريكي عمره 71 سنة كان متهمًا في واحدة من أشهر الجرائم المقيدة ضد مجهول في

تاريخ أمريكا، والتي وقعت في ولاية إيلينوي عام 1957، وراح ضحيتها طفلة في السابعة من عمرها، هز مقتلها البلاد بأكملها؛ لدرجة أن الرئيس إيزنهاور وقتها طلب متابعة يومية حتى يتم التوصل إلى القاتل، وهو ما لم يتم؛ لتظل القضية لغزًا تم حله الأسبوع الماضي، عندما تم القبض على شخص اسمه جون تيسيركان من ضمن الذين استجوبهم البوليس وقدم حجة غياب تفيد أنه ذهب إلى شيكاغو في نفس يوم وقوع الجريمة..

وبعد تقييد القضية ضد مجهول ترك الولاية ورحل إلى واشنطن ليعمل بها رجل بوليس؛ في حين ظلت القضية تحديًا لرجال البوليس الذين وجد أحدهم بعد كل هذه السنوات أن جون لم يستخدم تذكرة القطار إلى شيكاغو والتي قدّمها كحجة غياب ليتم القبض عليه ويعترف بفعلته.

في المجر تمت إحالة رجل عمره 97 سنة إلى محكمة خاصة ببودابست لاتهامه بارتكاب جرائم حرب تسببت في مقتل 36 يهوديًا وصربيًا عام 1942 أثناء الحكم النازي لمدينة نوفوساد الصربية، والمدّعون عليه طالبوا بمعاقبته بالسجن، والمتهم أصر أنه لا يعرف شيئًا عن تلك الاتهامات، ولم يتم الدفع بكبر سنه ولا بتدهور صحته؛ بل خضع لمحاكمة عادلة برأته المحكمة على إثرها.

أما في كينيا فقد حصل 4 عواجيز كينيين أخيرًا على موافقة من المحكمة العليا برفع دعاوى قضائية على الحكومة البريطانية التي يتهمون ضباطًا منها بتعذيبهم أثناء تمرد الماو ماو، الذي وقع في الخمسينيات من القرن الماضي؛ وهو مايفتح الباب لسيل من الدعاوى التي سيرفعها كينيون تعرضوا للتعذيب بل وللاعتداءات الجنسية والإخصاء.. أعجبني تعليق على هذا الحكم قاله الأسقف الجنوب أفريقي ديزموند توتو الذي اعتبر

أن إنصاف هؤلاء الضحايا ليس انتصارا قانونيًا بقدر ماهو انتصار أخلاقي وسياسي تحتاجه أفريقيا وكل شعوب العالم الثالث.

بدون الديمقراطية التي يفرضها الناس ويحمونها، تظل العدالة عرجاء؛ فاعتبروا يا أولي الألباب.

أغسطس 2011

العالم يتطهر.. عقبالنا!

حتى في العالم غير المتقدم انتهت حكاية أن يُفلت مجرم من العقوبة لكبر سنه؛ فقد أصبح معلومًا من التقدم بالضرورة أن العدالة عمياء لا تستثني أحدًا؛ إلا نحن فالعدالة لدينا عوراء، ومع الأسف عَوَرت نفسها بمزاجها.

في الأسبوع الماضي بدأت في كمبوديا محاكمات لأربعة من قادة الخمير الحمر المتهمين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية سقط فيها الآلاف من القتلى خلال الأعوام من 1975 إلى 1979، كانت المحاكمة قد تأخرت لعدة أشهر بسبب التعقيدات التي وضعها عدد من فلول تنظيم الخمير الحمر الموجودين داخل الحكومة الجديدة.. أكبر القادة سنًّا عمره 85 عامًا وهو وزير خارجية النظام الذي لم يقتل بيده لكن المحكمة المدعومة من الأمم المتحدة اعتبرته متورطًا سياسيًّا في كل ماجرى؛ بل وتحاكم معه زوجته البالغة من العمر 79 عامًا والتي كانت تشغل منصب وزيرة الشئون الاجتماعية، كما يحاكم أيضًا مُنظّر التنظيم ونائب زعيمه السفاح بول بوت وعمره 84 عامًا، وكذلك وزير الداخلية السابق وعمره 79 عامًا، وجميعهم يحاكمون مع أنهم لم يقتلوا بأيديهم مباشرة؛ لكن مجرد وقوع تلك الجرائم تحت مسئوليتهم السياسية جعلهم خاضعين للمحاكمة الجنائية.

وقبل أن يتقافز عبيد مبارك ناعقين: وهل يمكن مقارنة من قتلوا مئات الآلاف بمن قتل ثمانمائة شهيد فقط لا غير؟! أتمنى لهم أن يجربوا يومًا قتل أحب الناس إليهم لكي يكتشفوا أن القدرة على الفلسفة والتبرير

تختفي فورًا في حالتين: الأولى عندما يكتوي الإنسان بنار الظلم مباشرة، والثانية عندما يقرر أن يكون إنسانًا وليس حلّوفًا فينحاز للمبدأ حتى لو لم يقع عليه الظلم مباشرة.

في الولايات المتحدة وقع خلال الأيام الماضية ثلاثة من كبار الحيتان في قبضة العدالة، أكثرهم نفوذًا اللورد البريطاني كونراد بلاك صاحب الإمبراطورية الإعلامية التي تتضمن صحيفة الديلي تليجراف بجلالة قدرها، والذي كان قد خرج من السجن في العام الماضي بكفالة بعد أن قضى فيه عامين مسجونًا بتهمة الاحتيال وتضليل العدالة.. وفي حين أفلت بعد خروجه من قضيتين أخريين، سقط في القضية الثالثة ليعود ثانية إلى السجن لمدة 42 شهرًا، على أن يتم ترحيله من الولايات المتحدة بعد خروجه ومنعه من العيش فيها.. ولم يأت أحد بسيرة الصلح خير، ولا خلينا نطلع منه بقرشين؛ برغم أنه أنفق ملايين الدولارات على حملة علاقات عامة لتلميع صورته والحصول على البراءة.

الثاني كان حاكم ولاية إيلينوي السابق رود بلاجوفيتش الذي خرج من منصبه بفضيحة قبل عامين؛ لاتهامه بالفساد والرشوة ومحاولة بيع كرسي سيناتور الولاية الذي خلا بترشح أوباما للرئاسة.. هذا الأسبوع صدرت على بلاجوفيتش أحكام قاطعة ستجعله يقضي بقية عمره في السجن بعد إدانته بسبعة عشر اتهامًا.

أما الثالث فقد كان أخطر شخص يوضع على قائمة المطلوبين لدى المباحث الفيدرالية بعد أسامة بن لادن، وهو ليس عربيًا ولامسلمًا؛ بل مجرم أمريكي شهير ظل 16 عامًا هاربًا من البوليس لتورطه في 19 جريمة قتل وإدارته لعصابة مافيا في بوسطن خلال السبعينيات والثمانينيات،

اسمه جيمس وايتي بولجر، وعمره 81 عامًا، وقد استلهم المخرج مارتين سكورسيزي الكثير من تفاصيله الشخصية في الدور الذي لعبه العبقري جاك نيكلسون في فيلم (ذي ديبارتد)، وكالعادة تم الوصول إليه عن طريق تتبع امرأة هي صديقته الحميمة.

في الصين التي تعاقب الفاسدين الحكوميين بالإعدام حذر الرئيس الصيني هيو جينتاو خلال احتفاله بالعيد التسعين للحزب الشيوعي الصيني من عواقب انتشار الفساد الحكومي على تقدم الصين المتواصل متوعدًا بالمزيد من العقوبات القاسية. وفي روسيا حاول موظف عام الإفلات من تهمة الرشوة التي تم ضبطه بها بأن أكل مبلغ الرشوة البالغ قدره 35 ألف روبل؛ لكن البوليس اصطحبه إلى المستشفى، وهناك تم استخراج سبع قطع من أوراق النقود كانت كافية لكي يحال إلى المحاكمة. أما في أندونيسيا فقد تم أخيرًا إطلاق سراح أقدم سجين في العالم لأسباب إنسانية؛ هي ببساطة أنه بلغ من العمر 108 سنة.

وحتى نتطهر نحن أيضًا ويقر الله أعيننا برؤية مجرمينا وقد وقعت عليهم العدالة العمياء التي لا ترى سنهم أو وجاهتهم الاجتماعية نبقى في أندونيسيا التي فجر فيها الصحفي ياسر عليمي حملة صحفية عن أوضاع الشغالات الأندونيسيات في دول الخليج متهمًا قادة بلاده بالتواطؤ ضد مواطنات أندونيسيا اللواتي وصفهن بالبطلات، منطلقًا من واقعة حصلت الأسبوع الماضي في السعودية عندما تم قطع رأس شغالة أندونيسية لأنها قتلت الرجل الذي كانت تعمل لديه؛ مع أنها كانت كما يقول عليمي تدافع عن نفسها ضد رجل كان يتحرش بها دائمًا ويحجز مرتبها ويمنعها من العودة إلى وطنها.. ومع ذلك تجاهل الساسة الأندونيسيون قضيتها، كما

تجاهلوا أكثر من 4 آلاف بلاغ عن التحرش والاعتداء على عاملات أندونيسيات في دول أجنبية، نصف هذه البلاغات قادم من أندونيسيات تعملن في السعودية؛فضلاً عن موت تسعمائة أندونيسية أثناء عملهن في الخارج دون أن يسأل فيهن أحد.

أخيرًا توقفت عند خبر يتحدث عن سجن كاتبة تايوانية متخصصة في الكتابة عن الطعام؛ لأنها كتبت عن مطعم للنودلز في مدينة تايشنونج؛ فقالت:إن أكل المطعم "ملحه زيادة"، ثم اعترفت أمام المحكمة أنها لم تجرب سوى صنف واحد من قائمة الطعام، وهو ما اعتبرته المحكمة تضليلاً للرأي العام، وحكمت بسجنها ثلاثين يومًا وألزمتها بدفع تعويض يوازي مبلغ 4800 جنيه إسترليني؛ بينما نحن ندلع رؤساء التحرير السابقين الذين ضللوا الرأي العام سنين طويلة، وروّجوا الأكاذيب، ولحسوا أعتاب نظام مبارك، ووالسوا على فساده، وخاضوا في أعراض معارضيه ووطنيته؛ فنمنح أغلبهم أعمدة صحفية بوصفهم من كبار الكتاب؛ مع أنهم كانوا أحق بالسجن جنبًا إلى جنب مع أسيادهم السابقين..

لكي لا أُتهم بالدعوة إلى حبس الصحفيين إذا صح أن نسمي هؤلاء صحفيين أصلاً، أتمنى أن نجد لدينا قاضيًا عادلاً يحكم عليهم بأن يأكلوا كل مقالات النفاق التي كتبوها طيلة سنوات خدمتهم في بلاط حسني مبارك، ولعلها أقل عقوبة يستحقونها.

رُفِعت الجلسة.

7 يوليو 2011

دنيا غير الدنيا!

في الوقت الذي كان المشروع الإسلامي يشهد خناقة على لم الأجرة بين السائق الإخواني والتبّاع السلفي، كان ثمة أناس في دنيا الله الواسعة ينشغلون بأشياء أكثر أهمية تمثل جوهر المشروع الإسلامي الحقيقي الذي تعبّر عنه الأسئلة القرآنية التي لا تجد أبدًا صداها لدينا "أفلا تتفكرون؟ . أفلا تعقلون؟ . أفلا تتدبرون . أفلا تبصرون؟".

وفي نفس الوقت الذي اختار مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر المستنير أن يغض الطرف عن كل وقائع التعذيب التي اهتزّت لهولها البلاد، ويكتفي بتحقيق انتصار تاريخي بإحالة الدكتور يوسف زيدان إلى نيابة أمن الدولة العليا بسبب كتابه "اللاهوت العربي" الذي صدر منذ ثلاث سنوات؛بدعوى أنه سيسبب فتنة دينية عظيمة، كانت الصحافة الغربية مشغولة بتناقل أخبار عن تواصل تحقيق إنجازات مذهلة في علم الهندسة الوراثية في عدد من المراكز البحثية، قد تُمكّن العلم قريبًا من بناء بشر مقاومين للفيروسات؛ بل وربما مكّنتهم من إعادة سلالات بشرية بائدة إلى الحياة؛ مثل سلالة إنسان نياندرتال الذي تقول الأبحاث إنه انقرض قبل حوالى 24 ألف سنة مضت، بعد أن عاش لآلاف السنين في أوروبا وآسيا الغربية، وكان معدل حجم مخه أكبر من معدل حجم المخ للإنسان الحالي بنسبة 10% تقريبًا، ومع ذلك فقد انقرض؛ مع أنه لم ير ربع الغُلب الذي نعيشه، والذي ربما كان سبب تآكل مخنا.

في مدونته الرائعة "قراءات" يترجم الشاعر أحمد شافعي حوارًا مهمًّا نشرته مجلة دير شبيجل الألمانية مع جورج تشيرش خبير علم الأحياء التركيبي في جامعة هارفارد، الذي ساهم في إطلاق مشروع الجينوم البشري خلال ثمانينيات القرن الماضي، وذلك بعد إصداره كتابًا بعنوان (التكوين الثاني: كيف سيعيد علم الأحياء التركيبي اختراعنا نحن والطبيعة؟)، يطرح فيه إمكانية صنع بشر قادرين على مقاومة الجراثيم.

تسأله المجلة: "أنت تنبأت بأنه سوف يتسنى في القريب استنساخ إنسان نياندرتال، ماذا تعني بالقريب؟ هل ستشهد ذلك في حياتك؟"، فيجيب: "هذا يعتمد على جحيم من الأمور لا أول لها ولا آخر؛ ولكنني أعتقد أن هذا سوف يحدث. والذي يجعلني أعتقد بإمكانية ذلك هو أن هناك حفنة من التقنيات التي تتطور بسرعة لم تكن قائمة من قبل. قراءة الحمض النووي على وجه الخصوص أصبحت الآن أسرع بمليون مرة مما كانت عليه قبل ثماني سنوات.. وهناك تقنية أخرى سوف تلزم لإبطال انقراض نياندرتال وهي الاستنساخ البشري.. نحن قادرون على استنساخ جميع أنواع الثدييات؛ فمحتمل جدًّا أن نستطيع استنساخ إنسان؛ إذ ما الذي يجعلنا غير قادرين على هذا؟".

تسأله المجلة: "لكن هذا ممنوع؟"، فيرد بثقة شديدة: "قد يكون الأمر كذلك في ألمانيا؛ لكنه ليس ممنوعًا في كل العالم؛ وعلى فكرة، القوانين يمكن أن تتغير".

تسأله المجلة عن فائدة ذلك الاستنساخ لعالمنا؟ فيقول: "سلالة نياندرتال قد تفكر بطريقة مختلفة عن التي نفكر بها الآن.. نحن نعرف أن جماجمها أكبر. ولعلها تكون أذكى منا أيضًا.. وحينما يحين الوقت الذي

يتحتم فيه التعامل مع وباء أو خروج جماعي من الكوكب أو ما شاكل ذلك؛ فمن المحتمل أن تكون لطريقتها في التفكير فائدة".

تسأله المجلة: "ألن يكون أمرًا إشكاليًا من وجهة النظر الأخلاقية أن يتم خلق نياندرتال من أجل الفضول العلمي وحده؟"، فيرد قائلاً: "قد يكون الفضول جزءًا من الأمر؛ ولكنه ليس القوة الدافعة الرئيسية. الهدف الرئيسي هو زيادة التنوع.. الشيء الخطر على المجتمع هو نقص التنوع.. هذا يصدق على الثقافة مثلما يصدق على التطور، وعلى السلالات مثلما على المجتمعات.. لو أن الثقافة تحولت إلى ثقافة أحادية، لأصبح خطر الهلاك محدقًا؛ وعليه فإن إعادة خلق نياندرتال سوف تكون في المقام الأكبر مسألة حماية مجتمعية".

ثم ينطلق البروفيسور الأمريكي في حديث طويل وشيق عن المجالات المتعددة التي يمكن أن يتم فيها استخدام الهندسة الجينية في الصناعة والزراعة وعلاج الأمراض المستعصية، وأخيرًا في مساعدة الإنسان على أن يعيش حتى يبلغ المائة والعشرين عامًا بتحسين جيناته الوقائية، كاشفًا عن القيام في هذا الصدد بجمع الحمض النووي من عشرين شخصًا حتى الآن من بين ستين شخصًا تجاوزت أعمارهم 110 عامًا يعيشون الآن في عالمنا الذي يقصف العمر.

تسأله المجلة: ألا تخشى أن يتهمك الناس بأنك تلعب دور الإله؟ فيرد:"أنا بالتأكيد أحترم عقائد الآخرين؛ ولكن الدين بصفة عامة لا يريد الناس أن يموتوا من الجوع، واليوم لدينا سبعة بلايين إنسان يعيشون على هذا الكوكب، ولو أن جزءًا من حل مشكلة التغذية لكل هذا العدد هو أن

تجعل محاصيلهم مقاومة للفيروسات فعلينا إذن أن نتساءل: هل في الإنجيل ما يمنع السعي إلى خلق محاصيل مقاومة للفيروسات؟".

يرد المحرر: "لكن الإنسان المقاوم للفيروسات شيء مختلف تمامًا". فيجيب: "لماذا؟ نحن في التكنولوجيا لا نقفز؛ إنما هو زحف بطيء، ونحن لن نصنع إنسانًا مقاومًا للفيروسات قبل أن نصنع بقرة مقاومة للفيروسات. ولا أفهم لماذا يمكن أن يتأذى أحد من هذه التكنولوجيا الجديدة".

تسأله المجلة: "مستر تشيرش، هل تؤمن بالرب؟فيجيب: "سأكون أعمى لو لم أر ذلك الإيمان بأن مخططًا كليًا هو الذي نتج عنه وجودنا حيث نحن اليوم.. الإيمان قوة هائلة في تاريخ الإنسانية؛ وعليه فإنني أحترم أنواع الإيمان المختلفة، مثلما أعتقد بأن التنوع أمر شديد الأهمية من الناحية الجينية، ومن الناحية الاجتماعية أيضًا". وهي إجابة أتمنى أن تكون كافية لكي لا يفكر مجمع البحوث الإسلامية في تقديم بلاغ ضد البروفيسور إلى نيابة أمن الدولة العليا؛ لأنه والعياذ بالله يسعى إلى زيادة التنوع.

ماذا أقول بعد كل هذا، غير أن الدنيا في وادٍ، وبعضنا يريد لنا أن نعيش، ليس حتى في وادٍ آخر؛ بل أن نعيش في سرداب، وياليته كان سردابًا أفقيًّا يمكن أن يوصلنا إلى مكان ما؛ بل هو للأسف سرداب رأسي نواصل حفر قاعه باستمتاع شديد، ولا خلاص لنا إلا بهجر هذا السرداب إلى الأبد لكي نعيش في وادي العلم الذي يعيش فيه "الأوادم" من خلق الله.

أفلا تعقلون.

23 فبراير 2013

تعالوا نقلد تركيا

آه والله فعلاً عندك حق، من المهم جدًّا أن نقلد تركيا في سياستها الخارجية المشرفة الرائعة؛ لكن أليس من المهم أيضًا، أو من المهم أولاً أن نفهم كيف أصبح لتركيا تلك السياسة الخارجية التي تعجبنا جميعًا.. هنا محاولة للتأمل من خلال الأرقام، أتمنى أن تنجح.

بعد سنوات من حكم حزب العدالة والتنمية لتركيا ارتفع الدخل القومي للفرد من 2200 دولار إلى 11 ألف دولار، ويتوقع أن يصل إلى 16 ألف دولار خلال السنوات الثلاث المقبلة.

تقف تركيا اليوم في المرتبة السابعة عشر بين الدول الأقوى اقتصاديًّا وتبذل حكومتها جهودًا مستمرة لرفعها للمرتبة الحادية عشر في عام 2024.

خلال الشهر الماضي فقط ارتفعت الصادرات بنسبة 20%، وخلال الأشهر التي مضت من عام 2011 وصلت الصادرات إلى 88 مليار دولار ونصف تقريبًا.. بالمناسبة، وصل حجم الصادرات في العام الماضي إلى 113 مليار دولار.

في شهر يوليو الماضي حققت تركيا أكبر نسبة نمو اقتصادي في العالم (11%). وينتظر أن يتواصل ارتفاع المؤشرات الاقتصادية بعد إعلان أردوغان عن مشروعه الاستراتيجي بفتح ممر ومضيق بحري جديد يوزاي مضيق البوسفور الحالي بشق قناة اسمها قناة إسطنبول، يكلف المشروع

10 مليارات دولار، وينشئ مدينة جديدة يزيد عدد سكانها عن مليون نسمة ويؤمن مئات الآلاف من فرص العمل، ويغير المعالم الجغرافية في إسطنبول الأوروبية التي سيحولها إلى جزيرة بحرية.

بالطبع توجد في تركيا نسبة بطالة عالية؛ لكن الحكومة بكافة أجهزتها وضعت خطة قومية متكاملة من أجل خفض تلك النسبة لتصل إلى 5% فقط خلال العيد المئوي للجمهورية التركية في سنة 2023.

تضع الحكومة التركية عدادًا متصلاً بشبكة الإنترنت يوضح المبالغ التي يتم صرفها على التربية والتعليم خلال العام، وعند كتابتي لهذا المقال كان الرقم تقريبًا 23 مليار دولار ونصف.

يكفي أن تعرف أن هناك 163 ألف فصل دراسي تم بناؤه خلال الفترة من 2002 . 2010. بالمناسبة ستجد كل ذلك في موقع أنشأته تركيا اسمه (أخبار تركيا) اتخذ لنفسه شعارًا (بلادنا تشهد تطورات جميلة)؛ حيث تخصص في نشر الإنجازات التركية التي يتم تحقيقها، مقدمًا عدادًا رقميًا متصلاً بقاعدة بيانات الحكومة التركية؛ لتحديث الأرقام التي تظهر تطور الاقتصاد التركي ونموه الدائم.

نجحت تركيا في احتلال المركز الخامس في السوق العالمية في صناعة المرمر؛ حيث سجلت تطورًا خلال 10 سنوات قال الخبراء إنه ينبغي تحقيقه خلال 500 سنة. وتستمر في المنافسة لاحتلال المركز الأول الذي تحتله الصين حاليًا.

على مستوى الحاصلات الزراعية حطمت رقمها القياسي في تصدير البندق ليصل إلى 281 ألف و330 طنًا خلال الموسم الزراعي الماضي. إذا

كنت ترى أن تصدير البندق أمر ليس مهمًّا، طيب لك أن تعلم أن تركيا أنتجت 26 مليون طن من الحديد في سنة 2010؛ بينما زادت من إنتاجيتها خلال عام 2011 ليصل الرقم إلى 33 مليون طنًّا حتى الآن؛ في حين ارتفعت قيمة مائة ماركة تركية في سوق الماركات العالمية بنسبة 10% خلال الشهور الماضية.

منذ الأزمة المالية التي عصفت بالاقتصاد العالمي قامت أكثر من 20 دولة بطرق أبواب صندوق النقد الدولي؛ إلا أن أزماتها المالية تضاعفت غالبًا؛ أما تركيا فقد رفضت تلقي المساعدة من صندوق النقد أثناء الأزمة المالية؛ برغم جميع ضغوط اللوبي المساند لمساعدات الصندوق، واستطاعت إعداد ميزانية عامة أوصلتها إلى وضع أفضل بكثير من أوضاع الدول التي جرت وراء تعليمات صندوق النقد، واستطاعت خفض العجز المالي في إجمالي الدخل القومي السنوي بنسبة 3.6% وهو مايقابل نسبة 25% من العجز المالي الكلي.

قامت تركيا بتطوير صناعة النقل الجوي ودعم أسعارها لتشجيع المواطنين على السياحة الداخلية؛ لدرجة أن عدد المسافرين جوًّا من جميع الجنسيات خلال عام واحد وصل إلى 71 مليون مسافر.. حتى الآن ومنذ بداية عام 2011 وصل عدد ركاب الخطوط الجوية التركية وحدها إلى 21 مليون راكب ونصف.

للمرة الأولى تحصل تركيا على المرتبة الأولى كأفضل بلد ضمن فئة الوجهات المفضلة لدى قراء مجلات السفر والسياحة التي تعتبر من أهم أعمدة صناعة السياحة في العالم..إسطنبول حصلت على المرتبة

الخامسة ضمن التصويت لأفضل 10 مدن عالمية في كرم الضيافة واستقبال المواطنين للزوار.

بدأت تركيا في مشروع محلي يقوم بجمع الزيوت النباتية المستعملة من المنازل مع تقديم هدايا تشجيعية للمواطنين لاستخدام الزيوت المستعملة في تحويلها إلى نقود، والحفاظ على البيئة؛ حيث إن لترًا واحدًا من الزيوت المستعملة عندما يتم سكبه في المجاري يقوم بإفساد مليون متر مكعب من مياه الشرب في نهاية المطاف؛ لكن ذلك ليس المشروع الذي يشغل الأتراك فقط؛ ففي خلال أشهر ستنتهي تركيا من إنتاج أول مروحية تركية محلية الصنع في مشروع تقدر تكلفته بحوالى 2 مليار دولار. وقد وردت أول طلبية للمروحيات المحلية من جهاز الأمن الداخلي الذي سيشتري 75 منها؛ في حين وردت طلبيات للشراء من وزارتي الصحة والبيئة والغابات.. بالمناسبة بدأت تركيا استخدام الإسعاف الطائر بكثافة منذ عام 2008، ولدى وزارة الصحة الآن 17 مروحية إسعاف تتمركز في 15 ولاية.. وتقول الإحصائيات إن هذه المروحيات قامت بنقل مانسبته 23% من مرضى القلب و18% من المصابين بارتجاج المخ، و10% من أمراض الأطفال حديثي الولادة و5% من الأمراض النسائية، وخد عندك دي كمان؛ بل ونقلت المروحيات 3% من الأمراض المعوية.

بالمناسبة، ليست كل هذه الأرقام سوى غيض من فيض؛ لكن الأهم ليس هذه الأرقام؛ بل الأهم كيف تحققت؟

ببساطة تحققت بفضل الديمقراطية التي ارتكزت على عمود خطير اسمه استقلال القضاء الذي بات لا يراقب الجهاز الأمني فقط؛ بل أصبح يهيمن على المؤسسة العسكرية نفسها ويحاسبها ويذهب بقادتها المتجاوزين إلى

السجن، تحققت بفضل استقلال الجامعة ودعم التعليم والبحث العلمي.. بالطبع لم تصبح تركيا جنة الله في الأرض؛ ولكنها تعمل جاهدة من أجل ذلك.. لا يزال بها فقراء ومهمشون، لا تزال تواجه تحديات داخلية وخارجية؛ لكنها أدركت أن سبيل الخلاص من ذلك كله هو الديمقراطية، واستطاعت تحقيق ذلك من خلال حزب يحكم بأغلبية 50% فقط، فاز بها في الانتخابات الأخيرة، ولم تخرج باقي الأحزاب إلى الشارع لكي تعتصم وتطالب بنصيبها في الحكم؛ بل اعترفت بهزيمتها وعادت لكي تعمل في الشارع على أمل أن تكسب في الانتخابات القادمة؛ ولذلك، ولذلك فقط أصبح لدى تركيا القدرة على أن يكون لها سياسة خارجية محترمة تعجبنا جميعًا، دون أن تتخلى في سياستها عن المرونة والتوازن والقدرة على المناورة من أجل تحقيق صالح المواطن التركي.

قديمًا قالها الخال الأبنودي مخاطبًا القدس: "ماتفتشيش عن حلول، الحل من جوه، الحل من جوه".. وما أحوجنا لأن نذكّر أنفسنا دائمًا بأن الحل من جوه، الحل من جوه.

سبتمبر 2011

ملاعيب الدولة الغويطة!

سبحانك يارب، تَبَطّر بعضنا على التجربة التركية، وأخذ يقول متبجحًا: "تجربة تركية مين ياعم.. إحنا جدعان قوي وقادرين على صنع تجربة تخصنا إحنا بس". وبدأت تسري في وسائل الإعلام روح ترى أننا لسنا أصلاً بحاجة إلى أن نفهم ونتأمل تجربة السياسي التركي الشهير رجب طيب أردوغان الفريدة من نوعها في مواجهة العسكر ونجاحه في كسر الاستقطاب العميق بداخل المجتمع التركي، وخلخلة ترسانات المحرمات المفروضة عليه بالقانون والبيادة معًا.. كل هذا حدث بينما لم نكن نعلم أن من سيطبق التجربة التركية في بلادنا ويستفيد منها بشدة هو المجلس العسكري ودولته التي يفضّل البعض تسميتها بالدولة العميقة، وأفضّل تسميتها بالدولة الغويطة؛ ليس نسبة إلى الغائط كما ظن البعض من سيئ النية؛ وإنما لأن هناك فارقًا جوهريًا بين أن تكون عميقًا، وبين أن تكون غويطًا.. بين أن تعيش في ظل حكم دولة، وبين أن تعيش تحت ظل تشكيل من تحالف حكم العصابات يدّعي قادته المشغولون بحماية مصالحهم وامتيازاتهم أنهم يقومون بحماية دولة، ومصطلح الدولة منهم براء.

مع الأسف التجربة التركية التي اهتم المجلس العسكري بالتعلم منها وتطبيقها في مصر، لم تكن تجربة أردوغان ولا حتى تجربة سلفه المرحوم تورجوت أوزال الذي يدين له الأتراك بالكثير فيما وصلوا إليه الآن من تقدم اقتصادي وتطور سياسي يتنامى يومًا بعد يوم؛ بل اهتموا بتطبيق تجربة الدولة العميقة التي دافع عنها عسكر تركيا بشراسة، والتي كتب

عنها الباحث التركي المرموق كرم أوكتم كتابًا مهمًّا اسمه (الأمة الغاضبة) أسمى فيه تلك الدولة بـ (الدولة الحارسة)، وعرّفها على أنها "بنية للسلطة توجد ضمن هيكل الدولة التنظيمي، ويتم تدعيمها بالصلات الشخصية على أعلى المستويات، وهي تمتد إلى كل مناحي الحياة. ويمكن بسهولة أن تتشجع للقيام بعمل ما يتطلبه للحفاظ على الدولة، وتستخدم كل الأساليب والإجراءات الضرورية للحفاظ على عهد الحزب الواحد الذي انبثقت منه.. والملمح المميز للدولة الحارسة هو تلك الأهمية التي تعطيها لحماية الدولة؛ حتى لو تعارض ذلك مع العمليات السياسية المشروعة؛ لذلك تحكم عن طريق خلق العداء والصراع بين الجماعات المختلفة، واستغلال الاختلافات الدينية أو اللغوية، ودفع الجماعات السياسية نحو التطرف، وتحقيق صراعات يمكن أن تتفاقم أحيانًا إلى أبعد مما يتوقعه الحراس بما يخلق المبررات للتدخل الصريح من جانب الجيش".

يقول كرم أوكتم إن ذلك ما حدث بالنص في الانقلابات التي قام بها الجيش التركي في أعوام 1960 و1971 و1980 و1997، وكذلك في الصيغة الانقلابية المعدلة التي اتخذَت شكلا قانونيًّا دستوريًّا في عام 2007، ويضيف أنه "في جميع هذه التدخلات كما في الفترات المدنية التي تخللت تلك الانقلابات؛ فقد عمل الحراس من أجل هدف الإبقاء على السلطة؛ فمن التلاعب بالمجال العام إلى خداع الأفراد، ومن التحريض على العنف الجماعي إلى التوسع في التعذيب على أيدي العملاء وقوى الأمن، وكانت كل الأساليب الممكنة مسموحًا بها ما دام مبررها هو إنقاذ الدولة؛ الذي يعد كناية عن إدامة السلطة".. ولقد حمل تحالف الحراس هذا تسميات مختلفة تراوحت بين "قلب الدولة"، "دولة الأمن"، "حراس

الجمهورية"، ويمتلك أولئك الحراس هيئات سرية وعلنية تنفذ الأعمال القذرة للتآمر السياسي مثل "التنظيم الخاص" (تشكيلات مخصوصة نابعة من جمعية الاتحاد والترقي التاريخية) والمكتب الحربي الخاص، وحراس القرية، وشرطة مكافحة الإرهاب، وقد ارتكبت جميع هذه الهيئات الكثير من الجرائم وقتلت الآلاف باسم الدفاع عن الدولة ضد الأعضاء المتصورين.

"وقد استطاع الحراس طيلة الوقت أن يحتفظوا في صفهم بجماعات اجتماعية رئيسية تضم أقسامًا من المثقفين والطبقات الوسطى والبرجوازية الصناعية في إسطنبول في كتلة جمهورية مهيمنة"؛ بل إنهم في بعض الأحيان وبرغم علمانية تركيا قاموا بتوظيف الاستقطاب الديني والسياسي بشكل صريح لخدمة مصالحهم؛ ففي الأربعينيات والستينيات قاموا باستغلال الطلاب اليساريين ضد المتدينين، وفي الستينيات والسبعينيات ومع صعود اليسار في العالم والتقارب الكبير مع الأمريكان قاموا باستخدام المتدينين لضرب الحركات الاشتراكية، وتملقوا الإسلاميين بشكل صريح.. ومنذ صعود حزب العدالة والتنمية وهم يقومون باستخدام العلويين والعلمانيين والديمقراطيين الاجتماعيين لضربه وإضعاف قوته؛ لخدمة مصالح الدولة الحارسة التي تحالفت فيها ثلاث جهات هي الجيش والقضاء والدولة البيروقراطية.

هل يبدو لك الكلام خطيرًا ومدهشًا ويذكّرك بأشياء كثيرة عشناها واستغربناها وتساءلنا عنها طيلة الفترة الانتقامية اللعينة؟ صدقني ستحتفظ بدهشتك طيلة الوقت وأنت تقرأ هذا الكتاب الذي صدر قبل أشهر عن إصدارات سطور الجديدة التي تنشرها السيدة الرائعة د.فاطمة

نصر، بترجمة متميزة للأستاذ مصطفى مجدي الجمال، وأعتقد أن قراءته بتعمق شديدة الأهمية في هذا التوقيت: ليس فقط لأنه سيفسر لنا كثيرًا مما غمض علينا فهمه طيلة شهور الفترة الانتقالية التي نقلنا فيها المجلس العسكري من حفرة إلى دحديرة وقام بتقليبنا على جمر النار كما تُقلّب الذبائح؛ بل لأنه سيساعدنا أكثر على فهم المرحلة الصعبة التي سنخوضها خلال السنين القادمة في صراعنا مع الدولة الغويطة التي تحكمنا منذ أيام عسكر الفراعنة وعسكر الرومان وعسكر المماليك وعسكر الأتراك ثم العسكر المحليين، وهي الدولة التي ستجعل هدفها الأول تعقيد مهمة أي رئيس مدني منتخب حتى لو حاز إجماعًا شعبيًا ساحقًا؛ تمامًا مثلما حدث في تركيا عندما كانت تفوز أحيانًا حكومات تحصل على تأييد شعبي جارف مثل حكومة الحزب الديمقراطي بزعامة عدنان مندريس عام 1950 وحكومة حزب الشعب الجمهوري بقيادة أجاويد في السبعينيات، أو فترة رئاسة تورجوت أوزال للحكومة في عام 1983، وأخيرًا النصر الانتخابي لحزب العدالة والتنمية في عام 2002.. وكلها حكومات قوية واجهت حراس الدولة التركية الغويطة التي نشأ فيها تحالف بين الجيش والقضاء والبيروقراطية، ومنعت هذا التحالف من التدخل في الحكم؛ بل ونجحت في زرع كوادر شعبية مستقلة في تلك المؤسسات، بسبب نجاحها في تحقيق نمو اقتصادي واتباع سياسة إقليمية ودولية نشطة.

لكن كل هذه الحكومات -باستثناء حكومة أردوغان- خسرت حربها مع الدولة الحارسة عندما خسرت تأييد الناخبين لها، بعد أن تزايدت النزعة السلطوية لقادتها، وفقدوا حسهم الجماهيري وصلتهم بالناس؛ ولذلك

كان الناخبون يعاقبونهم في الانتخابات التالية التي كانت أحزابهم فيها تفشل في تحقيق أغلبية؛ فكانت تتشكل حكومات ائتلافية ضعيفة كانت تضطر لأن تستسلم بسهولة لمطالب الدولة الحارسة؛ بل وتساعدها على إعادة بناء وضعيتها المهيمنة.. وهذا أكبر خطر يتهدد مصر الآن، أتمنى أن يعيه الجميع وعلى رأسهم قادة جماعة الإخوان الذين يعيشون الآن أيام الفرصة الأخيرة لهم في التعلم والتطوير والتكفير عن جرائمهم السياسية التي ارتكبوها منذ بداية الثورة، وإن كنت لا أثق في أنهم سيتخلوْن عن قِصَر نظرهم وعن انتهازيتهم السياسية؛ إلا إذا انفصلت العقول المفكرة المتمردة عنهم وأنشأت كيانًا سياسيًّا لا يتاجر بالشعارات الدينية، مثلما فعل أردوغان ورفاقه عندما خاصموا أستاذهم نجم الدين أربكان وتخلوْا عن ولائهم التنظيمي لهم لحساب مشروع سياسي يؤمن بأنه أينما وجدت المصلحة فثم شرع الله؛ حتى لو تم التخلي عن الشعارات المقدسة من أجل تحقيق جوهرها الأهم.

إن أخطر وأهم مايمكن أن تخرج به من قراءة كتاب كرم أوكتم (الأمة الغاضبة) هو أن الاستقطاب السياسي والفكري ليس سوى صناعة قذرة تقوم بها أجهزة الدولة الغويطة أو الدولة الحارسة لمصالح قادتها.. ومع الأسف يساعدها على ذلك قصر النظر الذي يؤمن به المتشددون في الإيمان بأفكارهم سواء كانت إسلامية أو يسارية أو ليبرالية أو علمانية، والذين يدافع بعضهم عن الحريات اسمًا فقط؛ بينما يكون مستعدًا للتحالف مع شياطين الدولة الحارسة من أجل إقصاء خصمه السياسي عن الوصول إلى السلطة، ويرفع من أجل تبرير ذلك شعارات فكرية براقة؛ بل ويستخدم آيات وأحاديث إن لزم الأمر.. فعل ذلك الإخوان

والسلفيون بكل صفاقة أيام معركة محمد محمود وما تلاها، عندما تركوا ظهر القوى الثورية الشابة مكشوفًا أمام بطش الدولة الغويطة؛ مرددين شعارات دينية عن ضرورة إطاعة أولي الأمر والحفاظ على الوطن من الفتن؛ ومع ذلك فقد صمدت تلك القوى الشابة وانتزعت لمصر نصرًا مبينًا بتحديد موعد الانتخابات الرئاسية الذي تهربت منه الدولة الغويطة طويلاً.

ومع الأسف ها هو الموقف ذاته يتكرر الآن بصورة مختلفة، عندما نشاهد رموزًا تتشدق بشعارات الليبرالية والمدنية؛ لكنها توافق بكل صراحة وقحة على تزوير الإرادة الشعبية لصالح مرشح الدولة الغويطة؛ متغاضية عن فساده وجهله وخوائه وتهربه من العدالة وعدم تحمله لمسئوليته السياسية عن جريمة موقعة الجمل وجريمة حرق وثائق أمن الدولة وجريمة تهريب الأموال المنهوبة إلى الخارج، وكل ذلك لأنها تخاف من خصمها السياسي الذي يرفع الشعارات الإسلامية، وبدلاً من أن تواجهه بآليات الديمقراطية وبالفكر والحجة والحوار وبالعمل في الشارع أيًا كان الثمن، توافق على أن ترتمي في حضن الدولة الغويطة، متصورة أنها ستحميها من طيش وعناد تيارات الشعارات الإسلامية لله والوطن؛ ليصبح لدينا ديمقراطية كسيحة تمامًا كتلك التي عاشتها تركيا منذ الخمسينيات والتي لعب فيها الجيش التركي دور حارس مدنية الدولة كذبًا وعدوانًا، كما ستكتشف من دراسة كرم أوكتم الخطيرة؛ فقد تمت في ظل هذا الشعار أبشع ممارسات القمع وانتهاك حقوق الإنسان وحرياته.

وبدلاً من أن تتخذ تركيا موقعها في مصافّ الدول المتقدمة كما كانت تستحق، ظلت متخلفة ورهينة للفساد والفقر؛ حتى جاء رجل ذكي اسمه رجب طيب أردوغان، قرر أن يلاعب الدولة الغويطة بسلاح شديد الخطورة، هو سلاح رضا الشعب . ستجد إن أحببت في كتابي (التغريبة البلالية) عرضًا وافيًا لرحلة صعوده السياسية إلى قمة السلطة في مصر. وعندما نجح أردوغان في تحسين حياة الناس، وقام بخلق طبقة عريضة استفادت من سياساته الاقتصادية والاجتماعية وآمنت بها وتحمست لها، بدأ يرفع من سقف مواجهته للدولة العميقة، ونجح في كشف قضية مؤامرة أرغانكون أو المطرقة الشهيرة التي كشفت للناس كيف عربد العسكر في البلاد وكيف كانت شياطين دولتهم الغويطة مسئولة عن الكثير من الجرائم التي ظلت غامضة ومنسوبة إلى "الطرف الثالث"، الذي عانى منه الأتراك على مدى أكثر من خمسين سنة.

ومن يقرأ تفاصيل المواجهات القضائية التي تتم مع الدولة الحارسة منذ سنوات يدرك ذكاء أردوغان وحزبه الذي جعله يقنع الملايين أن القضية ليست شخصية تخصه هو وحزبه؛ بل هي قضية تهم كل تركي بدأ يشعر بأن بلاده تطورت وتقدمت اقتصاديًا، وأصبحت تمتلك اقتصادًا من الاقتصادات العشرة الأهم في العالم، ولولا وجود هذا الظهير الشعبي المستند إلى تجربة نجاح حقيقية ومدروسة وليس إلى شعارات رنانة، لما كان أردوغان قد نجح في أن يقوم بفتح الملف الملغوم لدور الدولة الغويطة في تخريب حياة الأتراك؛ بل إن قادة الانقلاب العسكري الذي وقع عام 1980 بقيادة كنعان إفرين، والذين ارتكبوا جرائم مخزية في الثمانينيات ونالوا عليها حصانة كاملة من الحساب والمعاقبة؛ إذ بهم وقد

أصبحوا الآن قاب قوسين أو أدنى من العقاب كما حدث لجنرالات الخمير الحمر في كمبوديا، الذين حصلوا هم أيضًا على عفو شامل، وعندما تغيرت الأوضاع السياسية والاقتصادية تم القبض على من بقي منهم على قيد الحياة ودخلوا قفص الاتهام وقد تجاوزوا التسعين من عمرهم.

لن يكون الأمر سهلاً لدينا أبدًا، كما لم يكن سهلاً أبدًا في تركيا، ربما كان حظنا أفضل بكثير لأننا نجحنا حتى الآن في تشكيل جبهة شعبية متماسكة لا تؤمن بملاعيب الاستقطاب طيلة فترة الثمانية عشر يومًا التي أسقطت رأس نظام الدولة الغويطة حسني مبارك، وهو ما تداركته الدولة الغويطة فورًا لتقوم بالتركيز بعدها مباشرة على لعبة الاستقطاب، وتقوم بعزل تيارات الشعارات الإسلامية عن المحيط الثوري، وتعدها ببريق السلطة؛ فتندفع تلك التيارات بكل سذاجة وبلاهة لترمي نفسها في أحضان الدولة الغويطة، التي استفردت بها بكل براعة، وقامت بحرقها على الساحة الشعبية في زمن قياسي.. في نفس الوقت الذي عملت فيه على دفع بعض التيارات الثورية الشابة إلى التطرف الثوري، تمامًا كما حدث في تركيا مرارًا وتكرارًا؛ ليتضافر كل ذلك مع الآثار النفسية المريرة التي تنتج عن الأزمات الطبيعية أو المصنوعة؛ ليخلق لنا كل ذلك في المحصلة النهائية حالة نفسية تجعل الملايين يشعرون بالحنين إلى أي طاغية يعيد إليهم ما افتقدوه من أمان واتساق.. وهنا تخرج الدولة الغويطة بمرشحها في الوقت المناسب الذي تعرف أن خلاصها الوحيد سيكون في نجاحه؛ فهو وحده القادر على عدم فتح ملفات فسادها والسماح باستمرار مخازيها وفظائعها؛ حتى وإن كان ذلك في شكل أقل حدة وأكثر شياكة.

هل يعني ذلك أن الدولة الغويطة ستستسلم إذا حدث ولم ينجح مرشحها في أي انتخابات رئاسية قادمة؟ على العكس تمامًا، أظن أنها ستبدأ منذ اللحظة الأولى بالعمل على محورين: المحور الأول: ستحاول فيه استيعاب الرئيس المنتخب وإقناعه بضرورة العمل ضمن المسارات التي ستحددها له، والتي ستكفل له نجاحًا محدودًا يزيد من شعبيته ويجعله يثق أكثر في رجالها ويستسلم لها، مقابل حصوله هو وبعض من معه على مكاسب سياسية وربما اقتصادية مهمة؛ في نفس الوقت الذي يتم فيه تفكيك القوى التي تسانده وعزله عنها شيئًا فشيئًا لكي يسهل التخلص منه مع أول أزمة حادّة يفشل فيها.. المحور الثاني: سيتم التحرك فيه إذا وجدت الدولة الغويطة أن الرئيس سيكون غير قابل للاستيعاب،وأنه يمتلك قدرة على المناورة والتحرك الشعبي، وعندها ستضطر للعمل صراحة لمواجهته بخلق أزمات طائفية واقتصادية وأمنية؛ بل وقد ترتكب جرائم صريحة إذا لزم الأمر.

ومن يتصور أن هذا الكلام يعكس هوسًا بنظرية المؤامرة عليه أن يقرأ كتاب كرم أوكتم ويرى بالوثائق سجل الجرائم التي تم ارتكابها في تركيا منذ الخمسينيات لخلق أزمات حادة وارتكاب جرائم جماعية مفزعة؛ بل ووصل الأمر أحيانًا إلى توريط البلاد في معارك خارجية خاطئة، وكل ذلك كان سببًا في إفشال تجربة العديد من القادة الشعبيين الذين تنامت قوتهم وأطاحت بهم بعيدًا عن السلطة.. لكن ذلك لم يكن قدرًا مفروضًا للأبد على الأتراك؛ بل نجحوا في تجاوزه عندما استجابوا لفكرة فك الاستقطاب التي تبناها أردوغان ورفاقه الذين فتحوا للناس أبواب الأمل في أن يعيشوا في دولة متحضرة تحترم كرامتهم وتصون أمنهم وتقدس

آدميتهم وتجعل لهم موقفًا وطنيًا مستقلاً ومحترما بعيدًا عن العنتريات والجعجعة، وعندما صدق الأتراك هذا الحلم التفوا حول أردوغان وحزبه ومنحوه قوة حصّنته من ملاعيب الدولة الغويطة التي لم تتركه حتى الآن في حاله تمامًا؛ بل لا تزال عن طريق أصابعها الإعلامية القذرة تحاربه وتشوهه وتخلق له الأزمات، ولا يزال الرجل يقاوم ولم يجعله واقفًا على قدميه حتى الآن سوى أنه آمن بقوة الناس وأدرك أنهم هم الملاذ الأخير لكل سياسي فردًا كان أو حزبًا.

ونحن أيضا نستطيع أن نحقق ما حققه الأتراك؛ ليس بانتظار زعيم فرد كأردوغان؛ لأن ذلك ربما لن يتحقق في المدى القريب؛ بل إذا عدنا ثانية إلى أسباب النصر الذي خلعنا به رأس الدولة الغويطة بدءًا من يوم 28 يناير وما تلاه، ولن نستطيع التغلب على ملاعيب الدولة الغويطة إلا به؛ أعني ببساطة شديدة إدراكنا أن عدونا الحقيقي ليس هو المختلف معنا في الفكر أو في الأيديولوجيا؛ بل عدونا هو كل من يريد أن يستمر حكم الدولة الغويطة إلى الأبد.

الدولة الغويطة لا دين لها!

وهل جابنا إلى الوراء ولسه بنجيب ورا؛ إلا أولئك "المتثيقفون" الذين تعج بهم شاشات التلفاز دون أمارة على نباهة يمتلكونها، ودون مبرر مقنع إلا وجود أسمائهم وأرقام تليفوناتهم في إنديكسات تليفونات مُعدّي البرامج؟ليسمموا عقول الناس بكلام كاذب لا أساس له من الصحة،

وليحجبوا فرص الظهور الإعلامي ومخاطبة الناس التي يستحقها كل الذين أفنوا أعمارهم في اكتساب علم ينفع الناس.

قل لي بالله عليك، هل وجدت في كافة وسائل الإعلام ذكرًا لكتاب "تركيا الأمة الغاضبة"؟ هل شاهدت حوارات مع مؤلفه الباحث التركي كرم أوكتم أو مترجمه الأستاذ مصطفى مجدي الجمال أو حتى مناقشات مستفيضة لما به من أفكار يمكن أن تجعل الملايين يفهمون ماهم مقبلون عليه من مواجهة صعبة مع الدولة الغويطة التي أفسدت عليهم حياتهم طيلة الستين عامًا الماضية؟ ولن تترك مواقعها بالسهولة التي يظنها البعض، وأن من ينتظر من العسكر أن يحموا مدنية الدولة واهم كل الوهم، وإن بدا أن هناك تناقضًا بينهم وبين تيارات الشعارات الإسلامية؛ لأنه تناقض وقتي لن يلبث أن يروح لحاله عندما تتفق المصالح ثانية، وسيكون الخاسر الوحيد وقتها الحالمون الحقيقيون بدولة مدنية لا تُحكم بشعارات الدين؛ بل بضرورات الواقع، دولة تستلهم من الشريعة الإسلامية مثلها وقيمها ومبادئها، ولا تفرض على الناس تفسيرات معينة لأحكامها.

مع الأسف لن تجد كثيرين في وسائل الإعلام يتحدثون عن التجربة التركية في حراسة العسكر لما أسموه بالدولة المدنية، وكيف كانت وهمًا حقيقيًّا لم يجلب لتركيا سوى الخراب والفقر والفساد؛ على العكس تمامًا، يمكن أن ترى في كافة البرامج المرئية والمسموعة والمشمومة "خوابير" ولا أقول خبراء- سياسيين واستراتيجيين يرددون كالغربان كلامًا من نوعية أننا يجب أن نسمح للمؤسسة العسكرية لدينا بأن تكون حارسة لمدنية الدولة كما حدث في تركيا! بذمتك كم مرة سمعت هذه

الجملة تتردد في وسائل الإعلام من أدعياء الليبرالية وأدعياء الثقافة أيضًا؟

نعم أقولها صادقًا غير مبالغ، وستعرف ذلك بنفسك عندما تقرأ كتاب كرم أوكتم، لتكتشف زيف هذا الكلام الذي يردده البعض كلما حدثتهم عن أهمية استلهام تجربة أردوغان وحزبه في بناء تجربة مدنية حقيقية؛ لتجدهم يقولون لك كلامًا من نوعية "تركيا وضع خاص.. ماتنساش إن تركيا بلد علماني.. ياريت يبقى عندنا جيش يحمي العلمانية زي تركيا"، وهو مايكشف أنهم لايعرفون شيئًا عن تاريخ القمع الذي مارسته المؤسسة العسكرية ضد الحريات السياسية والدينية وضد الخصوصيات العرقية والثقافية في تركيا منذ نصبت نفسها كحارسة للدولة أو كدولة حارسة على حد تعبير كرم أوكتم، وكيف ظلت كذلك تقتل وتعتقل وتقمع وتفسد وتحيك المؤامرات، وتعربد في البلاد، وتقرر مصير العباد؛ حتى بدأ أردوغان وحزبه بذكاء وحذر شديدين في تقليم أظافرها، بعد أن اجتذب الملايين إلى صفه لكي تكون قوة حارسة له في مواجهة الدولة الحارسة أو الدولة الغويطة التي اتضح أن أردوغان أغوط منها؛ على الأقل حتى الآن.

هؤلاء الذين يثرثرون لدينا بكلام عن مدنية الدولة التركية العلمانية التي حماها العسكر أدعوهم لأن يتأملوا كلام كرم أوكتم في كتابه وهو يقول "قدمت الكمالية الكثير من الرطانة الكلامية عن الأفكار المدنية للهوية التركية؛ غير أنها في الممارسة العملية خلقت جماعات من الآخرين الذين حُرموا من حقوق المواطنة الكاملة؛ فكان الأكراد والعلويون والأقليات غير الإسلامية أكثر من تعرضوا للتهميش بطرق مختلفة..

وبينما كان من الممكن استيعاب الأكراد والعلويين في الحياة السياسية إذا أنكروا أصولهم العرقية والدينية؛ فإن غير المسلمين كان يُنظر إليهم دائمًا كخطر أمني محتمل، ومن ثم لايستحقون المواطنة المكتملة. كل هؤلاء تعرضوا للإقصاء الاجتماعي وقمع الدولة لأنهم أقليات؛ برغم أن مجموع الأكراد والعلويين قد يزيد عن ثلث سكان تركيا اليوم، كذلك فإن المسلمين الذين رفضوا النسخة الكمالية الرسمية من الإسلام وتبنوا قراءات مختلفة لدينهم، تم دفعهم إلى هوامش النظام السياسي؛ بل أحيانًا إلى هوامش المجتمع نفسه. أما الشيوعيون والاشتراكيون؛ فبرغم ازدياد بروزهم في الحياة السياسية والثقافية للبلاد؛ فقد تعرضوا للملاحقات منذ الخمسينيات إلى الثمانينيات وحتى نهاية الحرب الباردة، وحيل بينهم وبين الحصول على حقوقهم.

وفي ظل تلك العقلية الاستبعادية لم يحصل على المواطنة الكاملة سوى المسلمين السنة الأتراك من أتباع المذهب الحنفي، والذين أسهموا في بلورة السياسات العلمانية للنظام الكمالي؛ بينما تعرض كل أعضاء الجماعات الأخرى للإقصاء في مختلف مستويات الحياة العامة"؛ ولذلك فإن العلمانية التي أسستها الجمهورية التركية لم تحقق تغييرًا ثقافيًا في حياة الناس يجعلهم أفضل وأكثر سعادة وعقلانية؛ بل قامت بفرض قراءة معينة للإسلام ودعمتها من المال العام؛ ولذلك كما يقول كرم أوكتم: "نشأت تناقضات غير قابلة للحل لتعيش تركيا واقعًا مصابًا بالانفصام يمكن أن تجده فقط في النظم الشمولية.

فضلاً عن وجود مصدر آخر للتوتر المستمر سببه وجود بنية مزدوجة في الدولة؛ حيث هناك دولة حارسة مكونة من ائتلاف كامل القوة يضم

الجيش والقضاء والبيروقراطية في جانب، والحكومات المنتخبة في جانب آخر. وكانت الدولة الحارسة بمثابة إعادة استنساخ لدولة الحزب الواحد التي أنشأها كمال أتاتورك، وبرغم إدخال تعدد الأحزاب والسماح بالأحزاب المنتخبة بالوصول إلى السلطة إلا أن قادة التحالف الجامع بين قيادة الجيش والقضاء والبيروقراطية استمروا في النظر لنفسه باعتبارهم المُلّاك المستحقين للدولة التي رأوا أنفسهم ملزمين بالدفاع عنها ضد كل من اعتقدوا أنه يمثل تحديات داخلية وخارجية لهيمنة التحالف المذكور".

بذمتك وضميرك ألا يذكرك هذا الكلام ببلد غير تركيا؟ هي بلادنا المحروسة التي يوجد فيها من يعمي أنظار الناس عن هذا الخطر الحقيقي ليصنع لهم فزاعات تلهيهم عنه، طيب ماذا ستقول إذن عندما تقرأ الفقرة التالية التي يتحدث فيها كرم أوكتم عن تطور أداء الدولة الغويطة التي يحاول البعض أن يوهمنا أنها يمكن أن تكون حامية للدولة من الدين، كما حاول البعض من قبل أن يوهم الملايين أنها يمكن أن تكون حامية للدين.. يقول أوكتم: "في بعض الفترات التي تتسم بالاستقرار النسبي في تاريخ تركيا، حدث أن تراجعت الدولة الحارسة إلى الوراء والتزم الجيش والقضاء بالتزاماتهما الدستورية.. أما في أوقات الأزمات وخاصة أثناء التدخلات العسكرية: فإن ثنائية النظام كانت أكثر وضوحًا، ولو حتى لفترة زمنية قصيرة، تلك هي اللحظات التي يستهدف فيها الجيش جماعات وأفرادًا معينين، فيتم تعذيبهم ومحاكمتهم وإدانتهم بواسطة الشرطة والمحاكم؛ بينما تتم حماية القائمين بالتعذيب والانقلابيين من أي ملاحقة، فيسير المجرمون في الطرقات أحرارًا، بينما المحاكم تستدعي

الأبرياء ولا تأتي أبدًا بالعدالة للضحايا. وأحيانًا قد تقوم الحكومات المنتخبة بتقليد الدولة الحارسة فعليًا سواء في المنهج أو الخطاب، ويتم طمس الفروق بينهما، مثلما كان الحال في فترة حكم تانسو تشيلر، والتي انتهجت في أواخر التسعينيات سياسة بالغة العنف ضد الأكراد..

وأخيرًا من الممكن أن ينتهي الحال بالأفراد والجماعات أن يُستخدموا من جانب الحراس أو وسطائهم حتى دون أن يدركوا طبيعة الدور الذي يقومون به في خدمة مشروع أكبر.. ومن الأمثلة على ممارسات الدولة الحارسة في هذا الصدد: استخدام اليمين الديني المتطرف وتملق العسكر للإسلاميين ضد الحركات الاشتراكية في الستينيات والسبعينيات، وكذلك استخدام العسكر للعلويين والعلمانيين والديمقراطيين الاجتماعيين ضد حزب العدالة والتنمية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.. إن الدعوة إلى محاسبة الدولة الحارسة عن معظم حلقات العنف والتخريب في تاريخ تركيا المعاصر لايعني إعفاء القادة السياسيين المنتخبين من المسئولية؛ لأنهم غالبًا وجدوا السبيل للتأقلم مع البنية الثنائية للسلطة؛ لذلك يكون من الضروري تركيز بؤرة الرؤية على الدولة الحارسة، لأن فهم قدراتها على التحايل هو الذي يمكن أن يفسر لنا التحولات والانقلابات في التاريخ التركي؛ إنه العنصر اللا منطقي في السياسة التركية، والذي يمثل جذور سياستها الغاضبة والممزقة؛ ولكنه مع ذلك لم يوقف تقدم المجتمع التركي اقتصاديًا وثقافيًا".

سأترك لك لحظات لكي تلتقط أنفاسك وتتأمل هذا الكلام المهم والخطير جيدًا وأنت تحاول تطبيقه على ماجرى ويجري في الساحة المصرية، وكيف تمت بمهارة شديدة صناعة الاستقطاب الحاد الذي تذكيه غباوات

متعددة على كل الساحات: ليتصور الذين كانوا شركاء في الثورة المدهشة أن مشكلتهم مع بعضهم البعض، وينسوا عدوهم الحقيقي الذي يمكن له ساعة اللزوم أن يكون متدينًا فيسمح بنشأة الأحزاب الدينية ويستخدم المتدينين لضرب شباب الثورة بكل قسوة وغلظة، ثم في لحظة يبدي قلقه من تحول الدولة إلى دولة متدينة، ويظهر حرصه على المدنية والتحضر والحريات الشخصية!

وسأطلب منك أن تراجع خطابات الكثيرين من الذين ملأوا الشاشات بشكل منهجي ومنظم طيلة الفترة الماضية، وسأسألك وأنا راضٍ ضميرك وذمتك: ألا تشعر أن الكثيرين منهم كانوا يؤدون مهمة محددة هدفها أن يشعر الملايين من المصريين أن ملاذهم الوحيد لن يكون إلا في حضن الدولة الغويطة التي ستحميهم من التطرف وانتهاك الحريات؟ صحيح أن ماساعدهم في ذلك هو سيل الحماقات المنهمرة من أنصار تيارات الشعارات الإسلامية، الذين لا أجد غضاضة -بوصفي أحد المؤمنين الكبار بنظرية المؤامرة- في أن أشكك في نوايا وولاءات بعضهم، وأزعم أنه يومًا ما سيكشف التاريخ أنهم كانوا يعملون لصالح أجهزة بعينها؛ تمامًا كما أن بعضهم الآخر ليس عميلاً لهذه الأجهزة؛ ولكن الأجهزة توظف غباءه وصلفه وطيشه لمصلحتها.

إذا ظننت أنني أفرط كعادتي في الإيمان بنظرية المؤامرة أرجوك أن تقرأ في كتاب كرم أوكتم كيف كانت الدولة الغويطة مستعدة منذ عشرات السنين إلى أن تفعل أي شيء من أجل ضمان مصالحها حتى لو كان بإثارة توترات عرقية وطائفية يمكن أن ينتج عنها سفك سيل من الدماء؛ فطبقًا لوثائق رسمية رفعت عنها السرية مؤخرًا يتضح أن التوترات

العرقية التي جرت في ولاية ديرسيم الجبلية في منتصف الثلاثينيات كانت مدبرة ومخططة لتبرير وقوع إبادة عرقية للعلويين يتم استغلالها في إرهاب أية معارضة يمكن أن تظهر في البلاد.

وبعدها بعشرين عامًا عندما وقعت أحداث العنف الطائفي بين الأتراك واليونانيين المقيمين في تركيا في سبتمبر 1955 واندلعت مصادمات عنيفة سقط بسببها عشرات الضحايا من قتلى وجرحى، تمر السنين وتكشف الوثائق التي يشير إليها أوكتم أن الأحداث قد تم التخطيط لها بدقة من تنظيم تابع للدولة الحارسة اسمه (المكتب الحربي الخاص)، وأن هذا المكتب قام بطبع مئات الآلاف من النسخ من صحيفة (إسطنبول إكسبريس) قبل وقوع الأحداث لكي يُحرّض الجمهور، ويتم استغلال كل ماجرى لتسخين الأجواء في تركيا وزعزعة استقرار البلاد حتى تم بعدها بسنوات الانقلاب على حكومة عدنان مندريس المنتخبة التي كانت قد تحدّت الدولة الحارسة وحققت شعبية كاسحة، وهددت مصالح الدولة الغويطة التي قامت بعمل انقلاب عسكري في 27 مايو 1960 بدعوى أنها خائفة على الدستور وعلى علمانية الدولة، وتم إعدام عدنان مندريس الذي يندم الكثير من الأتراك الآن على ماجرى له، ويعتبرون أنه لو استمر في حكم بلادهم لما دخلت في دوامات العنف المجنون التي استمرت حتى مطلع القرن الحادي والعشرين.

ستجد أيادي الدولة الغويطة واضحة بقوة عندما تقرأ تفاصيل الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرالات في مارس 1971 عندما قاموا باستغلال ماقام به بعض الطلبة اليساريون من أفعال ثورية راديكالية، كان من بينها اختطاف السفير الإسرائيلي في أنقرة؛ لإجبار الحكومة على إطلاق

القائد الطلابي دينيز جيزمش، ودخلت البلاد في موجة عنف مجنونة، لم يستفد منها في النهاية إلا بارونات الدولة الغويطة الذين أحكموا سيطرتهم على البلاد، وضحوا بالشباب الثائر الذي لم يُجِد قراءة الواقع، ولم يدرك أولوياته جيدًا؛ فضاع في الرجلين، وعلى حد تعبير الكاتبة فاطمة سيمان "كان الأمر مثل مباراة؛ فالصغار تصوروا أنهم على وشك قيادة البلاد إلى ثورة شعبية؛ بينما زعم رئيس الوزراء سليمان ديميريل والجيش أن الصغار سوف يدمرون النظام الدستوري في تركيا، والكل يعرف أن لا هذا ولا ذاك سوف يحدث؛ ولكن من قُتِل هم الصغار، لقد اعتقد كل طرف أنه يحارب معركته الخاصة؛ ولكنهما سيفهمان فيما بعد أنهما قد خُدِعا".

الأخطر من ذلك كله هو ماحدث في تركيا في سبتمبر 1980 عندما وقع انقلاب عسكري جاء بعد أشهر من انهيار الأمن والنظام وتفشي العنف العشوائي في تركيا ووقوع حوادث اغتيالات متلاحقة؛ ليرحب الناس بالانقلاب العسكري الذي تصوروا أنه منقذهم؛ بينما يرى كرم أوكتم أن الانقلاب تم التخطيط له بدعم مباشر من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأن الدولة الحارسة هي التي كانت تقف وراء كل حوادث الاغتيالات والعنف التي سبقته؛ بدليل أن كل تلك الحوادث انتهت فجأة عقب وقوع الانقلاب؛ مرجحًا أن يكون وراء ذلك العنف جماعات سرية وقوات نظامية سرية خاصة تحصل على مساعدات استخباراتية خارجية.

لذلك أصبحت بعد الانقلاب الشوارع أكثر أمنًا بالفعل؛ وخاصة البنوك التي توقفت حوادث نهبها فجأة؛ لكن العنف اختفى من الشوارع لينتقل إلى السجون، وأصبح من يباشره هم القادة والجنود وحراس السجون،

ومات من أثر التعذيب مائتي معتقل، وأصيب عشرات الألوف، واستغلت قيادة الجيش أسابيعها الأولى في تدمير المجتمع المدني الذي كان يعاني من الاستقطاب المتزايد، وتم حظر كل الأحزاب والنقابات والجمعيات، وتم سجن كل السياسيين والنشطاء في جزر منعزلة ببحر مرمرة، ووضعت الصحف تحت رقابة صارمة، وتم إسقاط كل المواد الليبرالية الموجودة في دستور 1961، ووضع دستور يقيد حريات التنظيم والتعبير وُضعت به مادة تعفي قادة الانقلاب العسكري من أي مسئولية عن أخطائهم.

وفي نفس الوقت تم وضع سياسات اقتصادية رأسمالية وقمع كل اليساريين المعارضين لها، وفي نفس الوقت الذي تمت فيه إعادة ظاهرة عبادة الشخص بوضع صور وتماثيل أتاتورك في كل شبر في تركيا تقريبًا؛ فقد تمت مغازلة الشعور الديني بإنشاء مئات المدارس الدينية وبناء آلاف المساجد وزيادة ميزانية إدارة الشئون الدينية بأكثر من النصف، وشن حملات قمعية بدعوى محاربة الانحراف الأخلاقي في كل أرجاء تركيا، تحول بعضها إلى أضحوكة كما يمكن أن ترى في فيلم تركي كوميدي رائع اسمه (بين الأمم) أو (العالمي)، أتمنى أن تشتري حقوق عرضه أي قناة أفلام وتعرضه مترجمًا أو مدبلجًا لأنه يحكي بشكل ساخر ورائع كيف يمكن أن تتم مقاومة أي قيود توضع على الفن والإبداع من قبل سلطة فاشية، وكيف يجد المجتمع حلوله دائمًا لكي يقاوم غشومية أي سلطة.

هل فعل العسكر كل ذلك حرصًا على الدين والأخلاق؟ بالطبع لا؛ فقد كان نفس جنرالاتهم هم الذين سمحوا بعكس كل هذه الإجراءات في السنوات التي سبقت الانقلاب؛ كل ما في الأمر أنهم شعروا أن قبضتهم على البلاد قد خفت، وأنه لابد من استعادة السيطرة حتى لو كان الثمن

إحداث حالة من الاضطراب الاجتماعي العنيف تجعل الناس تواقين إلى عودة النظام حتى ولو كان على يد قوة غاشمة.

وعندما تحقق ذلك لجأ بارونات الدولة الغويطة إلى الدين والأخلاق لكي يكونا غطاء لأفعالهم الكارثية التي دمرت المجتمع التركي، ليبدؤوا في إعادة تشكيل الحياة السياسية والحزبية على هواهم، وليظنوا أنهم قد أحكموا سيطرتهم على تركيا إلى الأبد؛ ليفاجئهم الشعب التركي برفضه لكل تلك السياسات عندما أتيحت له بعد ثلاث سنوات أول فرصة لأن يجد طريقه إلى صندوق الانتخابات؛ لتدخل تركيا مرحلة جديدة من صراعها مع الدولة الغويطة؛ ذلك الصراع الذي يمكن لنا أن نتجنبه تمامًا لو نجونا من فخاخ الاستقطاب واستعدنا دائمًا روح الميدان التي لن نكسب ولن نربح إلا بها، ولو كره الغويطون والغويطات.

طرف ثالث مين ياعم ..

إنها الدولة الغويطة!

كثيرون كانوا يراهنون على أن العسكر لن يسلموا السلطة للمدنيين أبدًا ولو حتى صوريًّا، وأنهم لن يعودوا ثانية إلى الحكم من وراء الكواليس، كما كان الحال دائمًا؛ فقد جربوا لذة الحكم بأنفسهم ولن يتخلوا عنها أبدًا، وكان يمكن لمراهنات الكثير أن تتحقق بالفعل، لولا أن اللحظة الدولية لم تكن وقتها مواتية لاستمرار حكم العسكر، ولم تكن نتائج الفترة التي باشر العسكر فيها الحكم بأنفسهم سعيدة؛ فقد أدخلوا البلاد في حالة حرب مع نفسها، وأصابوا الحياة فيها بالركود التام بسبب تدخلاتهم في كل شيء بدعوى إنقاذ الأمة؛ ولذلك قرروا إعادة البلاد إلى

حكم مدني صوري من خلال انتخابات كانوا يظنون أنها محسومة سلفًا.. وعندما جاءت نتائج الانتخابات مفاجأة صادمة لهم، قرروا -وعلى عكس توقعات الكثيرين- أن يسلموا الحكم للرئيس المدني المنتخب الذي ظهر على الساحة فجأة من حيث لا يحتسبون، والذي كان الخيار الوحيد الذي لم يشجعه الجيش؛ مؤجلين ألاعيبهم حتى ينتشل الرئيس الجديد البلاد من الكوارث التي أدخلوها فيها ويتضح ما إذا كان سيواجههم بشكل واضح، أم لا؟.

الرئيس المدني المفاجئ الذي نتحدث عنه هو السياسي التركي تورجوت أوزال الذي لم يكن أحد يعول عليه الكثير عند توليه لمنصبه بعد نجاح حزبه (الوطن الأم) المفاجئ في انتخابات 1983، وحصل على 45% من أصوات الناخبين، وتمكن من تشكيل حكومة ائتلافية تولت إدارة البلاد؛ يومها ظن الكثيرون أن أوزال سيصبح مجرد طرطور للعسكر الذين احتفظوا بصلاحياتهم كاملة؛ حتى سقط الجنرال كنعان إيفرين كرئيس عام 89، وربما ساعد أوزال الكثيرين على تأكيد ما ظنوه؛ لأنه كان متفقًا مع السياسات المتشددة للعسكر في مواجهة المشكلة الكردية والمشكلة القبرصية وغيرها من قضايا السياسة الخارجية؛ مركّزًا على الجانب الاقتصادي الذي تركه له العسكر؛ ليتمكن بسياساته الذكية من إنشاء طبقات اجتماعية جديدة هي التي وقفت معه بعد ذلك، عندما كان قد وطد سلطته وبدأ يتحدى جنرالات الدولة الغويطة، وهو مافعله بشكل أكثر نجاحًا بعد ذلك رجب طيب أردوغان الذي استفاد كثيرًا من تجربة أوزال ووضعها نصب عينيه؛ بل وقام بتطوير الكثير من أفكاره وتصوراته.

إذا طبقنا "النظرية الشفيقية" في أهمية معرفة الخلفيات، يمكن أن نقول إن الخلفية المتشابكة لأوزال هي التي جعلته ينجح في أن يجتذب إليه ملايين الأتراك الكارهين لسياسات العسكر: حيث أحبوا تدينه وارتباطه بالطريقة النقشبندية، ونجاحه المهني في البنك الدولي ثم في عدد من الشركات الأمريكية والتركية الكبرى، كما ساعده على تعميق هذا الحب هو أنه حكم البلاد بصلاحيات مطلقة في الشأن الاقتصادي، ولم يجد معارضة لسياساته الاقتصادية بعد كل مافعله العسكر باليسار من قمع وخنق.. وفي زمن قياسي حقق أوزال معدلات نمو تتجاوز 5% مع خفض معدل التضخم من ثلاثة أرقام إلى رقم واحد، وبدأ يقضي على احتكارات الدولة للاقتصاد، وأحدث تغييرات جذرية في صناعة السياحة والإعلام، وأصبح شعار المرحلة هو "الربح السريع بأكبر قدر ممكن في أسرع وقت ممكن"، وأدت سياسات أوزال إلى نشوء طبقات من الأثرياء الجدد وإلى إفقار الكثيرين في نفس الوقت، كشأن كل الانفتاحات السداح مداح على رأي الراحل الكبير أحمد بهاء الدين، وكما يقول الصحفي إيجه تيملكوران؛ فقد خلق أوزال إنسانًا اقتصاديًا، وكان ذلك المشروع الممكن بعد أن قام الجنرالات بتحطيم اليسار وكل البدائل الأخرى التي يمكن أن تقدم بديلاً لرأسمالية الليبرالية الجديدة.

كان مشروع أوزال هو خلق إنسان جديد من أجل نموذج اجتماعي واقتصادي جديد، ألا وهو نموذج دالاس التركي -نسبة إلى مسلسل دالاس الشهير المرتكز على النموذج الأمريكي والإسلام- وكان شعار المرحلة "لنعمل بجد، لنكسب الكثير من المال، لنشاهد التلفزيون، لنشرب الكثيرمن الشاي، لنحقق المكسب السريع".

وبرغم أن الرأسمالية الخشنة التي طبقها أوزال خلقت الكثير من الخاسرين، ودمرت قيم التضامن الاجتماعي الموجودة في تركيا؛ فإن المؤكد أن أوزال -كما يقول أوكتم- تمكّن من مداعبة خيال المواطنين العاديين بتجاوبه مع آمالهم ومخاوفهم، وبفضل الكاريزما التي يتمتع بها؛ وهي بالمناسبة كاريزما لم تكن موجودة لديه بل فاجأ بها الأتراك بعد اعتلائه الحكم: نجح في الجمع بين تحالف المحافظين دينيًّا وبين القوى الرأسمالية الجديدة، ودمج الاثنين معًا في مشروع توفيقي من أجل استعادة هيبة تركيا إقليميًّا وتحسين وضعها الاقتصادي والسياسي عالميًّا.. وكل ذلك مكنه من أن يزيد من تحديه لمثلث رعب الدولة الغويطة (الجيش . القضاء . البيروقراطية)؛ حتى تمكن بعد سنوات من أن يطيح بالجنرال كنعان إفرين، ويصبح رئيسًا للبلاد عام 1989: فهل استسلمت الدولة الغويطة لذلك؟

بالطبع لا: فبمجرد انتخاب أوزال رئيسًا، بدأت وسائل الإعلام التي يدين أغلبها بالولاء للدولة الغويطة في شن حملة جدل حاد حول خطر أسلمة المجتمع التركي، وما قام به أوزال من إجراءات سمحت بحركة وتواجد أتباع الطريقة النورسية وأتباع الداعية المثير للجدل فتح الله كولن، وفي ظل هذا الجدل المحتدم بدأت سلسلة غامضة من الاغتيالات راح ضحيتها ثلاثة من المثقفين المعروفين بآرائهم النقدية فيما يتعلق بالدين: في يناير قُتل أستاذ القانون معمر أكسوي بالرصاص أمام منزله، وفي سبتمبر قُتل الكاتب الملحد والمناهض لرجال الدين طوران دوسون بالرصاص أيضًا، وفي أكتوبر قتل الفقيه بهري أوتشوك بواسطة طرد ملغوم، ولم يتم التوصل إلى القتلة في أي من الحوادث الثلاث؛ ولكن كما

يقول أوكتم "بالاستفادة من معلومات عرفت فيما بعد، وفي ضوء ماكشفت عنه محاكمة أرجنيكون الشهيرة أًصبح من شبه المؤكد الآن أن القتل تم باستخدام قتلة مأجورين يعملون لحساب وحدات مكافحة الإرهاب في الجيش والشرطة، وقد شهد ذلك العقد اغتيال أكثر من 12 مفكرًا وناشطًا سياسيًا وصحفيًا من الأتراك والأكراد، كما اغتيل بضعة ألوف من الأكراد الأقل شهرة من سياسيين وقوميين أو أناس لهم مكانة محلية في الجنوب الشرقي لتركيا على أيدي وحدات الإعدام السرية أو العلنية بشكل متزايد في قنوات الشرطة الخاصة، وعلى الرغم من أن كل هذه القضايا كانت تصنف على أنها غير محلولة، فإن المواطنين العاديين كانوا يعرفون أن القتلة كانوا يعملون لحساب الدولة والجيش؛ بل إن هناك شكوكًا في وفاة أوزال نفسه المفاجئة حسب بعض المصادر بمن فيه زوجته سمرا، وقد بدأ المدعي العام التحقيق في هذه الادعاءات في سبتمبر 2010". (انتهت التحقيقات منذ فترة وجيزة باستبعاد شبهة موت أوزال بالسم ليغلق ملف القضية وإن كانت الشكوك لا تزال حاضرة لدى محبي الرجل وأتباعه).

كان واضحًا أن الدولة الغويطة مصممة على اللعب بالنار أيًا كانت التبعات؛ لكي تهدم حالة الثقة بالحكم المدني التي بناها أوزال أيًا كان رأيك في نتائجها، ووصل الأمر إلى حد أن يتم إطلاق النار في يوليو 1991 على جنازة قيادي كردي من نشطاء حقوق الإنسان تعرض لمحاولة اغتيال غامضة، وعندما مرت جنازته بجوار مركز الشرطة قامت قوات من الفرقة الخاصة -تضع أقنعة بيضاء- بفتح النار على الجنازة ليتحول المكان إلى حمام دم.. يقول أوكتم:"إنه في تحقيقات أرجينكون شهد عملاء

حكوميون عاملون وسابقون من بينهم وزير دولة سابق أن حمام الدم هذا قد تم تنفيذه بأوامر من قائد فوج المدينة وأعضاء خلية سرية تعمل لحساب الدولة.. وبالطبع لم يقف الأكراد صامتين إزاء كل هذا؛ فقاموا بعمل عمليات انتقامية كان أبرزها مهاجمة 300 مقاتل من حزب العمال الكردستاني لمدينة شرناك في أقصى جنوب شرق البلاد في 19 أغسطس 92، ورد الجيش بتدمير المدينة بأكملها، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن تتسبب الهجمات في هجمات مضادة؛ فأعمال القتل تثير الرغبة في الثأر، واتفاقيات وقف إطلاق النار تُعلن وتُخرق، وأصبح من المستحيل تحديد المسئول عن الفظائع المرتكبة.

ومما زاد الطين بلة أن العديد من قوات تشكيل اسمه (حراس القرى) كان أوزال قد أنشأه لمساندة الجيش في القرى الصغيرة، تحولت إلى عصابات شبه قبلية انغمست في تصفية الحسابات مع خصومها وساهمت في تعقيد الصراع، وما زال تسريحها مشكلة منذ أكثر من عشرين عامًا على إنشائها، أما وحدات مكافحة الإرهاب وأدواتها من القتلة المأجورين، فبالإضافة إلى ارتكاب الاغتيالات السياسية، فقد توسعت أيضًا في تهريب المخدرات؛ بل حتى أحيانًا بالتعاون مع مهربين يعملون لحساب حزب العمال الكردستاني المحظور.

ووسط كل هذا كان المئات من المثقفين والنشطاء والمتعاطفين الأكراد مع حزب العمال يتعرضون للقتل والتعذيب، وتم إغراق بعض جثث هؤلاء في آبار مهجورة مملوكة لشركة أنابيب البترول المملوكة للدولة في باتمان، وبقيت هناك حتى أُخرجت عام 2010 في إطار تحقيقات قضائية في جرائم مركز مكافحة الإرهاب، وبفضل سياسة الأرض المحروقة التي تم

اتباعها مع الأكراد تمكنت الدولة الغويطة من محو كل ماحققه أوزال من استعادة الثقة في الأداء المدني، وعادت سيطرة العسكر ثانية على البلاد، وتبنت رئيسة الوزراء تانسو تشيلر سياستهم بالكامل: لتنهار أوضاع حقوق الإنسان في البلاد بأكملها، بما فيها أقاليم بحر إيجه السياحية التي بدا عليها السلم فوق السطح فقط".

في هذا الإطار يحكي كرم أوكتم تفاصيل واقعة شديدة الخطورة يمكن أن تفسر لنا إلى أي مدى يمكن أن تذهب الدولة الغويطة من أجل حماية مصالحها.. الواقعة حدثت في يوم 2 يوليو 93، عندما أقيم في مدينة سيفاس في شرق الأناضول مهرجان خطابي وغنائي في ذكرى الشاعر الأسطوري بير سلطان عبد الله، وهو مهرجان كان يعقد سنويًّا بانتظام، وكان راعيه في ذلك العام وزير الثقافة المنتمي للحزب الديمقراطي الاجتماعي، ودُعي إلى المهرجان الكاتب الشهير عزيز نيسين الذي كان قد استفز الإسلاميين في البلاد وقتها بترجمته لكتاب (آيات شيطانية) لسلمان رشدي.. وقبل بدء المهرجان بأسبوعين امتلأت بلدة سيفاس بكميات كبيرة من المنشورات تهاجم نيسين وتصفه بأنه الملحد عدو الدين الذي لن يجرؤ على زيارة سيفاس، وحثت المنشورات المسلمين على الانضمام للجهاد ضد الكافرين وعزيز نيسين والحاكم الذي دعاه متحديًا الإرادة الشعبية، ولم يخش نيسين من التهديدات بل ذهب إلى المدينة؛ وبمجرد وصوله تجمعت حشود حول المساجد قام بتنظيمها أعضاء حزب الرفاه والمجلس البلدي، واقتحم المحتجون الحفل الافتتاحي في المركز الثقافي؛ فاستخدمت الشرطة لتفريق المهاجمين، وغادر ضيوف الحفل إلى الفندق الذي يقيمون به، ليفاجَؤوا بحشد من عدة آلاف يحاصر الفندق ويهتف

ضد نيسين، ثم بدأ إحراق السيارات الموجودة بالمدخل، وتم قذف الأحجار على النوافذ، ولساعات ظل مئات من الناس محاصرين في الفندق، وهرع المنظمون وحاكم المدينة إلى مهاتفة أنقرة طلبًا لمدد من قوات الجيش والشرطة.. وبد مرور 5 ساعات من الحصار، أدرك المهاجمون للفندق أنهم لا يواجهون أية مقاومة حقيقية من قوات الأمن؛ فبدأوا في قذف نوافذ الفندق بالزجاجات الحارقة؛ لتنتشر النيران بالفندق، ويفقد 35 شخص أرواحهم حرقًا واختناقًا، وكان من بين القتلى مغنون شعبيون وشعراء كبار، وتمكّن نيسين وخمسون آخرون من الفرار؛ غير أن رجلاً في فريق الإطفاء هاجمه ودفعه باتجاه الجمهور الغاضب؛ لكن الشرطة تدخلت هذه المرة وأنقذته، وعلى الرغم من اتصال الحاكم شخصيًّا برئيس الأركان الجنرال دوغان جوريس؛ فإن الفرقة المرابطة في المدينة وقوامها 6 آلاف جندي لم تتدخل لتفريق المحتجين، وكذلك لم تصدر تانسو تشيلر ولا الرئيس سليمان ديميريل أي قرارات لإنقاذ الموقف، بل وقال شهود عيان إن الشرطة وفرق الإطفاء امتنعت عن القيام بأي شيء.

يقول أوكتم: "لقد ارتكبت مذبحة سيفاس في وضح النهار؛ حيث عمل مرتكبوها بحرية، وظل حزب الرفاه الإسلامي يدافع عنهم حتى بعد أن أدينوا بالجرم بأحكام نهائية؛ لكي يتوجه علويون كثيرون باتهام صريح للإسلاميين بقتل إخوتهم في المعتقد.. وبعد هذا بوقت طويل بدأ الكل يتساءلون: لماذا سمح جهاز الدولة كله بارتكاب هذه المجزرة؟ وكانت الإجابة من النوع الذي تقشعر له الأبدان: يبدو أنها كانت مؤامرة أخرى للدولة الحارسة في إطار استراتيجيتها بتحويل الجيران إلى أعداء، وفي هذه

المرة كان الهدف هو دفع العلويين دفعًا لمحاربة الإسلاميين الذين أصبحوا يُعرفون وقتذاك على أنهم العدو الأول الجديد للدولة".

كان الإسلاميون قد بدأوا في تحقيق انتصارات انتخابية وصلت إلى ذروتها في مارس 94، عندما أصبح حزب الرفاه الإسلامي يتولى حكم بعض المدن التركية الكبرى مثل إسطنبول وأنقرة بل وحتى ديار بكر، وقد حقق الحزب ذلك بنسبة لا تزيد عن 20% من أصوات الناخبين؛ لكن تمزق الأصوات بين الأحزاب الديمقراطية والاجتماعية والمحافظة هو الذي مكّنه من أن يصبح الحزب الأكبر في البلاد في انتخابات حزب 95؛ برغم أنه حصل على 21% فقط من أصوات الناخبين، وهو ما أثار قلق الجيش ومخاوف الـ80% من الناخبين الذين لم يصوتوا لحزب الرفاه.. وبالتأكيد كان العلويون من بينهم؛ لذلك عندما وقع اعتداء آخر على العلويين في حي غازي بإسطنبول لم يكن ذلك مفاجأة للكثيرين؛ في هذه المرة بدت الصلات بين الدولة والجناة أوضح بكثير؛ ولكن وسائل الإعلام الرئيسية اختارت أن تتجاهل هذه العلاقات وتصور حادثة غازي على أنها حالة لم يمكن تفاديها أمنيًّا.

وعندما وصلت في يونيو 96 إلى الحكم حكومة ائتلافية عجيبة الشكل بين حزبي الرفاه والطريق المستقيم جعلت الإسلامي نجم الدين أربكان رئيسًا للوزراء وتانسو تشيلر نائبة له. شاءت الأقدار أن تتعرض الدولة الغويطة لواحدة من أكبر الفضائح في تاريخها، عندما وقعت حادثة سير في بلدة سوسورلوك جنوب شرقي البلد، ويتضح أن القتلى هم عبد الله جاتلي القومي المتطرف قاطع الطريق والقاتل المأجور وعضو ميليشيا الذئاب الرمادية الشهيرة، وهو في نفس الوقت أحد رجال المافيا ومهربي المخدرات

منذ السبعينيات، وعشيقته العارضة غونجه أوس، وكان معهما الضابط الكبير حسين كوجداغ مدير مركز التدريب بشرطة إسطنبول، وكان جاتلي وقتها مطلوبًا من قِبَل الدولة رسميًا لاتهامه بجرائم قتل؛ في نفس الوقت الذي كان يتعاون مع الشرطة، وقد وجد معه جواز سفر سليم ولكن باسم شخص آخر، واتضح أنه كان العقل المدبر لعمليات الكوماندوز لاغتيال أكثر من مائة رجل أعمال كردي عام 94 بسبب الشك في تعاونهم مع حزب العمال الكردستاني.

أما قائد الشرطة كوجداغ فقد كان شخصية غامضة جدًا، في الماضي كان ناشطًا يساريًا في الشرطة؛ لكنه في نفس الوقت كان موضع ثقة كبيرة عند المافيا الفاشية، أما الشخص الوحيد الذي تبقى على قيد الحياة فهو سيدات بوجاك وهو من لوردات الحرب الأكراد بمحافظة أورفا في الجنوب الشرقي، كما كان أيضًا زعيم قبيلة بوجاك وقائد وحدة حراس القرى التي لعبت دورًا رئيسيًا في استراتيجية الدولة في مكافحة الإرهاب، وعضوًا برلمانيًا عن حزب الطريق القويم.

هكذا وبفضل هذه الحادثة العجيبة افتضحت أمام الرأي العام أسرار أكثر من عقد من العمليات السرية والتخريبية، فكيف نفسر هذا التواطؤ بين قاتل مأجور مطلوب لدى السلطات وشرطي ذو سجل غامض وسياسي له جيش خاص، ولا يجمع بين الثلاثة على كل اختلافاتهم إلا دورهم في العمل للدولة باستخدام أساليب القتل والترهيب خارج القانون والتي لا تستطيع الدولة أن تقوم بها رسميًا.

لقد شكلت تلك الحادثة ضربة موجعة ليس للدولة الغويطة وحليفتها المفضلة تانسو تشيلر فحسب؛ بل ولواحد من أعداء الدولة الغويطة هو

شريك تشيلر في الحكومة نجم الدين أربكان الذي كان عمر بقائه على المسرح السياسي التركي قد قارب على الانتهاء؛ لكي يتولى الحرب مع الدولة الغويطة واحد من تلاميذه نجح أخيرًا فيما فشل هو فيه.

إنها لعبة "العو" بحذافيرها!

لا يكفي أن تكون مؤمنًا بالمثل والمبادئ لكي تنتصر، يجب أن تثبت في ساعة الجد أنك "قد تلك المبادئ وقدود"، وأنك يمكن أن تضحي بكرسي السلطة من أجل مبادئك.

هذا مع الأسف ما لم يدركه الزعيم التركي الشهير إسلامي التوجه نجم الدين أربكان، الذي ظن في تلك الأيام العصيبة من عام 1997 أن بقاءه على كرسي السلطة في الحكومة التي رأسها بالائتلاف مع حزب الطريق المستقيم بزعامة تانسو تشيلر سيكون أنفع للناس، ودفع ثمن ذلك القرار غاليًا، وكان به أولى أن يستقيل من الحكومة عقب افتضاح حادثة سوسورلوك التي كشفت عن الصلات الوثيقة بين الدولة الغويطة وجرائم القتل والإرهاب التي شهدتها البلاد خلال السنوات الأولى من عقد التسعينيات، في محاولة من العسكر لهزّ ثقة الأتراك بقدرتهم على أن يحكمهم مدني منتخب فتتقدم بلادهم ولو نسبيًّا كما حدث في عهد تورجوت أوزال.

يومها نظر أربكان تحت قدميه -بيفكرك بمين.. هه؟. ولم ينحز للمبدأ، وقرر أن يهادن العسكر ودولتهم الغويطة فدفع الثمن غاليًا بعد ذلك بقليل، وكان أشرف له ولحزبه لو قرر أن يستقيل على الفور ويطالب

بتحقيق شامل في الفضيحة ضاغطًا على الدولة الغويطة ومستغلاً ماتعرضت له من مأزق؛ لكنه على العكس قرر أن يتعاون مع تانسو تشيلر لإيقاف التوسع في الجدل حول القضية؛ بل وصمت على دفاع تشيلر المستميت عن أبطال الفضيحة؛ حتى بعد أن انكشف تورط وزير داخليتها وخبير مكافحة الإرهاب محمد أغار في القضية وإجباره على الاستقالة. وظلت أجهزة الدولة الغويطة تمارس تخريب الأدلة وتطويق آثار الفضيحة بهمة ونشاط؛ وهو ما أدى بعد ذلك إلى صدور أحكام بالسجن لأشخاص في رتب متدنية في أجهزة الدولة؛ بينما خرج من الاتهام كل أصحاب الرتب العالية، وحتى الذين سجنوا تم إطلاق سراحهم بعد أقل من عام، ولم تستطع حتى حكومة رئيس الوزراء اللاحق مسعود يلماظ أن تحقق في القضية برغم أنه وعد بذلك؛ لكنه لحس وعده بعد محاولة اعتداء تعرض لها في بودابست، وكل ذلك لم يكن ليحدث لو كان قد تم طرق الحديد وقت أن كان ساخنًا.

كان أربكان قد قرر تفضيل الطناش لكي يستمر فيما تصور أنه أهم وأجدى، وهو الانفتاح الإسلامي على البلدان الإسلامية المجاورة مثل إيران وبناء علاقات اقتصادية معها، مستلهمًا الكثير من الخليط الذي صنعه أوزال بين الخطاب العثماني الجديد والبراجماتية الاقتصادية؛ لكن حظه كان سيئًا عندما قرر أن يزور ليبيا بناء على مشورة سيئة؛ فتعرض للإذلال على يد العقيد اللاسع على الدوام معمر القذافي.. كان أربكان قد ذهب إلى طرابلس متوقعًا أن يحصل على دعم القذافي لتوجهاته الإسلامية الهادفة إلى إعلان منطقة اقتصادية مشتركة أساسها عملة إسلامية؛ لكنه حصل على نقد مرير على الملأ لسياسة تركيا الموالية

لإسرائيل والقامعة للأكراد الذين قال القذافي إنهم يستحقون دولة خاصة بهم، وهو ما لا أظنه كان نابعًا عن إيمان بحق الأكراد -وإلا لكان قد ظهر على توجهات القذافي فيما بعد- بقدر ماكان نابعًا من نزوة جعلته يختار إهانة أربكان الذي دفع ثمن تلك الزيارة غاليًا، قبل أن يزداد موقفه الخارجي سوءًا عندما قررت المفوضية الأوروبية في عام 1997 بدء مفاوضات الالتحاق بالاتحاد الأوروبي مع بلدان وسط أوروبا وقبرص، ولم تعترف بتركيا حتى كدولة مرشحة؛ وهو ماجعل أربكان يتعرض لضربات إعلامية متوالية قادتها الدولة الغويطة ببراعة منقطعة النظير ساهمت في حرق أربكان وعطلته عن تحقيق إنجازات داخل تركيا التي كانت تترنح تحت وطأة الفساد والفشل المحلي؛ لتبدو على حد تعبير أوكتم "أكثر شبهًا بديكتاتوريات العالم الثالث من كونها بلدًا له مستقبل أوروبي".

في هذه الظروف العصيبة التي مرت بها تركيا قرر محام تركي مستقل اسمه إرغن جينمين أن يقوم بخطوة تاريخية كان الأولى أن تأتي من أربكان بتاريخه السياسي الطويل.. ألقى ذلك المحامي حجرًا ثقيلاً في مستنقع الفساد السياسي الآسن في فبراير 1997، عندما أطلق مبادرة المواطنة للاحتجاج على التردي الأخلاقي في الدولة والحكومة. ولتقديم السياسيين المتورطين في فضائح الأنشطة السرية لمكافحة الإرهاب إلى العدالة.. ولم يكن المحامي يتوقع مستوى التأييد الذي يمكن أن تلقاه مبادرته التي حملت اسمًا شديد الدلالة والشاعرية "مبادرة المواطنين الأتراك من أجل الضوء الدائم"؛ قائلاً في بيانه كلمات رائعة نسأل الله أن نراها قريبًا على لسان أغلبيتنا التي يزعم البعض أنها صامتة؛ بينما هي متفرغة لترديد الشائعات والكلام الفارغ بدلاً من اتخاذ مواقف إيجابية

جريئة كالتي جاءت في بيان مبادرة جينمين الذي حمل عبارات بليغة من نوعية "نحن مواطنو الجمهورية التركية من الأغلبية المعتبرة صامتة، وقد استنتج البعض أن صمتنا يعني الإقرار بكل ما يحدث؛ ففي جانب هناك من ليس لديهم ما يقولونه، وفي الجانب الآخر هناك مجتمع لديه الكثير ليقوله ومع ذلك لاذ بالسكوت.. وإننا كمجتمع نرفض هذه المرة القيام بدور الأغلبية الصامتة؛ فبدلاً من أولئك الذين ينتهكون القيم، قيم الوطنية والعدالة والديمقراطية وسيادة القانون ويتحدثون باسمنا، نريد هذه المرة أن نتحدث بأنفسنا، نريد إنهاء الدنس الذي غزا حياتنا، وبدلاً من صور وأنباء المعاناة والتمزق، نريد أن نسمع أخبارًا طيبة ومنيرة وجيدة، وعلى الرغم من التعقيد الذي تنطوي عليه كل هذه المسائل؛ فإن طلباتنا بسيطة: أحيلوا إلى العدالة أولئك الذين أنشأوا وأداروا التنظيمات الإجرامية.. لا تغطوا على القضايا والعلاقات القذرة بدعوى الحفاظ على أسرار الدولة، لا تقيموا وكالات للدولة تعمل ضد خير المواطنين، لا نريد لبلدنا أن يعرف دوليًا ببلد القتلة الطلقاء والقتل خارج القانون واستضافة 80% من مهربي المخدرات في العالم، نريد أن يتحقق كل هذا سريعًا، في سياق من حياة ديمقراطية وأساليب غير ديمقراطية، إننا كجمع من تجار وموظفين متقاعدين وأصحاب أعمال وعمال وموظفين حكوميين وطلاب وفنانين ومهنيين نريد توضيح تلك المسائل التي نضع تحتها توقيعنا".

وطلب أصحاب المبادرة من مؤيديهم أن يطفئوا الأنوار في بيوتهم لدقيقة واحدة في تمام التاسعة مساء، ويعتقد أن عدد المشتركين في هذه الحملة الاحتجاجية قد بلغ قرابة الثلاثين مليون مواطن مرة واحدة، وفي بعض

الأحياء خرجت النساء إلى الشوارع وهن يضربن قدورهن؛ بينما استخدم آخرون الصفير والمشاعل، وكانت حملة "دقيقة ظلام من أجل الضوء الدائم" أول نشاط جماهيري في العصيان المدني واحتجاجًا شعبيًا سلميًا وقويًا، وقد حاول الائتلاف الحاكم تسفيه الحملة، وعلى طريقة "إيه اللي لبسها عباية بكباسين؟" الشهيرة، وبدلاً من أن يتحلى الإسلاميون بالذكاء لدعم هذه الحملة الشعبية، حاول وزير العدل عن حزب الرفاه الذي يقوده أربكان نزع الطابع الأخلاقي عن عمل المحتجين؛ وهو ما دفع المزيد من المواطنين للانضمام إلى الحملة، وكان يمكن أن تتسع هذه الاحتجاجات الشعبية لتؤدي إلى الكشف الفعلي عن الشبكات السرية والتحقيق مع المجرمين الذين يحتلون مناصب رسمية ويدعمونها؛ لكن الدولة الغويطة نجحت ببراعة في اختطاف الفضاء السياسي مرة أخرى بشكل مذهل يُفصّله أوكتم في كتابه الكاشف.

فجأة ومن حيث لا يدري أحد، بدأت كل البرامج الإخبارية ووسائل الإعلام الرئيسية تتحدث عن جماعة دينية سرية لم يسمع أحد عنها من قبل، بما في ذلك قادة الطرق الدينية الرسمية، أسماها الإعلام (طريقة أكزميندي)، وأخذ يشبهها بحركة طالبان الأفغانية، ويحذر من قيادتها لانقلاب وشيك يؤدي إلى استيلاء الإسلاميين على الحكم بأكمله؛ في نفس الوقت ساعد غباء أنصار التيار الإسلامي الإعلام في مسعاه: فقد قام الإعلام بالهجوم المبالغ فيه على (ليلة القدس) التي كان حزب الرفاه يقيمها في مدينة أنقرة كل عام؛ ليقوم الإعلام على مدى شهر كامل بتضخيم دعوات انطلقت في مهرجان هذا العام دعت إلى تحرير القدس

وشهدت خطبًا نارية دعت إلى النظام الإسلامي العالمي العادل والوقوف ضد المؤامرة اليهودية التي تحكم العالم.

وكما يلاحظ أكتم "لم يكن هناك من جديد في هذه الآراء، ولكن أحد المدعوين للمهرجان هو الذي جعله مثيرًا للاستغراب، ألا وهو محمد رضا بكري سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية؛ ولذلك بعد بضعة أيام اندفعت الدبابات في الحي الذي شهد المهرجان في رسالة واضحة معناها أن الجيش مستاء للغاية"، وعقد أعضاء هيئة الأركان مع قادة الحكومة اجتماعًا لمجلس الأمن القومي؛ فيما عرف باسم (انقلاب 28 فبراير 97 مابعد الحداثي).

في الاجتماع أبلغ قادة الجيش كلاً من أربكان وتشيلر أن الرجعية الدينية أصبحت تمثل الخطر الأكبر على وحدة تركيا، وأن هناك تهديدًا خطيرًا بأن يختطف الإسلام الراديكالي الجمهورية، وعلى سبيل تقوية موقفهم عرض الجنرالات قصاصات صحف وصورًا؛ من بينها صور لجماعة أكزميندي المخيفة، وفي نهاية الاجتماع قدم الجنرالات قائمة بالإجراءات المطلوب من الحكومة اتخاذها؛ طالبين فرض رقابة صارمة على الجمعيات الإسلامية، وتقليص مدارس "إمام . خطيب" الدينية والمقررات القرآنية، وتهميش رأس المال التابع لرجال الأعمال المتدينين في الأناضول، وإغلاق محطات التلفزيون والإذاعة المعادية للعلمانية.. ولكي تضمن قيادة الجيش تنفيذ طلباتها أنشأت هيئة إشرافية يترأسها نائب رئيس الأركان شفيق بير وأطلقت عليها مجموعة العمل الغربية.

وهكذا بعد أن كانت قيادات الجيش تلعب بالورقة الدينية في الثمانينيات لمواجهة اليسار، أصبحت تلعب الآن بورقة العلمانية لمواجهة الإسلاميين

ولإسكات أصوات الأغلبية الصامتة التي أخافتها، وبعد أن كانوا في انقلاب 1980 قد سمحوا بإنشاء العديد من المدارس الدينية لمواجهة المد اليساري طلبوا هنا إلغاء هذه المدارس وتقليص نفوذها بمد التعليم الابتدائي الإجباري ليصبح ثماني سنوات بدلاً من خمسة، لكي لا يتجه الأتراك إلى المدارس الدينية كعادتهم.

كان يمكن لأربكان أن ينتفض ويرفض كل هذا؛ لكن قِصَر نظره وانتهازيته السياسية جعلته يرضخ للضغوط العسكرية والإعلامية، ويوقع على ما عُرِف بعد ذلك بخطة محاربة النزعة الإسلامية. يقول أوكتم:"إن قادة الجيش هنا -وعلى النقيض من انقلاب 1971- فضلوا هذه المرة تشكيل سياسات الحكومة بطريق غير مباشر؛ أي بدون الاستيلاء على السلطة بأنفسهم، وقاموا خلال العامين التاليين على توقيع الخطة بالتحكم أيضًا في الجامعات، وإلغاء القرارات التي كانت تسمح للمحجبات بدخول الجامعات في السنوات الماضية، وفي جامعة إسطنبول ابتكر نائب عميد الجامعة ما أسماه بغرف الإقناع؛ حيث تقوم أستاذة مختارة بعناية بإقناع الطالبات بعدم ارتداء أي شكل من أشكال الحجاب، ومن ترفض منهن خلع الحجاب لا يُسمح لها بالالتحاق بالجامعة كما تروي والدة كرم أوكتم -التي كانت محاضرة وقتها في مدرسة اللغات الأجنبية بجامعة إسطنبول- كيف كان يتم إجبار الجميع على حضور محاضرات يلقيها ضابط من رتبة عالية عن مواجهة الإسلام السياسي.

يقول أوكتم: "وهنا تلقى الرسالة بارونات الإعلام وعمداء الجامعات وقضاة المحكمة الدستورية، وبالفعل قامت المحكمة الدستورية بواجبها وحظرت حزب الرفاه في يناير 1998؛ برغم أنه كان أكبر أحزاب البرلمان،

وفقدت كثير من محطات الإذاعة والتلفزة رخصها على أساس موقفها المناهض للعلمانية؛ برغم أنها كانت قد حصلت على الرخصة في ظل نفس النظام العلماني، ولعب العديد من وسائل الإعلام الرئيسية دوره في مشروع الهندسة المجتمعية الذي يقوم به الجيش، فلم يكن هناك أي نقد تقريبًا لقادة الجيش؛ بينما دعمت بشكل عام الحرب على العدو وهو الإسلام السياسي الذي كان حليفًا للعسكر مع بدء تنفيذ هذه الخطة، ولم تعرف تركيا سوى نفر قليل من الكتاب والصحفيين تجرؤوا على طرح الأسئلة وتذكير القراء بأن مايحدث ليس محاولة جديدة لإنقاذ الجمهورية العلمانية؛ وإنما هو انقلاب غير شرعي، وقد تعرض كل هؤلاء للتهديد من قبل سكرتير مجلس الأمن القومي، وتم تهديد صحفهم وتلفيق قضايا لهم بأنهم يتلقون أموالاً من حزب العمال الكردستاني الإرهابي، وفقدوا جميعًا وظائفهم بين يوم وليلة.

وفي وسط كل هذا الحصار كان الأوان قد فات لكي يدرك أربكان خطأه وقِصَر نظر حساباته؛ ليضطر إلى الاستقالة بعد أن تخلت عنه شريكته تانسو تشيلر التي فوجئت هي الأخرى بأن العسكر باعوها واختاروا بدلاً منها مسعود يلمظ الذي شكّل حكومة ائتلافية فاشلة تلو الأخرى؛ لتدخل تركيا في عهد جديد من التخبط والفشل في ظل حراسة الدولة الغويطة الذي لم ينته إلا عندما قرر الشعب التركي أن يكون أغوط من دولته الغويطة.

العسكر جابوا "ضرفها" خلاص!

"لن تنضف هذه البلاد إلا إذا تم هدمها أولاً لكي نستطيع بعدها أن نبنها على نضافة"، مثلما نقول هذه الجملة لأنفسنا كثيرًا منذ أيام مبارك

وماتلاها وصولاً إلى هذه الأيام، كان يقولها الأتراك لأنفسهم في تلك الأيام من نهاية تسعينيات القرن الماضي، بعد أن نجحت الدولة الغويطة في "تكريههم في عيشتهم" بفضل إثارتها للذعر ودعمها للحكومات الفاشلة التي كان آخرها حكومة السياسي المخضرم بولنت أجاويد، الذي حاول أن يُنسي الناس خيبته الداخلية باستغلال القبض على الزعيم الكردي المتمرد عبد الله أوجلان في 15 فبراير 99، بعد رحلة تتبع طويلة ساهمت فيها أجهزة استخبارات دولية عديدة، وبعد أن تخلت عنه الحكومة السورية البعثية المناضلة وباعته في أول ملف لأسباب يطول شرحها؛ بالفعل نجح أجاويد وحزبه (حزب اليسار الديمقراطي) في استثمار الحدث في انتخابات إبريل 99؛ ولكن إلى حد ما؛ حيث اضطر لتشكيل حكومة ائتلافية متنافرة مع حزب الحركة القومية الذي حل في المرتبة الثانية في الانتخابات؛ ربما لأنه كان يدعو دائمًا إلى اتخاذ سياسات متشددة في المسألة الكردية وحزب الوطن الأم؛ لكن تلك الحكومة لم ينفعها كثيرًا حرصها على رفع خطاب سياسي قومي متشدد يعتمد على الطنطنة والنعرات الوطنية ومداعبة المشاعر الفاشية التي تنمو وتترعرع في أوقات الأزمات؛ فقد واجه تلك الحكومة أسوأ سيناريو اقتصادي على الإطلاق؛ حيث ارتفعت معدلات التضخم لتصل إلى معدل 70%، وأصبح الأتراك معتادين على استخدام الملايين والمليارات؛ ليس لأنهم اغتنوا فجأة؛ بل لأن قيمة الدولار الأمريكي الواحد أصبحت تعادل 600 ألف ليرة، وبدأ أغلبية الأتراك يحولون مدخراتهم إلى العملة الأجنبية، وتردت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ترديًا لا مثيل له، وهنا وقعت كارثة مرعبة ظنها البعض إعلانًا لغضب السماء على تركيا؛ لكنها جاءت لكي تفضح تهرؤ حكم العسكر، وتثبت أنه لم يعد صالحًا أبدًا لحكم تركيا مهما كانت

الأسباب والمبررات، وهنا كانت تركيا على موعد جديد مع تحديات القدر الذي بدا للحظات أنه استجاب لرغبة الأتراك الملحة في هدم تركيا كلها.

في الساعات الأولى من يوم 17 أغسطس 1999 ضرب زلزال بلدة غولجوك في محافظة إزمير بلغت قوته سبعة درجات ونصف على مقياس ريختر. وكان واحدًا من أكثر الزلازل تدميرًا في تاريخ تركيا؛ حيث يقدر عدد القتلى بأربعين ألف قتيل طبقًا لمصادر خاصة ينقل عنها كرم أوكتم؛ برغم أن الأرقام الرسمية التي تم إعلانها بعد شهور تقول إن القتلى بلغوا فقط 18 ألف قتيل؛ في حين تهدم أكثر من 300 ألف مبنى.. فضح الزلزال ارتباك الحكومة وفشلها عندما تأخرت جهود الإغاثة لأيام، ولم تتمكن حتى من إرسال فرق الإنقاذ الدولية بشكل سريع وفعال إلى المناطق المنكوبة.. وفي وسط ذلك الفشل الحكومي الفادح الفاضح، التف الأتراك حول مبادرة صغيرة للمجتمع المدني ثم توسعت شيئًا فشيئًا، كانت مبادرة قام بها الأكاديمي التركي طناي سيكتي أوبار، وشارك فيها كرم أوكتم نفسه الذي يقول واصفًا أثرها السياسي: ".. وسط المعاناة والألم استيقظت تركيا على حقيقة أن لديها مجتمعًا مدنيًا قويًا كان أكثر قدرة وكفاءة من الدولة على تنظيم حياة الشعب، كما أدركوا أن العالم ليس معاديًا لهم؛ فجاءت الاستجابة قوية من كل البلدان الرئيسية في العالم ومن دول مثل اليونان وبلغاريا ومصر وغيرها، وهكذا تداعت رواية الدولة العميقة المبالغ فيها عن كون تركيا بلدًا محاصرًا بالكراهية من العالم أجمع؛ تلك الرواية التي يغذيها حراس الجمهورية والكثير من وسائل الإعلام منذ انقلاب 1997.. وأصبح من المؤكد أن الأمور لن تعود كما كانت؛ فبعد ثلاث سنوات من فضيحة سوسورلوك -التي اكتشف الأتراك فيها ضلوع

الدولة الغويطة في عمليات الإرهاب الأسود- عرف الناس مذاقًا آخر لقوّتهم".

بعد الزلزال عاشت تركيا مرحلة صعبة من الصراع مع التدهور الاقتصادي الذي كانت تعيشه، والذي أدى إلى خفض قيمة الليرة التركية بحوالى الثلث تقريبًا، وعندما لجأ بولنت أجاويد إلى صندوق النقد الدولي لإنقاذه، تسبب ذلك في حدوث صراع سيامي بينه وبين الرئيس التركي أحمد نجدت سيزار الذي لم يكن معجبًا بالاعتماد على صندوق النقد، وكان رافضًا للخطط الحكومية لخصخصة مشروعات الدولة مثل شركة الاتصالات التركية، وكان يعتبر هو وقادة الجيش أن ذلك يشكل تدخلاً خطيرًا في الأمن القومي التركي، كما أن سيزار -طبقا لأوكتم- كان يشك في النوايا السياسية لأجاويد الذي بدا غير متعاطف بما يكفي مع استراتيجية الجيش في مناهضة الإسلاميين، وتسربت أنباء عن مشادة حصلت بين سيزار وأجاويد رمى فيها سيزار نسخة من الدستور على أجاويد، وأدت أنباء الصدع الموجود في قمة السياسة التركية إلى انهيار النظام الاقتصادي بأكمله؛ مما كان له نتائج خطيرة على كل قطاعات المجتمع، فهربت كميات كبيرة من رؤوس الأموال خارج تركيا، وارتفع سعر الفائدة في ليلة واحدة إلى مايقرب 500%، وانخفضت قيمة الليرة بنسبة 50% هذه المرة؛ أي أن الذين احتفظوا بمدخراتهم بالليرة التركية قد فقدوا نصف قيمة نقودهم؛ بينما انخفضت الأجور الحقيقية بأكثر من 20% في يوم واحد.. استيقظ الأتراك في ذلك الصباح ليجدوا أنهم قد أصبحوا أكثر فقرًا فعليًا بمقدار الثلث، وفي الشهور التالية فقد أكثر من مليون عامل بأجر وظائفهم، كما اضطرت عشرات الألوف من المنشآت

المتوسطة والصغيرة إلى إشهار إفلاسها، وخرجت بنوك كثيرة من السوق فأصبح الآلاف من المصرفيين بلا عمل.

ومع إغلاق المصانع وانهيار السوق المحلية انكمش الاقتصاد التركي وضاعت معدلات النمو التي كان قد حققها خلال فترة حكم تورجوت أوزال وماتلاها، وهنا رأى الكثيرون في شخصية الاقتصادي التركي إسماعيل درويش -نائب رئيس البنك الدولي- منقذًا محتملاً للبلاد؛ ولذلك عيّنه أجاويد كخبير رفيع الطراز؛ برغم أن ذلك التعيين لاقى معارضة شديدة من حزب الشعب الجمهوري والانعزاليين اليساريين واليمينيين بمن فيهم الرئيس سيزار، الذي رأى في ذلك التعيين مؤامرة لبيع تركيا للولايات المتحدة.

في ذلك الوقت العصيب ومع تفاقم الأزمات الاقتصادية ومحاولات تركيا المستميتة للسيطرة عليها، جاءت أحداث 11 سبتمبر وماخلفته من حالة توتر سادت العالم كله لتُلقي بظلالها على تركيا؛ لأن غزو أمريكا للعراق جلب الحرب على الإرهاب إلى الفناء الخلفي للشرق التركي، وأدرك الأتراك أن موجة الإسلامو فوبيا الزاحفة على أوروبا والعالم ستُلحق الضرر بطلب تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي؛ لكن نفس الأزمة كما يلاحظ أوكتم خلقت فرصة كان يمكن استغلالها للحركات الإسلامية المعتدلة في تركيا وعلى رأسها حزب العدالة والتنمية، الذي كان قد نشأ في ذلك الوقت بعد أن اختار أردوغان بعد خروجه من السجن أن يخرج بعيدًا عن جلباب أستاذه نجم الدين أربكان، الذي كان قد تعرض -كما روينا من قبل- للحرق السياسي بسبب أخطائه وقصر نظره السياسي ومهادنته

للعسكر التي أودت به وسارعت في أن يكون التخلص منه أسهل مما تخيل الجميع.

في نفس الوقت تزايدت الضغوط على أجاويد المريض والمرهق لكي يستقيل، وعندما استقال أربعة من وزرائه في يوليو 2002 سقطت حكومته وأصبح مُحتمًّا إجراء انتخابات مبكرة، وهنا اتخذ البرلمان خطوة جسورة أخيرة عندما أقر حزمة من الإصلاحات الحكومية بهدف تذليل عقبات الانضمام للاتحاد الأوروبي؛ فألغيت عقوبة الإعدام فيما عدا أوقات الحرب، وهو القرار الذي استفاد منه المتمرد الأسير أوغلان، وأزيل الحظر على استخدام اللغة الكردية في التعليم والإعلام، ليبدأ التخلص من أثقال عقدين من الحرب وإرهاب الدولة في كردستان، وليسود البلاد شعور عام بأن الإصلاح قادم لا محالة، وأن كل مؤامرات أساطين الدولة الحارسة لن تمنع تركيا من أن تعود إلى عالم السياسة وأن يبحث الأتراك عن طبقة سياسية جديدة؛ بدلاً من الطبقة التي افتضح فسادها وعجزها عن تحدي إملاء الجنرالات.

كل هذا تبدى من خلال نتائج انتخابات نوفمبر 2002 التي فقد فيها 90% من أعضاء البرلمان القدامى مواقعهم، وفشلت كل أحزاب البرلمان السابق (الطريق القويم . الحركة القومية . الوطن الأم . اليسار الديمقراطي . الشعب الديمقراطي الموالي للأكراد) في تخطي عتبة نسبة الـ10% اللازمة للتمثيل النيابي، وأدى هذا التغيير شبه الكامل في النخب السياسية إلى نشأة برلمان من حزبين فقط؛ فحصل حزب الشعب الجمهوري بقيادة دينيس بايكال على ثلث مقاعد البرلمان بنسبة 20% تقريبًا من الأصوات؛ أما الفائز الأكبر فكان الوافد الجديد حزب العدالة والتنمية الذي حصل

على بقية مقاعد البرلمان بنسبة 35% من الأصوات، وسيشكل قائدًا هذا الحزب المشهد السياسي التركي في العقد الأول من الألفية الجديدة، وهما عبد الله جول الذي ظل رئيس وزراء حتى حل محله رجب طيب أردوغان رئيس الحزب عقب انتخابات تكميلية في مارس 2003، كما تولى جول وزارة الخارجية ثم انتخب رئيسًا للجمهورية عام 2007.

يرى كرم أوكتم أن هذه التركيبة الجديدة للبرلمان أنهت عقدًا من الصراع السياسي العبثي في تركيا، وخلقت وعدًا حقيقيًّا لاستقرار البلاد دعمه تعهد حزب العدالة والتنمية بمواصلة سياسات الحكومات السابقة في برنامجين رئيسيين؛ أولهما: برنامج صندوق النقد الدولي للتعافي الاقتصادي، الذي أعده كمال درويش، وثانيهما: الإصلاحات اللازمة للالتحاق بالاتحاد الأوروبي.

وبرغم القلق الذي أبداه المعارضون للنفوذ الديني وتخويفهم من الخطر الذي سيحيق بالجمهورية العلمانية؛ فإن غالبية الشعب التركي والكثير من المراقبين المتعاطفين قد ارتفعت معنوياتهم بسبب النتيجة، وتأكدت للجميع ضرورة أن يتغلب البلد على التمزق السياسِي، وأن تكون لديه حكومة عازمة على التنمية والأوربة، وصدق الناس أن قادة العدالة والتنمية -برغم جذورهم التي ترجع إلى الإسلام السياسي- قد فكوا ارتباطهم فعلاً بالأفكار الأكثر راديكالية لسلفهم الأيديولوجي أربكان وحزب السعادة الذي لم يحقق سوى 2.5% من أصوات الناخبين، وتحول إلى حزب تسمع انتقاداته بالكاد، وبدا أن القادة الجدد عازمون على وضع حزبهم في إطار تقاليد الديمقراطية المحافظة، وبدأ المحللون يستخدمون مصطلحات مختلفة لتعريف هذه الظاهرة الجديدة التي تجمع بين الورع

الديني والديمقراطية واقتصاد السوق؛ فظهرت تسميات مثل "الديمقراطيون المسلمون" و"الإسلاميون المعتدلون" (وهو المصطلح المفضل أمريكيًّا) و"مابعد الإسلاميين". كما ظهر مصطلح "الكالفينيين الإسلاميين" الذي يُعرّفه كرم أوكتم على أنه يصف "منظمي الأعمال ذوي العمل الشاق والقدرة على توليد النقود والورع الديني معًا، والذين يأنفون حياة الترف ويمارسون الانضباط على أجسادهم ووقتهم ويعيدون استثمار ماكسبوه في مجال الأعمال وأيضا في التعليم والأعمال الخيرية الإسلامية".

لم تقف الدولة الغويطة مكتوفة الأيدي أمام هذا النصر الذي فاجأها؛ فقد بدأت تشن هجومها على القادمين الجدد بشراسة من خلال وسائل الإعلام التابعة لها، وهو الهجوم الذي انضم إليه إخوة الماضي من أنصار حزب السعادة الذين شاركوا في توجيه الاتهامات لأردوغان ورفاقه بأنهم يبيعون تركيا للغرب؛ معتبرين أن حزبه لم يكن ليصل إلى الحكم دون موافقة قوى الهيمنة العالمية، وأن أردوغان وافق على أن يكون اللاعب الرئيسي في موجة الليبرالية الجديدة الثانية -حيث مثلت إصلاحات أوزال الموجة الأولى- وأنه قرر أن يمثل "الإسلام المعدل" الذي كانت الولايات المتحدة تنتظره.

كان هذا مايقوله المعارضون لأردوغان من الإسلاميين؛ أما الجنرالات فلم يكتفوا بالكلام؛ بل بدأوا بعد فترة بجر تركيا إلى جولة جديدة من العنف السياسي بتنظيمهم وتحريضهم؛ لكن ذكاء القادمين الجدد صعّب مهمتهم كثيرًا. وساعدهم على ذلك روح الانتعاش الوطني التي سادت الأتراك وساعدتهم على الالتفاف حول القيادة الجديدة التي قررت أن تركز على

الملف الاقتصادي وتتخذ فيه خطوات ذكية، وتبتعد عن إصدار أية قرارات يمكن أن تعزز مخاوف الناس منها؛ فصعبت مهمة أساطين الدولة الغويطة الراغبين في ضربها، ومكّنتهم في وقت قياسي من تحقيق انتعاش اقتصادي كبير، أدى إلى أن يعرف الإنتاج الصناعي فورة قوية في مختلف أنحاء تركيا، فتطورت المراكز الصناعية خارج إسطنبول، وظهر مصطلح "نمور الأناضول" الذي يشير إلى ظهور مدن صناعية عالية الكفاءة وحسنة الإدارة، بها مناطق سكنية منظمة حتى لو كانت بدون خيال كبير مع استعادة أجواء البلدات العتيقة -دون شك استفاد الحزب من خبرته في البلديات والتي كان نموذج أردوغان نفسه في بلدية إسطنبول رمزًا لها.

وبدا -كما يقول أوكتم- أن تركيا تدخل موجة التحديث الرابعة في تاريخها بعد موجة الصناعات التي أدخلتها الدولة الكمالية، وزرع مندريس لروح ريادية الأعمال المستوحاة من النموذج الأمريكي، واندفاعات أوزال نحو عالم الرأسمالية المعولمة. وكان أردوغان ورفاقه من الذكاء بحيث ربطوا هذه الموجة بمصالح ملايين البشر؛ حيث اعتمدوا -كما يلاحظ أوكتم-على الطبقات المتوسطة المحافظة في الأناضول وعلى مؤسساتها التعليمية وجمعياتها المدنية؛ لكن الدولة الغويطة بالطبع لم تقف مكتوفة الأيدي، وبدا للأتراك أنه لايزال هناك الكثير في انتظارهم وهم يخوضون حربهم من أجل دولة مدنية لا يسيطر عليها الجنرالات الذين يقاومون الهزيمة بشراسة حرصًا على مصالحهم التي يغلفونها بالحديث عن مدنية الدولة التركية.

لكن تجربة أردوغان لم تكن النهاية السعيدة لصراع الأتراك مع الدولة الغويطة؛ فلا تزال المعركة مستمرة هناك، كما ستستمر معركتنا هنا، حتى يصبح لنا دولة مدنية حديثة ظاهرها مثل باطنها، يدينا ويديك طولة العمر لكي نقصر عمر دولتنا الغويطة.

يوليو 2012

مصر ليست تركيا.. وأردوغان ليس تركيا أيضًا!

"القَرعة الإخوانية تتباهى بحجاب بنت أختها التركية، والقرعة الليبرالية تتباهى بشعر بنت أختها التركية أيضًا": هكذا قلت ساخرًا شاخرًا وأنا أسمع وأقرأ كلامًا كثيرًا تم تقديمه خلال الأيام الماضية بوصفه تحليلاً سياسيًّا عميقًا للأزمة التركية التي لا تزال -وستظل لفترة طويلة- في طور التفاعل والاختمار؛ مع أنه لا يصلح حتى لأن يكون نكتة مضحكة من فرط سخافته.

ينطبق ذلك على كثير مما كتبه وردده عدد من الموالين لجماعة الإخوان من باب الدفاع العمياني عن رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، كأن تجربته السياسية تخصهم من قريب أو من بعيد، وكأن لهم علاقة تستوجب دفاعهم عنه؛ لمجرد أنهم يرسلون خيرت الشاطر في رحلات تسول منتظمة إلى تركيا، وينطبق أيضًا على ما يكتبه كثير من الكارهين لتجربة أردوغان والذين لحسوا فجأة كلامهم الذي كانوا يقولونه حتى وقت قصير عن علمانية أردوغان التي صفع بها الإخوان حين زيارته لمصر؛ ليتحول أردوغان فجأة لديهم إلى الرجل الذي انتفض شعبه ضده رافضًا أسلمة تركيا، مع أن أردوغان لا يملك أن يتراجع عن أفكاره التي سبق أن أعلنها حول التزامه بعلمانية تركيا.

ولو بذل هؤلاء مجهودًا لقراءة ما تم إدخاله من تقنين لاستخدام الخمور؛ لأدركوا أنه يماثل كثيرًا مما هو معمول به في العديد من الدول

المتقدمة التي لا علاقة بها بالأسلمة من قريب أو من بعيد، وأن ما حدث من مصادمات في محطة مترو أنقرة بسبب قيام بعض الشباب بتبادل القبلات في المترو ليس أمرًا مرتبطًا بإجراءات حكومية بقدر ما هو مرتبط بتعقيدات اجتماعية متعلقة بالبيئة الأناضولية الأكثر محافظة، التي تقع فيها أنقرة المختلفة تمامًا عن مدن أكثر انفتاحًا مثل إسطنبول وإزمير وأنطاليا، لو أكل فيها الشباب شفايف بعضهم من البوس لما استوقف ذلك انتباه أحد.

شاهدت كاتبًا كبير السن من الذين يبيتون في استديوهات التلفزيون متحدثين عن كل شيء وأي شيء، وهو يتقمص دور الخبير الأناضولي: متحدثًا عن أن الفقراء الذين ينتخبون أردوغان كفروا به ولم تعد تنطلي عليهم ألاعيبه؛ بالمناسبة ليس عندي مشكلة أن تتحدث عن عيوب أردوغان من هنا لبكره، ما دامت مستندة إلى معلومات واضحة وموقف متماسك؛ فتتحدث مثلاً عن طموحه السياسي المتعاظم الذي أصبح عبئًا عليه وعلى حزبه وعلى بلاده، وعن ثقته الزائدة بالنفس التي جعلته يقع في خطأ قاتل بمساندة القمع الوحشي الغبي الذي قام به البوليس في إسطنبول وأنقرة ضد متظاهرين سلميين اعترضوا على محاولة قطع أشجار حديقة "جيزي بارك" في قلب ميدان تقسيم؛ لكن لا تقل لي من فضلك أن الفقراء في الأرياف هم الذين ينتخبونه جهلاً وتغريرًا بشعاراته الدينية؛ لأن أردوغان ليس مسموحًا له أصلاً أن يرفع شعارات دينية، كما أن نجاح الرجل السياسي أصلاً جاء بسبب ارتكازه على طبقة صغار التجار وصغار رجال الأعمال التي قامت سياساته بتدعيمها وجعلها قوة انتخابية مؤثرة.

أعلم أن كراهية الكثيرين لغباء الإخوان فاقت كل حد؛ لكن مقاومة هذا الغباء لن تكون بممارسة غباء مضاد يجعل هؤلاء يروجون لوجود أي شبه من قريب أو من بعيد بين تجربة الإسلام السياسي في مصر وتونس والسودان، وبين تجربة أردوغان التي استندت على أساس من المراجعات الفكرية التي جعلته يختار طريقًا مختلفًا تمامًا عن طريق أستاذه نجم الدين أربكان، والذي يسير إخوان مصر على طريقه الذي لم يفض به إلا إلى صدام عبثي مع الدولة العميقة والمجتمع الرافض للتدخل في حرياته.. يمكن أن أحيلك إلى ما سبق أن كتبته عن مشوار أردوغان وعن صديقي حسن بيه الذي لا يحبه كمعبر عن المعارضة التركية التي لا تثق في توجهات أردوغان؛ حتى وإن كانت تستفيد من إنجازاته الاقتصادية.. ستجد ذلك إن أحببت في كتاب (التغريبة البلالية) الصادر عن دار الشروق.

قلت لصديق تركي وأنا أحضر معه لزيارة قريبة إلى تركيا وأعلم حماسته الشديدة لما حدث: قل لي بصراحة لو استجاب أردوغان لمطالب المتظاهرين وأعلن أنه سيستقيل من منصبه، ثم دعا إلى انتخابات برلمانية مبكرة وشارك فيها ألن يفوز هو وحزبه؟ قال لي بضيق: نعم سيفوز؛ ولكن مجرد هز الكرسي من تحته سيكون مكسبًا مهمًا، أما المكسب الأهم الذي تحقق فهو أن هؤلاء المتظاهرين جعلوا أردوغان ينسى حلم الترشح لرئاسة الجمهورية بعد تغيير الدستور ليصبح النظام السياسي نظامًا برلمانيًا وليس رئاسيًا، قلت له: لكنك تعلم أن ذلك لن يحدث بسهولة ما دامت المعارضة التركية منقسمة على ذاتها. قال لي وهو يتبرم من تكسيري لمقاديفه إنه يراهن على أن ما حدث سيقوي حزب

الشعب الجمهوري الذي يمكن أن يقوم بتجديد دمائه بضم الكثير من الشباب إلى صفوفه أو التحالف مع التكتلات الشبابية التي أفرزتها الأحداث.

وافقته على كلامه وتمنيت أن يحدث ذلك قريبًا، وإن كنت أرى من خلال مراقبتي البسيطة لما حدث، أن أكثر المستفيدين من هذه الأزمة كان رئيس الوزراء التركي عبد الله غول الذي أظهر مرونة سياسية فائقة زادت من شعبيته لدى الأتراك؛ ليظهر أنه ليس مجرد الرجل الذي تم وضعه في قصر الرئاسة إلى أن يوفق أردوغان أوضاعه الدستورية ويحتل كرسي الرئاسة، وبدا أن قصة العلاقة بين الاثنين -وهي قصة حافلة بالمفارقات الدرامية- دخلت منعطفًا جديدًا حين قال عبد الله غول للمتظاهرين مهدئًا أن رسالتهم وصلت، وهو ما لم يستطع أردوغان في ذورة اندفاعه أن يتجاهله، فقال معلقًا في خطأ سياسي فادح: "لا أدري ما الذي يقصده سيادة الرئيس بأن الرسالة وصلت". صحيح أن لهجة أردوغان الأخيرة في مؤتمره الصحفي الأخير الذي عقده في تونس قبل عودته إلى تركيا تغيرت بعض الشيء عن اللهجة العنجهية التي بدأ بها تعامله مع الأحداث؛ خصوصًا عندما أعلن أنه يرفض ديكتاتورية الأقلية كما يرفض ديكتاتورية الأغلبية أيضًا؛ لكنه ما زال حريصًا على أن يظهر بمظهر المكترث بما يجري والمصمم على إكمال كل ما يفكر فيه دون تراجع، وهو ما قد لا يطيح به من منصب رئيس الوزراء؛ لكنه ربما يطيح بحلمه في رئاسة الجمهورية إذا قرر عبد الله غول خوض الانتخابات الرئاسية القادمة مستندًا إلى شعبيته لدى الأتراك التي تضاعفت بشدة عقب أدائه في الأزمة الأخيرة خصوصًا عندما قام باستدعاء رموز المعارضة إلى

قصره وضغط على قيادات العدالة والتنمية وعلى رأسهم بولنت أريتش - نائب رئيس الوزراء- للتهدئة والاعتذار عن همجية قوات البوليس، وهو ما جعل سقف المظاهرات في اليوم التالي ينخفض من إقالة أردوغان إلى إقالة قائدي شرطة إسطنبول وأنقرة؛ لكن الأمر يبقى مرشحًا للتصاعد من جديد لو لم يحسن أردوغان إدارته، ولو لم يعد إلى أردوغان القديم المحنك العاقل الذي كان دائمًا ينبعث كطائر الفينيق عقب كل كارثة سياسية يمر بها ويتصور الجميع أنها أنهت مستقبله السياسي إلى الأبد، وأتصور أن إعلان بلدية إسطنبول يوم الأحد الماضي أن مشروع الحديقة الذي أثار الغضب قابل للتعديل والمراجعة هو بداية هذا التراجع الذي يمكن أن ينقذ به أردوغان مستقبله السياسي بعد أن تعلم أن رضا الناس عن سياساته ليس أبديًا وليس غير مشروط.

ما يحدث في تركيا للأمانة لم يكشف فقط عن أزمة الطموح السياسي لأردوغان الذي جعله لا يدرك أن معظم النار من مستصغر الشرر؛ بل كشف مجددًا عن أزمة المعارضة التركية التي تحمل بداخلها الكثير من التناقضات التي ستجعل استغلالها لما حدث أمرًا شديد الصعوبة، لقد نجح أردوغان وحزبه في آخر انتخابات بنسبة 52% برغم وجود أعلى نسبة مشاركة في تاريخ الانتخابات التركية وصلت حوالى 88%؛ لكن منافسيه في الانتخابات لم يكونوا على قلب رجل واحد ليتمكنوا من قيادة الشارع ضد قيامه بالتوغل في الساحة السياسية الذي وصل ذروته بتقليمه لأظافر المؤسسة العسكرية التي أفسد تدخلها الدائم في السياسة حياة الأتراك خلال الخمسين عامًا الماضية.

المعارضة التركية لا تزال منقسمة بشكل رئيسي بين حزب الشعب الديمقراطي الذي يترنح بفعل الانقسامات السياسية وعدم قدرته على إفراز قيادة تنافس الكاريزما السياسية الأردوغانية، وبين حزب الحركة القومية الذي لم تعد أفكاره العنصرية المتعصبة تلقى الإقبال لدى المواطن التركي الذي مهما حمل بداخله أفكارًا بتفوقه العرقي: فإنه سيبارك سياسة أردوغان لتسوية المشكلة الكردية لكي لا تؤثر على الإنجازات الاقتصادية التي كان من بينها -على سبيل المثال لا الحصر- مضاعفة دخل الفرد ثلاثة أضعاف طبقًا لأحدث الإحصائيات، وتصفير ديون تركيا لدى صندوق النقد الدولي خلال الشهر الماضي.. صحيح أن تركيا لم تصبح جنة الله في أرضه ولن تكون، ولا تزال تعاني مشاكل هائلة في مجال العدالة الاجتماعية؛ لكن أي مقارنة بسيطة يجريها المواطن التركي بما يجري حوله في دول الجوار ستكون قطعًا لصالح أردوغان وحزبه.

لكي يتضح لك تعقيد المسألة أكثر، دعني أحدثك عن بيان أصدره المحتلون لميدان تقسيم في إسطنبول لم تقم أي وسيلة إعلام محلية أو عربية من اللواتي هللن للمظاهرات بالإشارة إليه؛ لكي تستمر في تغذية الانطباع الزائف بأن ما يجري ثورة شعبية ستطيح بأردوغان في التو واللحظة.. دعا البيان المشاركين في التظاهرات إلى الحرص على أن يبقى ميدان تقسيم منطقة خالية من أنصار الفاشية العسكرية والفاشية الأتاتوركية والمصابين بفوبيا الأقليات وفوبيا المثلية الجنسية طبقًا لنصّ البيان الذي كان يعلق على مصادمات جرت بين الذين قادوا حركة الاحتجاجات، وبين أنصار الحركات الأتاتوركية المتعصبة التي تنادي

بعودة الجيش إلى الساحة السياسية والإطاحة بأردوغان؛ لكنها في نفس الوقت تحمل أفكارًا شديدة المحافظة تتصادم مع الذوق الشبابي الذي أعلن أنه ليس مستعدًا أبدًا لأن يطيح بمستبد يسعى للتدخل في الحريات الشخصية باسم القيم الدينية والحضارية؛ ليأتي بمستبد آخر يسعى للتدخل في تلك الحريات باسم الهوية الأتاتوركية.

كشأن كل حدث درامي معقد، يلعب المكان دورًا شديد الأهمية في تغذية الحدث وتقويته، ومن يعرف منطقة ميدان تقسيم التي اندلعت منها الأزمة جيدًا، يعلم أن الأزمة الحادثة أكبر من أن تكون متعلقة بأردوغان وحده كشخص؛ فأردوغان مهما كان زعيمًا كاريزميًّا ميالاً للتغوّل؛ فهو في النهاية يمثل حزبًا شديد القوة والتنظيم، وإذا رحل أردوغان عن الحياة لأي سبب قدري، سيبقى هذا الحزب الرقم الأصعب في الساحة السياسية:خاصة أن لديه كوادر متنوعة الوجوه والميول والأداءات؛ لذلك فأزمة ميدان تقسيم هي تمامًا كميدان تقسيم، تمثل جوهر التناقضات التي تواجهها تركيا الآن، وستظل تواجهها طيلة العقود القادمة لو لم يتم التوافق على طريقة وطنية للتعامل معها تنجي البلاد من العودة إلى حالة التناحر السياسي التي عاشت فيها عقودًا بأكملها، ولم تمحُ إنجازات أردوغان الاقتصادية آثارها من عقلية الأتراك ونفسياتهم.

قرأت للروائي التركي العظيم الحاصل على جائزة نوبل للآداب أورهان باموق مقالاً صغيرًا ومهمًّا نشره في مجلة نيويوركر الأمريكية يتحدث فيه عن أهمية ميدان تقسيم كرمز يحتل وجدان سكان إسطنبول؛ فقد كان المكان الذي شهد عام 1977 حركة احتجاجات يسارية عنيفة ضد القمع

الفاشي العسكري أدى إلى سقوط أكثر من 42 شخصًا، وهو ما غاب عن تفكير سلطات حزب العدالة والتنمية التي تدير بلدية إسطنبول؛ ربما لأنها اطمأنت إلى أن نواب حزب الشعب الجمهوري المعارض أنفسهم كانوا قد وافقوا على إنشاء مشروع اقتلاع أشجار الحديقة وإقامة المركز الثقافي السياحي التجاري الذي كان يُسوّقه حزب أردوغان على أنه إضافة اقتصادية تحتاجها المنطقة.. ثم لما احتدم الصراع بفضل رفض النشطاء البيئيين للمشروع، بدأ يتحدث أكثر عن البعد الحضاري للمشروع الذي يسعى لاستعادة ثكنة عثمانية أثرية كانت موجودة قديمًا في المكان وقام العهد الأتاتوركي بطمس معالمها، ثم قام أردوغان بتذكير نشطاء البيئة بأن أكبر عدد للأشجار تم زراعته في تاريخ إسطنبول كان في عهد رئاسته لبلديتها، وهو العهد الذي كان سببًا في بدء تشكل أسطورة أردوغان السياسية في الواقع التركي؛ بالمناسبة كان رئيس حزب الشعب قد قال فور اندلاع الأزمة أنه لو ثبت فعلاً أن نوابه أعلنوا موافقتهم على المشروع فإنه سيقدم استقالته، وبعد أن تم تقديم المحاضر التي تثبت موافقتهم عليه لحس كلامه عن الاستقالة كأنه لم يقله أصلاً.

دعني أحدثك أكثر عن تقسيم لأقرّب لك المشهد كما أراه:

ندما زرت إسطنبول للمرة الأولى قبل تسع سنوات، أقمتُ في منطقة تقسيم التي يفضلها السياح المصريون والعرب بوصفها "وسط البلد" الأكثر ازدحامًا وبهجة والأرخص سعرًا؛ في حين يفضل السياح الأجانب منطقة السلطان أحمد وما يجاورها من مناطق أثرية أقدم وأشهر. أذكر خلال يوم تجوالي الأول مع زوجتي في الشوارع المحيطة بشارع الاستقلال بمنطقة بي أوغلو التي تنتهي بميدان تقسيم، أننا جلسنا على مقهى

لنستريح من عناء المشي وصدمة سرقة موبايل زوجتي؛ فبدأ صاحب القهوة حوارًا وديًّا معنا عن مصر وعن العروبة والإسلام قائلاً لنا بتفاخر إن زوجته محجبة لأنه يريد أن يدخلا الجنة، ثم قطع كلامه فجأة صارخًا "جهنم وبئس المصير"، وهو ينظر باشمئزاز إلى زاوية معينة خلفنا، عندما التفتنا وجدنا بها بنتين يقومان بتقبيل بعضهما قُبلة سينمائية ساخنة، لم يبد أنها أثارت اندهاش واستغراب أحد في المكان غيرنا نحن وصاحب المقهى.

بعد قليل ومع تأمل أكثر لتفاصيل المكان تكتشف أنك موجود في مكان لا يختلف مطلقًا عن حي سوهو في لندن أو حي ويست فيلاج في نيويورك؛ القبلات والمعانقات بين العشاق الشواذ من الجنسين ليست أمرًا غريبًا على أحد؛ تماما مثل سينيمات الأفلام البورنو التي تجاور دور السينما العادية، عندما يقترب منك أحد إذا كنت تتجول وحيدًا ليقول لك "السلام عليكم أخي.. الأخ عربي.. هل تريد بنات نظيفات للجنس"، ستعرف بعد السؤال والقراءة أنك تسير في الشوارع التي كان يوجد بها أشهر بيوت الدعارة في إسطنبول؛ لكنك أيضًا ستجد في نفس هذه الشوارع أهم المكتبات والمراكز الثقافية والمقاهي الأدبية والمساجد والكنائس الأثرية؛ لتتشكل بداخلك علامات استفهام كبيرة لن تجد إجابة عليها إلا في كتاب مثل كتاب أورهان باموق الرائع "إسطنبول الذكريات والمدينة"، الذي ستدرك من خلاله كيف ظلت إسطنبول طيلة عمرها - وربما إلى الأبد- عصية على الفهم والتغيير والاحتواء.

لا أجد ما يمكن أن يلخص لك كل هذه التناقضات أكثر من قصة حدثت لي قبل ثلاثة أعوام في شهر رمضان، عندما كنت عائدًا من صلاة ليلة

القدر التي حلت أثناء وجودي في إسطنبول؛ فقررت أن أشهدها في مسجد السلطان أيوب الذي يوجد به قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري، الذي مات على أسوار القسطنطينية خلال أولى محاولات فتحها، ومن شدة محبة الأتراك له وتبركهم به خلعوا عليه لقب السلطان وحوّلوا جامعه إلى المزار الديني الأهم في إسطنبول والذي يجتذب في ليالي رمضان مئات الآلاف الذين يتناوبون على الصلاة بداخله وفي الشوارع المحيطة به طيلة الليل وحتى مطلع الفجر.

كانت الشحنة الروحية التي حصلت عليها هناك مذهلة، كنت متأثرًا للغاية بفكرة أن تقضي ليلة وسط آلاف الرجال والنساء ولا تشعر بأي من عيوب الزحام الخانق؛ فلا تسمع صرخة تشكو من وجود حرامي كما يمكن أن تسمع ذلك عند تجوالك في شارع الاستقلال مثلاً، ولا تصادف حالة تحرش واحدة كالتي تحدث لدينا حتى في مساجدنا في قلب رمضان؛ برغم أن كثيرات من الموجودات في المكان غير محجبات ويرتدين ملابسهن العادية، ويكتفين فقط عند دخول المسجد بوضع إيشارب على الرأس تقديسًا للمسجد واحترامًا لصاحب ضريحه.

ظللت أتجول في المكان مبهورًا بكل تفاصيله، وعندما اقترب موعد السحور عدت إلى حيث كنت أسكن في فندق مرمرة الواقع في قلب ميدان تقسيم، وعندما نزلت من التاكسي وجدت الناس متجمهرين حول فتاة في العشرين من عمرها ملقاة على الأرض وجسدها ينتفض متشنجًا، ويخرج من فمها رغاوي بشكل مخيف؛ كان رفاقها يصرخون وهم يستعجلون الإسعاف؛ بينما يحكي أحد المارة لسائح غربي أن ما حدث للبنت بفعل السكر المفرط؛ في حين يقول له السائح الغربي إنه يظن أن

الفتاة لديها مشكلة صرع، وعلى بعد خطوات كان عدد من قبضايات ملهى ليلي مجاور يقومون بفض خناقة عنيفة بين عدد من السكارى كان أحدهم قد تمكن لتوه من فتح رأس رفيقه بزجاجة خمر كانت أضخم زجاجة خمر شاهدتها في حياتي، وبرغم المجهودات المضنية التي يُنذلت لفض الخناقة فإن سارينات البوليس وحدها كانت سببًا في توقفها عندما حاول بعض المشاركين فيها الهروب من المكان؛ صحيح أن هذه المشاهد تتجاور تمامًا مع المشاهد التي رأيتها في مسجد أيوب لتشكل جزءًا من تناقضات هذه المدينة الكبيرة المدهشة المبهجة والمفزعة في تناقضاتها أيضًا، وفي سحقها للفقراء شأن كل المدن الكبرى؛ لكن أي مراقب للشأن التركي يدرك أن تجاور هذه التناقضات إلى الأبد ليس أمرًا مضمونًا أبدًا؛ بل إنها مرشحة للانفجار ما لم يحسم الأتراك الكثير من الأسئلة عن علاقتهم بالغرب وعن شكل النظام السياسي الذي سيختارون المضي فيه قدما، وعن موقفهم من تاريخهم الحديث والقديم.

المدهش أنه من بين سيل النكت التي سمعتها حول ما حدث في تركيا بدت لي إحدى النكت أقرب إلى التحليل السياسي لحقيقة ما حدث وأكثر عمقًا من ببغاوات المحللين السياسيين "الفالصو" الذين تمتلئ بهم وسائل إعلامنا التعيسة، النكتة تقول: "الثورة التركية دي مش هتخلص بسرعة لأنها هتبقى من ميتين حلقة"، وربما لم يكن قائلها يعي أنه أصاب كبد الحقيقة؛ لأنه حتى وإن أطاحت أي أحداث متصاعدة بأردوغان؛ فإنها لن تنهي سخونة الصراع السياسي التركي بين تيار يمثله حزب العدالة والتنمية الذي فرض على أرض الواقع نموذجًا سياسيًّا جديدًا استفاد فيه من تجارب السياسيين التركيين المثيرين لمشاعر مختلطة من

الجدل والتقدير عدنان مندريس وتورجوت أوزال، والذي لا يزال مطالبًا ببلورة مواقفه من الحريات الشخصية والعامة وتقليل عدائيته التي يمثل أردوغان وجهها الأكثر إثارة واستفزازًا، وبين تيار عريض غير منظم ومتشرذم القوى يريد الحفاظ على تركيا كما صاغها الأب المؤسس مصطفى كمال أتاتورك الذي لم ينجح كثير من محبيه في ترجمة شعبيته الجارفة حتى الآن وسط الأتراك إلى تيار سياسي منظم وقوي وقادر على التعاطي مع متغيرات العصر التي لم تعد تعترف بالحكم العسكري ولا بالأفكار العنصرية ولا بالتدخل في حريات الآخرين.

أيًا كان ما ستنتهي إليه مجريات الأزمة في تركيا؛ فقد كان التأمل والتحليل أجدى وأبدى لنا جميعًا في تعاملنا مع ما حدث في تركيا من الشماتة أو التبرير؛ لكن ماذا تقول وقد اختار كثيرون منا إدمان الكسل العقلي واتخاذه طريقًا وحيدًا في الحياة؛ سوى أن تتذكر قوله تعالى {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى}. وهي الآية التي لم تؤثر في حياتنا بنفس القدر الذي أثر به قول الشاعر الشعبي "ماحدش بياخد أكتر من نصيبه ياباشمهندس".

2013

اللهم ارزقنا سجون النرويج!

ومن عجب أن تجد المرء من أدعياء التحضر يحقد على نزلاء سجن طرة من كبار اللصوص والقتلة الذين نهبوا البلاد وأذلوا العباد لأنهم يتمتعون بالطعام الفاخر، وينعمون بالتكييف والإنترنت، ويلعبون ويتسلون وينعمون بالخدمات الصحية المتميزة؛ فيرى أن كل هذا النعيم ينبغي أن يُسلب منهم لكي يعيشوا في شظف وفاقة وبهدلة كالتي يعيشها آلاف المساجين من المهمشين والغلابة في سجون مصر؛ مع أن الأوْلى أن تكون المعركة التي نخوضها جميعًا أن يحظى كل مسجون في مصر بما يحظى به حرامية طرة من معاملة مرفهة؛ لأن بقاء المجرم داخل جدران أي سجن هو عقوبة كافية، ولن يفيد العدالة في شيء أن نمرمط السجين ونمسح به بلاط حمامات السجن؛ بل إن أي معاملة مهينة وغير آدمية يتعرض لها داخل السجن ستخرجه أكثر حقدًا وأشد رغبة في الانتقام؛ وهو ما أدركه العالم المتقدم الذي يهدف لتطبيق القانون ليس رغبة في الانتقام والتنكيل بالناس؛ بل سعيًا لإصلاح المجتمع وتقدمه.

مع الأسف، نحن قوم نتحدث كثيرًا عن التدين والأخلاق والرحمة والعدالة، ومع ذلك لم نحفل بتلك التدوينة المؤسفة التي كتبها سجين الحرية علاء عبد الفتاح عن الأوضاع المزرية التي يعيشها السجناء داخل سجن الاستئناف؛ لدرجة أنه أرسل استغاثة إلى الدكتور عمرو حلمي - وزير الصحة القادم من صفوف الثورة كما يفترض- يستصرخه أن يهب لنجدة مساجين مصابين تتعفن جراحهم من قلة العناية، وهو أمر كنا نظن أنه لم يعد يحدث إلا في أفلام السجون التي تدور أحداثها في القرون

الوسطى؛ فإذا به يحدث الآن في قلب القاهرة، ولم نقرأ منذ نشرت تدوينة علاء عن إجراءات لإنهاء المهازل التي كتب عنها أو القيام بتحقيقات عاجلة مع المسئولين عنها؛ بل على العكس فاجأنا علاء -فك الله حبسه- في تدوينة جديدة بأن السجن الذي شعر بالخجل لأنه طلب النقل إليه هربًا من بشاعة سجن الاستئناف هو سجن تنتهك فيه حقوق المساجين، يقول علاء: "الموظفين والشوايشة وبتوع المباحث لازم يعيدوا وده معناه السجن يشتغل بنص طاقته. يبقى أقفل الزنازين بقى أربع أيام متواصلة لا فسحة ولا زيارات ولا جرايد ولا أكل من بره ولا أي حاجة..إنت عايز المجرمين تعيد لا سمح الله؟".

لا أظن أن ما كتبه علاء يحدث للحرامية والقتلة من نزلاء بورتو طرة الذين يُضرب لهم الضباط سلامات التعظيم لقيامهم بتخريب البلاد؛ بينما يستبيحون تعذيب وإهانة صغار الحرامية والمجرمين الذين يضربون على بطونهم لأنهم لا يمتلكون ضهرًا يسندهم.

سيطلع علينا الآن بعض المهاويس بالعنف الذين يظنون أن إهانة كرامة الإنسان يمكن أن تجعلهم يبيتون في بيوتهم آمنين، ولو نظر هؤلاء إلى تجربة دولة أوروبية مثل النرويج لعرفوا أن العكس يمكن أن يكون صحيحًا تمامًا.. على سبيل المثال لا الحصر، هناك سجن في النرويج يقع في جزيرة اسمها باستوني غرب أوسلو، زنازينه ليست سوى شاليهات خشبية ملونة بألوان مبهجة تنتشر على مساحة ميل مربع داخل غابة رائعة، المساجين مسموح لهم بممارسة ركوب الخيل وإقامة حفلات الشواء وأخذ حمامات الشمس على كراسي شيزلونج، وفي الشتاء لديهم حرية استخدام زلاجات القفز؛ لديهم سينما خاصة بهم؛ لكن ليس لديهم

أسوار أو نوافذ حديدية، ولا يبقى على الجزيرة بعد الثالثة صباحًا سوى خمسة حراس فقط: مدير السجن، وهو معالج نفسي بارز يصفه بأنه أول سجن بيئي في العالم؛ فالسجناء فيه يتعلمون تحمل مسئولية أفعالهم عن طريق اعتنائهم بالبيئة التي يعيشون فيها، يزرعون الخضروات العضوية، ويحولون القمامة إلى سماد، ويقومون برعاية الدجاج والخيل والبقر والغنم، ويستخدمون عبّارة للعبور إلى جزر مجاورة للعمل فيها ويعودون يوميًا دون أن تسجل حالة هروب واحدة، ويُسمح لهم باستخدام السكاكين في الطهي والفئوس والمناشير في تقطيع الخشب دون أن تحدث مجازر بينهم.

طيب، طيب، أسمع الآن صوت شتائمك عاليًا بحقي لأنني لا أعرف الفرق بين سجنائنا الأوباش وبين مساجين النرويج الراقيين.. يا سيدي إذا كنت تظن أن سجنًا مثل هذا تم تخصيصه للمسجونين في جرائم تافهة رومانسية؛ فدعني أقل لك إن سجناء هذا السجن بالتحديد هم من أخطر مجرمي النرويج، وكلهم قتلة ومغتصبون ومتحرشون بأطفال وتجار مخدرات، ولم تفعل النرويج ذلك تدليلاً لهم؛ بل فعلت ذلك إيمانًا منها بأن السجون التقليدية القمعية لم تعد تجدي في مكافحة الجريمة؛ بدليل أن الولايات المتحدة التي تبني دائمًا سجونًا أكبر وأكثر قسوة لم تتخلص من مشكلة الجريمة؛ بينما النرويج التي ستسخر منها بسبب سجون كهذه تتصدر قائمة أقل الدول في معدلات القتل!

هل تعلم أن سجل المسجونين في النرويج يحوي 3300 سجين، أي بمعدل 70 سجين بين كل 100000 نرويجي؛ مقارنة بـ 2.3 مليون سجين في الولايات المتحدة أي ما يعادل 753 سجين بين كل 100,000 أمريكي، وهو

المعدل الأعلى في العالم.. لاحظ أن ولاية كاليفورنيا الأمريكية أنفقت في عام واحد 11% من ميزانيتها على السجون المشددة، وهو أكثر مما تنفقه على التعليم العالي، وهو مالم تفعله النرويج التي اعتبرت أن معاملة السجناء معاملة إنسانية تعزز من فرصهم في الاندماج بالمجتمع؛ فالعقاب الوحشي للسجناء لن يمنع الجريمة، والنرويج نفسها جربت ذلك عندما أفاقت قبل أشهر على صدمة المجزرة الرهيبة التي ارتكبها عنصري مهووس قتل عشرات الشباب المتسامح مع المهاجرين، ولم يكن مسجونًا من قبل أو حتى متهمًا؛ مما يعني أن أي عقاب وحشي للمجرمين لن يحمي المجتمع أبدًا من كوابيس الجريمة المفزعة.

ستسألني: هل المطلوب أن نصنع سجونًا نرويجية للمساجين لكي يستحلوا ارتكاب الجريمة والعودة إلى السجون المرفهة؟ هنا سترد عليك الإحصائيات التي تم عملها حول معدلات الانتكاس الإجرامي لدى المسجونين السابقين، وكشفت أن النرويج من أقل الدول في هذا الصدد؛ فهناك فقط 20% من المساجين في النرويج يعودون إلى السجن مرة أخرى، أما في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة يعود حوالى 50% إلى 60% من المسجونين إلى السجن مرة أخرى، وهو مايثبت صحة توجهات الحكومة النرويجية التي أصدرت في عام 2008 ورقة مبادئ حكومية تقول بالنص: "كلما قلّ الفارق بين الحياة داخل السجن وخارجه، سهُلت عملية انتقال السجين من السجن إلى الحرية"، وهو عكس مانعتقده تمامًا في بلادنا، ومع ذلك لا نحن كافحنا الجريمة ولا نحن تجنبنا تحويل السجون إلى مكان لتفريخ مجرمين لا يتوبون أبدًا.

صوابع النرويجيين ليست زي بعضها؛ ولذلك لم يكن كل مواطني النرويج سعداء بتجربة بلادهم الفريدة في حسن معاملة السجناء؛ لأن تلك التجربة طمّعت فيهم حثالة المجرمين في الدول المجاورة والقصية؛ فتوافدوا زرافات ووحدانًا إلى النرويج لتشكيل عصابات دولية تستفيد من النظام القضائي المتسامح في البلاد ومن السجون المرفهة؛ لدرجة أن 32% من إجمالي السجناء في النرويج هم من الأجانب؛ ولذلك تطالب الأحزاب المحافظة –باستماتة- أن تكون السجون المرفهة للنرويجيين فقط، وأن يتم نقل السجناء الأجانب إلى سجون عادية كالتي توجد في باقي الدول الأوروبية لعدم تشجيع هجرة الجريمة إلى النرويج.. بالطبع لا يجرؤ أي حزب -مهما كان متطرفًا- أن يقترح إعدام هؤلاء السجناء كما يقترح مثلاً لدينا بعض الدعاة أن يتم إعدام من لا ينزل لهم من زور ولا يتفق معهم في الدين والإيمان.. وبرغم وجاهة الأفكار التي يطرحها المحافظون فإن أغلبية المواطنين لم يقتنعوا بها؛ لأنهم يعتبرون أن مجرد قضاء الإنسان للسجن ولو في مكان فخم هو عقوبة كافية، وهو مايعبر عنه وزير العدل النرويجي بقوله لصحيفة (الصانداي تايمز) التي قرأت فيها كل هذه المعلومات: "إذا أردت أن تخفض معدلات الجريمة، عليك أن تفعل أي شيء غير أن تضع المجرمين في سجون خلف أبواب مغلقة".

تلتقي الصحيفة مع سجين قضى تسع سنوات في السجن منها سنة في الجزيرة الخلابة التي حدثتك عنها بالأمس، ومع ذلك فهو يشعر بندم شديد لأنه أضاع كل هذه السنين بعيدًا عن أولاده الأربعة وهم يكبرون، هو سعيد لأنه تعافى من إدمان المخدرات في السجن، وتعلم تصليح

الدراجات؛ بل وأصبحت لديه قدرات تمكّنه من عقد جلسات إرشاد نفسي لزملائه السجناء الذين يريدون أن يكونوا آباء أفضل.

يقول الخبراء إن جزءًا كبيرًا من قدرة المجتمع النرويجي على إبداء هذا التسامح في التعامل مع المجرمين يعود إلى طبيعة وسائل الإعلام: فالصحف النرويجية تعتمد بشكل أساسي على الاشتراكات أكثر من اعتمادها على بيع الجرائد؛ لذلك هي لا تعتمد على العناوين المثيرة لجذب القراء، وأسلوب الكتابة لديها براجماتي أكثر من كونه عاطفيًّا.

في كتابه (عندما يقتل الأطفال أطفالا: عقوبات الشعوب والثقافة السياسية) يقارن الخبير الجنائي الأمريكي ديفيد جرين بين أسلوب الإعلام البريطاني والإعلام النرويجي في تغطية أخبار قتل أطفال لأطفال مثلهم؛ فيقول إن الصحافة البريطانية صورت تلك الأخبار على أنها مؤشر خطير على انهيار الأخلاق في بريطانيا، أما الصحافة النرويجية فعالجت القضية بهدوء ووصفتها بأنها "سابقة مأساوية تتطلب تدخل الخبراء: لكي يسهلوا عملية إعادة دمج هؤلاء الأطفال المجرمين في المجتمع"؛ وهكذا يتم دائمًا التعامل مع حوادث العنف الكبيرة على أنها حالات فردية وليس على أنها عرض لانحطاط وتدهور مجتمع، وهو مايسهل فهمها والتعاطي معها.

أضف إلى حسرتك التفاصيل الآتية: تصنف 36% من سجون النرويج على أنها منخفضة الأمن؛ حيث يسمح للسجناء بعدد غير محدود من المكالمات الهاتفية دون حاجة إلى أن يخبئوا شرائح المحمول في أماكن حساسة؛ بل وتسمح لهم بإجازة أربعة أيام شهريًّا لحثهم على السلوك الحسن خارج السجن، ويستطيع السجين في السجون مشددة الحراسة أن يطلب نقله إلى سجن آخر من سجون النرويج الاثنين والخمسين، ثاني

أكبر هذه السجون اسمه (هالدين) يقع جنوب النرويج ويوصف بأنه من السجون الأعلى أمنًا، وقد استغرق بناؤه 10 سنوات بتكلفة بلغت 230 مليون دولار لأنه صمم على هيئة قرية صغيرة حتى يشعر السجناء أنهم لا يزالون جزءًا من المجتمع، ولكي يكون -على حد تعبير مصمم السجن- "قبضة حديدية مغطاة بقفاز من حرير". فالسجناء يقضون نصف اليوم خارج الزنازين في ممارسة رياضات وأنشطة وهوايات وورش عمل وسط حراس لا يحملون مسدسات؛ لكي لا تخلق نوعًا من التباعد الاجتماعي مع السجناء.. إذا أصدرْتَ الآن أصواتًا ما فلن ألومك فقد سبقتك إلى ذلك؛ لكن انتظر حتى تضيف إليها أصواتًا جديدة عندما تعلم أن الحراس مُلزمون بأن ينادوا على السجناء بأسمائهم الأولى، وبأن يمارسوا معهم الرياضات المختلفة ويقوموا بتناول الطعام معهم؛ لكي ينبع احترام السجناء لهم من تقديرهم وليس من الخوف منهم!

لا وخذ دي كمان، قالك: إدارة السجن ملزمة بأن تقول للسجين فور وصوله: "إذا هربت، فمن فضلك اتصل بنا بأسرع وقت ممكن لنعلم أنك على مايرام"!، وإذا ظننت أنهم يفعلون ذلك لأنهم بلهاء تسيل الريالة النرويجية من أفواههم: فلك أن تعلم أن أكثر هذه السجون تساهلاً أمنيًا لم تسجل فيه سوى حالتي هرب خلال عامين كاملين، وفي الحالتين اتصل الهاربان بالسجن ليقولوا للحراس "أنا بخير.. اطمئنوا".

وبرغم كل هذا تنوي الحكومة إدخال أنماط جديدة من العقوبات مثل برامج المراقبة الإليكترونية التي تسمح حاليًا لحوالى مائة مجرم محكوم عليهم بأربعة اشهر أن يقضوا العقوبة في منازلهم، كما أنها متحمسة لبناء مايسمى بالسجون المفتوحة مثل سجن ساندكر في وسط مدينة أوسلو،

وهو يقع في الدور الأرضي لعمارة سكنية، ويقطن به 16 نزيلاً -لفظ سجين هناك ممنوع- يعملون بالمدينة طول النهار ويعودون في المساء؛ فالسجن يشترط عليهم أن يؤمنوا وظائف لأنفسهم حتى يؤمنوا إطلاق سراحهم.

لست أشك -ولو للحظة- في أنك ستسخر من كل ما قرأته من تفاصيل، وأنك تؤمن بأنها لن تكون أبدًا صالحة للتطبيق في مجتمعنا؛ فنحن أناس نستلذ الشعور بأننا منحطون؛ مع أنه شعور يناقض تديننا وإيماننا الذي يوجب علينا أن نعتقد بأن الله تعالى خلق الناس كلهم أحرارًا ومكرمين وكلهم دون تمييز يستحقون العدالة والعيشة الكريمة.. عليك فقط أن تكون حازمًا في تطبيق القانون دون أن تلجأ للانتهاك الجسدي، وتعطي الناس فرصًا عادلة لكي يبدؤوا من جديد خصوصًا إذا كان الفقر والضنك وانعدام الفرص هو الذي دفعهم إلى الجريمة، وتجفف منابع الجريمة بخلق عدالة اجتماعية وتنمية شاملة. وعندها فقط ستندهش من أن المصري الفقير يمكن أن يكون راقيًا كالنرويجي المرفه؛ لأن الله خلق الاثنين من طينة واحدة، المشكلة أننا أصلاً لسنا مقتنعين أن الله خلقنا نحن المصريين من طينة واحدة؛ ولذلك فنحن نطبق التجربة النرويجية فقط على قاطني بورتو طرة من الحرامية والقتلة.

طيب، في أحوال كهذه يلجأ الناس إلى ترديد عبارة الشيخ محمد عبده الشهيرة التي قالها متحسرًا بعد زيارته لأوروبا، والتي لم نخجل من أننا ظللنا نستشهد بها على مدى قرن كامل دون أن تفقد الصلاحية، وربما لذلك أشرت إليها دون ذكرها، على سبيل التغيير. وأهو تبقى حاجة

اتغيرت من ساعتها، والبقية ستأتي حتمًا بإذن الله؛ فربنا كريم ومصر تستاهل.

نوفمبر 2011

الفهـرس



بعد أن تقرأ.. أو قبل أن تقرأ:

في فيلم (الإرهاب والكباب) رائعة "الأساتذة" وحيد حامد لا يكف أحد الرهائن بتذكير زملائه من المتورطين في الخطف سواءا كانوا رهائن أو خاطفين، بما يفعله الناس "في أوروبا والدول المتقدمة"، وأنا على عكسه تماما أفعل في هذا الكتاب الذي أوجهه لمن استطعت إليه سبيلا من زملائي من الرهائن المخطوفين في هذا الوطن الذي لم يُرزق للأسف بخاطف حسن النية مثل خاطف (الإرهاب والكباب)، بل كان دائما ولا يزال منكوبا بخاطفين غلاظ الأكباد متحجري العقول موهبتهم الوحيدة هي الغباء السياسي، آملا والله من وراء القصد أن تنبههم قراءته إلى أن مشكلتنا صارت أعوص وأعقد وأنيل بكثير، فلم نعد الآن محتاجين لأن يذكرنا أحد بما يحدث "في أوروبا والدول المتقدمة"، بل نحتاج إلى أن نعرف ماذا حدث في كثير من الدول التي كانت متخلفة ولم تعد كذلك، لأنها أخذت بأسباب التقدم وتكف عن انتظار الحلول السحرية، مقررة أن تتخلص من خاطفيها دون أن تفرق بين من خاطفيها بالإنقلابات العسكرية أو خاطفيها بالديمقراطية الشكلية المفرغة من المضمون الديمقراطي، وغاية ما أرجوه أن يسلك المخطوفون في هذا الوطن طريق الديمقراطية الحقيقية الذي سلكه من قبلنا سكان أوروبا والدول التي لم تعد متخلفة، لعلنا نصل ذات يوم إلى نهاية أكثر عدالة وواقعية من نهاية فيلم (الإرهاب والكباب)، ليأخذ المخطوفون حقهم، ويأخذ الخاطفون فيها .

بلال فضل

تصميم الغلاف: محمد صالح شحاتة

